مكتبة

جورج أورويل

مكتبة 848

شيء من الهواء المنعش

المركز الثقافي العربي

مكتبة | 848
سُر مَن قرأ

جورج أورويل

شيء من الهواء المنعش

الكتاب

شيء من الهواء المنعش

تأليف

جورج أورويل

ترجمة

محمد التهامي العماري

الطبعة

الأولى، 2019

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-925-8

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:

George Orwell

Coming Up for Air

مكتبة

t.me/t_pdf

9 6 2022

جورج أورويل

مكتبة | 848
سُر مَن قرأ

شيء من الهواء المنعش

رواية

ترجمة: محمد التهامي العماري

المركز الثقافي العربي

الجزء الأول

مكتبة
t.me/t_pdf

1

خطرت الفكرة ببالي في الواقع يوم حصلت على طقم أسناني الجديد.

ما زلت أذكر جيّداً أنّني قفزت من فراشي حوالي الساعة الثامنة إلا ربعاً وهرعت إلى الحمّام قبل أن يحتلّه الأطفال. كان صباحاً كئيباً من صباحات يناير، بسماء رمادية شاحبة كدرة. ولمحت من خلال فتحة النافذة المربّعة الحديقة الخلفية كما نسميها. مستطيل من عشرة أمتار على خمسة مكسوّة بالعشب، تتوسّطها بقعة جرداء، ومحاطة بنبتة جنبة الرباط. وهي حديقة توجد في خلفية كلّ بيت من بيوت إيلسمير، بالعشب نفسه وجنبة الرباط نفسها. الفارق الوحيد هو أنّه حيث لا يوجد أطفال لا توجد بقع جرداء نُزع عشبها.

وبينما كنت أحاول أن أحلق وجهي بشفرة قديمة والماء يتدفّق في حوض الحمّام، وأنا أنظر إلى صورة وجهي في المرآة، لاح لي في الأسفل، داخل كوب ماء على رفّ المغسلة، طقم الأسنان الذي يفترض أن يناسب هذا الوجه. ذلك أنّ طبيب الأسنان وارنر سلّمه لي مؤقّتاً بانتظار أن يجهّز طقم الأسنان الجديد. والحقيقة أنّ وجهي ليس ذميماً. بشرة حمراء وشعر أشقر في صفرة الزبدة، وعينان زرقاوان شاحبتان، ورأس -حمداً لله- ليس أصلع ولا أشيب.

وبهذه الأسنان الاصطناعية، سأبدو على الأرجح أصغر من سنّي الحقيقي الذي هو خمسة وأربعون.

وبينما كنت أقول في نفسي عليّ أن أشتري شفرات حلاقة، غطست في حوض الحمّام، ورحت أفرك ذراعَيّ بالصابون (ذراعان بدينتان تكسوهما بقع نمش حتّى المرفق)، ثمّ استعنت بالفرشاة لفرك عظمتَي كتفَي لأنّني لا أستطيع غسلهما من دونها. إنّه لمن المؤسف أن صارت أجزاء كثيرة من جسدي خارج متناولي بسبب بدانتي. ليس معنى هذا أنّ بدانتي مشوّهة بحيث يصحّ عرضي ليتسلى الناس بمظهري. فوزني لا يتجاوز قطّ تسعين كيلوغراماً، وآخر مرّة قست فيها خصري، كان محيطه حوالي متر وثلاثين سنتيمتراً أو أربعين، لا أذكر على وجه التحديد. ليست كرشي متدلّية حتّى الركبة، ولست من أولئك البُدُن المقرفين. كلّ ما في الأمر أنّني عريض الأرداف، مستدير قليلاً كالبرميل. هل سمعتم بأولئك الرجال الودودين، الرياضيين المكتنزين الذين يشيعون المرح في الجماعة؟ فأنا منهم. على كلّ حال، فالناس يلقّبونني بالبدين الطيّب. البدين الطيّب بولينغ. واسمي الحقيقي هو جورج بولينغ.

لكنّني لم أكن أشعر بنفسي في تلك اللحظة الشخص الذي يشيع المرح في الجماعة. وقلت في نفسي إن مزاجي في هذه الأيام يكاد يكون دائم التكدّر أوّل الصباح، رغم أنّ نومي ممتاز، وهضمي جيّد. كنت أعرف سبب ذلك بالطبع: هذه الأسنان الاصطناعية اللعينة! كانت، وقد بدا حجمها أكبر بسبب الماء الذي يغمرها في الكوب، مكشّرة على نحو شنيع يذكّرك بجماجم الموتى، ويجعلك تشعر في فمك الأدرد كما لو أنّك قضمت من تفاحة مُرّة. قد تعترض بأن طقم الأسنان شيء حتمي في حياة الإنسان، لكن عند سقوط آخر

أسنانك الطبيعية، لا يعود بإمكانك أن تتوهّم نفسك في وسامة ممثّلي الأفلام الهوليوودية. أمّا أنا فرجل بدين في الخامسة والأربعين من العمر. وحينما قمت لأفرك أعضائي الحميمية بالصابون، بدت لي صورتي على نحو أجلى. ما يشاع عن البُدُن من أنّهم لا يستطيعون رؤية أقدامهم، مجرّد كلام فارغ. عدا أنّني حين أقف منتصباً، لا أرى من قدمَي سوى نصفهما الأمامي. وبينما كنت أفرك كرشي، قلت في نفسي لن أثير اهتمام امرأة قطّ، اللهمّ إذا دفعت لها مقابلاً نظير ذلك.

لكنّ ثمّة أسباباً كثيرة، فيما يبدو، جعلت مزاجي أفضل ذلك الصباح. أوّلها أنني متحرّر من العمل ذلك اليوم، لأنّ العربة القديمة التي أستعملها للقيام بجولاتي (ينبغي أن أخبركم بأنّني أشتغل في وكالة تؤمّن على الحياة والحريق والسرقة والغرق وتحطّم السفن وما إلى ذلك من المخاطر، تُدعى السمندل الطائر) كانت قيد الإصلاح. ورغم أنّني مضطر للذّهاب إلى مكاتب لندن لإيداع بعض الأوراق، كان لدي ما يكفي من الوقت لأزور عيادة طبّ الأسنان وأستلم طقم أسناني الجديد. علاوة على ذلك، كان ثمّة شيء يشغل بالي منذ مدّة، وهو أنّني كنت أتوفّر على سبعة عشر جنيهاً لا يعلم بها أحد سواي، في العائلة على الأقل. وإليكم تفاصيل القضية. هناك شخص زميل لي في المكتب يدعى ميلورز عثر على كتاب قديم بعنوان **تطبيق علم الفلك على سباق الخيل** يوضّح كيف أنّ كلّ شيء في السباق يتوقف على تأثير الكواكب وعلى لون ثياب الفارس. وفي أحد السباقات كانت تشارك فرس تسمّى عروس القرصان لم يكن لها أيّ حظّ في الفوز، لكنّ فارسها كان يرتدي زيّاً أخضر، وهو لون السعد حسب حركة الأجرام. راهن ميلورز المهووس بأمور التنجيم

ببضعة جنيهات على تلك الفرس، وترجّاني أن أفعل مثله. وتحت إلحاحه جازفت في نهاية المطاف بعشر شلنات رغم أنني لا أقامر في العادة. وقد تصدّرت عروس القرصان السباق بسهولة. لست أذكر المبلغ الذي كسبنا على وجه الدقّة، لكن حصّتي بلغت سبعة عشر جنيهاً. وبدافع غريزي -لا يخلو من غرابة، وربّما أشّر على منعطف في حياتي- أودعته بالبنك دون أن أذكر شيئاً لأحد، وهو أمر لم يسبق لي أن فعلته قط. لو كنت ربّ أسرة مثاليّاً، لاشتريت فستاناً لهيلدا (هيلدا هي زوجتي) أو أحذية للأطفال. لكنّني ظللت ربّ أسرة صالحاً لخمس عشرة سنة، وبدأت أضيق ذرعاً بذلك.

بعد أن دعكت كلّ جسدي بالصابون، شعرت بحالي أفضل، فغطست في الحوض لكي أفكّر في الجنيهات السبعة عشر، وما يمكن أن أفعل بها. كان أمامي خياران: أبحث عن امرأة أقضي معها عطلة نهاية الأسبوع مثلاً، أو أصرف المبلغ ببساطة على مدى أيام في أمور تافهة كالسجائر والويسكي. وبينما فتحت صنبور الماء الساخن ورحت أفكّر في النساء والسجائر، إذا بي أسمع جلبة على الدرجَين الموجودَين عند باب الحمّام، ضجّة أشبه بضجّة قطيع من الجواميس. إنّهما الطفلان طبعاً. طفلان في منزل ضيّق كمنزلنا أشبه بكميّة كبيرة من الجعة في قدح صغير. وتناهى إلى سمعي تدافع محموم أعقبه نداء مفزوع:

«أريد أن أدخل إلى الحمام يا بابا!».

«ليس الآن، ابتعد من هنا!».

«ولكن إلى أين سأذهب يا بابا؟!».

«ابحث عن مكان آخر تذهب إليه. اغرب، فأنا أستحم!».

لا أملك أن أفعل شيئاً. كنت أعلم أنّ هذا الصراخ نذير شؤم.

شاء القدر أن يقع المرحاض في منزلنا في الحمّام. أفرغت الحوض، وتنشّفت بأسرع ما أستطيع. وحين فتحت الباب، مرق بيلي -وهو الابن الأصغر، في السابعة من عمره- من أمامي، متفادياً اللطمة التي وجّهتها له. ولمّا فرغت من ارتداء ملابسي، ورحت أبحث عن ربطة عنق، تنبّهت إلى أنّ رقبتي ما زالت تكسوها رغوة الصابون.

إنّه لأمر مزعج أن تجدَ الصابون على رقبتك. شيء يبعث الاشمئزاز في النفس، والأمر الغريب هو أنّك مهما حاولت أن تمسحه، تظلُّ تشعر ببشرتك لزجة طوال اليوم. ونزلت إلى الطابق الأرضي مكدّر المزاج، متوثّباً للشجار.

غرفة المعيشة بمنزلنا، على غرار سائر منازل حي إيلسمير، ضيّقة، بطول أربعة أمتار وعرض ثلاثة ونصف، يزيدها ضيقاً البوفيه الخشبي حيث وُضع الإبريقان الزجاجيان وآلة سلق البيض الفضية التي تلقّيناها هدية من أمّ هيلدا عند زواجنا. وخلف إبريق الشاي وقفت هيلدا واجمة لأنّ جريدة **نيوز كرونيكل** أعلنت عن ارتفاع ثمن الزبدة من جديد، أو شيء من هذا القبيل. ورغم النوافذ المغلقة، كان الجوّ في المنزل بالغ البرودة لأنّها لم تشغل جهاز التدفئة. انحنيت لأشعله وأنا أتنفّس من أنفي على نحو صاخب (كعادتي حين أضطرّ إلى الانحناء)، فرشقتني هيلدا بنظرة جانبية اعتادت أن توجّهها إليّ كلّما أتيت عملاً منكراً.

تبلغ هيلدا التاسعة والثلاثين من العمر. أوّل مرّة رأيتها كانت أشبه بأرنب بري، وما زالت كذلك، لكنّها هزلت واعتراها الذبول. يوحي مظهرها بأنّها دائمة القلق. وحين تتكالب عليها الهموم، تدخل رأسها بين كتفيها، وتشبك ذراعيها على صدرها كغجرية عجوز

تراقب النار في الموقد. إنّها من أولئك الناس الذي يتلذّذون بترقّب الكوارث، التافهة بالطبع. أمّا الكوارث الكبيرة كالحروب والزلازل والطاعون والمجاعات والثورات، فلا تحفل بها. ما يزعجها هو ارتفاع ثمن الزبدة المطّرد، وفاتورة الغاز الباهظة، وأحذية الأطفال الموشكة على التمزّق، وما تبقّى من أقساط المذياع. هذا هو ما يشغل بالها. وقد انتهى بي الأمر إلى الاقتناع بأنّها تشعر بالمتعة حين تقول لي وهي تتمايل شابكة ذراعيها على صدرها:

«ولكن الأمر خطير يا جورج! أتساءل كيف سيكون مصيرنا. من أين تريدنا أن نجلب المال؟ يبدو أنّك لا تدرك خطورة الموقف...».

وتروح تردّد هذا الكلام على مسامعي بلا كلل.

أقنعَت نفسها بأنّنا سننتهي لا محالة في أحد الملاجئ. والغريب هو أنّه لو صدق ظنّها فسيكون أثر ذلك عليها أقلّ بكثير ممّا سيصيبني. بالعكس، ستستطيب بلا شكّ ما ستشعر به من أمان هناك.

كان الطفلان قد نزلا إلى الطابق الأرضي بعد أن استحمّا وارتديا ملابسهما بسرعة وصخب كدأبهما حين يلاحظان بأنّهما لا يضيّقان على أحد في الحمّام. وحين جلست إلى مائدة الإفطار، كانا يلاجّان بهرج، تقول: «بلى فعلتَه!»، فيردّ عليها: «كلا لم أفعله!»، «بل فعلته». لو لم أنهرهما، لقضيا الصباح بكامله في الخصام والملاججة. لا يكفّان عن الشجار رغم أنهما ليسا سوى اثنين: بيلي ذو السبع سنوات ولورنا ذات الإحدى عشرة سنة. ينتابني نحوهما شعور غريب في معظم الأحيان، بالكاد أستطيع تحمّلهما. أمّا عن أحاديثهما، فهي بكلّ بساطة لا تطاق. فهما في تلك المرحلة

المُرهِقة من العمر حيث لا شاغل لهما سوى السؤال عن أمور كالمسطرة والريشة وعلامات الفرنسية. أمّا في لحظات أخرى، لا سيما لمّا ينامان، يختلف شعوري نحوهما. أجلس خلال أمسيات الصيف المنيرة قرب سريريهما وهما نائمان أحياناً، بشعرهما الأقل قتامة من شعري، فتهتزّ أحشائي، كما قيل في الإنجيل. في هذه اللحظات أقول في نفسي إنّ قيمتي قيمة حبّة بازيلاء جافة، وأن الشيء الأهمّ هو رعاية هذين الكائنين اللذين يحملان دمي، وتعهّدهما حتّى يكبرا ويستوي عودهما. لكن هذا الشعور يقتصر على تلك اللحظات. أمّا في غالب الأوقات، فلا يبدو لي وجودي تافهاً البتّة. أشعر بأنّني على أحسن ما يرام، لا تنقصني الحيوية والطاقة، وأن أشياء جميلة تنتظرني في الحياة. أمّا فكرة كوني بقرة حلوب تحاصرها عصابة من النساء والأطفال، فلا تخطر ببالي.

لم نتحدّث كثيراً ونحن على مائدة الطعام. كانت هيلدا مستغرقة في أفكارها السوداوية -«لا أعرف ما سيكون مصيرنا»-، لأسباب عديدة، منها ثمن الزبدة، وعطلة أعياد الميلاد الموشكة على نهايتها، ونحن ما زلنا مدينين للمدرسة بخمسة جنيهات من الفصل السابق. أكلت بيضتي المسلوقة، ودهنت قطعة خبز بالكومبوت. وقد كانت هيلدا مصرّة على شراء كومبوت من نوع غولدن كراون الذي لا يتجاوز ثمنه بضعة قروش. وقد كُتب على بطاقته بأصغر حرف يسمح به القانون أنّه يحتوي على: «نسبة من عصير الفواكه المحايدة». ورحت أتهكّم من المصنع بتلك النبرة الساخرة التي أتّخذها أحياناً، مشيراً إلى الأشجار المثمرة «المحايدة»، متسائلاً عن شكلها، وعن البلد الذي تنبت فيه، فاستشاطت غضباً، لا لأنّني سخرت منها، بل لأنّها تجد، على نحو غامض، أنّه من غير المعقول التهكّم من كل ما

يسمح بالاقتصاد في النفقة.

ألقيت نظرة إلى الجريدة، فلم أعثر فيها على جديد. تُرتكب في إسبانيا، وفي الصين أيضاً، مجازر كالعادة، وفي إحدى محطات القطار عُثر على ساقَي امرأة في قاعة من قاعات الانتظار. كما يتساءل الصحافيون عمّا إذا كان الملك زوغ سيعيد النظر في عروسه. وأخيراً، عند العاشرة صباحاً، قبل الوقت الذي توقّعته، غادرت البيت. خرج الطفلان ليلعبا في إحدى حدائق الحي. كان صباحاً مقرفاً وبارداً. شعرت عند عتبة الباب بهبّة ريح لاذعة لامست رقبتي المكسوّة بالصابون، فأحسست فجأة بأنّ ملابسي تلتصق بجسدي، وأنني لزج من رأسي إلى أخمصَي قدمَيّ.

مكتبة
t.me/t_pdf

2

هل تعرفون شارع إيلسمير ويست بليتشلي الذي أسكنه؟ رغم أنّكم لا تعرفونه، فأنتم تعرفون عدداً كبيراً من الشوارع التي تشبهه تماماً.

تعرفون الكيفية التي تجتاح بها هذه الأحياء الضواحي كالغنغرينا. صفوف لا تنتهي من المنازل نصف المفصولة -ذلك أنّ أرقام منازل هذا الحي تصل إلى 212، ورقم منزلنا هو 191-، المتشابهة حدّ التطابق، مثلما هو الأمر في الأحياء الرخيصة. وهي علاوة على ذلك قبيحة المنظر بواجهتها المجصّصة، وحاجزها ذي الطلاء اللامع، وسياجها من نبتة جنبة الرباط، وبابها الخارجي ذي اللون الأخضر. تحمل أسماء نباتات من قبيل: الرند والرياحين والزعرور، أو عبارات من مثل: ملاذي واستراحتي والمنظر الجميل... في كلّ بيت من أصل خمسين توجد ربّما روح متمرّدة، سينتهي بها المطاف على الأرجح في أحد الملاجئ، طُلي باب مدخلها باللون الأزرق عوض الأخضر.

تُشعرني اللزوجة في رقبتي بالإحباط. ما أغرب كيف يؤثّر شيء تافه كهذا في الإنسان! يداهمك على حين غرّة، فيصيبك بارتباك أشبه بما يتملّكك حين ينخلع نعلك أمام الملأ.

لم أكن واهماً بخصوص صورتي ذلك الصباح. كان الأمر كما لو أنّني أشاهد نفسي وأنا أمشي في الشارع برأسي الضخم الأحمر، وأسناني الاصطناعية وملابسي المبتذلة. لا حظّ لشخص مثلي في أن يتظاهر بمظهر الرجل النبيل. حتّى لو رأيتموني من بعد مئتي متر، لن تستطيعوا أن تتبيّنوا على التوّ بأنّني أشتغل في التأمينات. بل قد تعتقدون أنّني بائع متجوّل أو مندوب مبيعات. فملابسي أقرب إلى بزّة أهل المهن: بدلة رمادية مهترئة ومعطف أزرق رخيص، وقبّعة مستديرة كلاعب كريكت من دون قفازَين. أمّا هيئتي، فهي هيئة كلّ أولئك الذين يشتغلون بنسبة مئوية. وحتّى حين أكون في أحسن أحوالي، لمّا أرتدي بدلة جديدة وأدخّن السيجار، أستطيع أن أزعم أنّني أشبه بوكيل رهانات أو بجابي ضرائب. أمّا في أسوأ الأحوال، فيظنّني الناظر مثبّت أجهزة امتصاص الغبار. لكن في معظم الأحيان، يكفي أن تراني لتقول في نفسك: «هذا الشخص يكسب ما بين خمسة جنيهات وعشرة في الأسبوع». ففيما يتعلق بدخلي وموقعي في السلَّم الاجتماعي، لا بدّ أنّني أبدو من الفئة الوسطى في الحي.

كنت وحيداً في الشارع تقريباً. فالرجال هرولوا باكراً ليلحقوا بقطار الثامنة وواحد وعشرين دقيقة، بينما جلست النسوة في البيوت يستدفئن قرب مدافئ الغاز. حين يكون للمرء متّسع من الوقت ليلاحظ ما يحيط به، ويكون مزاجه رائقاً، تساوره الرغبة في الضحك من شوارع الضاحية هذه، ومن الحياة التي يعيشها الناس فيها، لأنه في نهاية المطاف، ماذا يمثل شارع كشارع إيلسمير؟ إنّه ببساطة أشبه بسجن مؤلَّف من زنازن متراصّة. صفّ من حجرات تعذيب متجاورة يعيش فيها المعوزون -الذين يكسبون بين خمسة جنيهات وعشرة في

الأسبوع- في ذعر دائم من ربّ العمل الذي يستغلّهم شرّ استغلال، والزوجات اللواتي يذقنهم أشدّ ألوان الاضطهاد، والأطفال الذين يمصّون دمهم كالعلق. لكن رغم الكلام الكثير الذي يقال عن الطبقة العاملة، فأنا لا أشفق عليهم. فهل سمعت بحفّار جفاه النوم خوفاً من أن يطرد من عمله؟ صحيح أن العامل قد يشعر بالتعب الجسدي، لكنّه حين يفرغ من العمل، يكون رجلاً حرّاً. على أنّ الأمر مختلف في هذه العلب الإسمنتية. هنا يعيش أشخاص لا يشعرون بالحريّة إلّا حين يغطّون في نوم عميق، ويحلمون بأنّهم رموا ربّ العمل في قعر بئر، وأهالوا عليه كومة من الفحم.

أخطر ما في المسألة طبعاً هو أنّ جميع الناس من أمثالنا يتصوّرون أنّ لديهم شيئاً يخشون فقدانه. فتسعة أعشار سكان إيلسمير يتوهّمون أنّهم يملكون منازلهم. عدا أن إيلسمير، وسائر أجزاء الحي، بما فيها هاي ستريت، ما هو إلّا مشروع ضخم قائم على النصب، اسمه مساكن هيسبريدز المملوك لشركة قروض عقارية. ففي مجال النصب، تعتبر الشركات العقارية الأشدّ دهاء في العالم المعاصر إلى جانب التأمينات التي أشتغل فيها. فهي مجال للسرقة، إلّا أنّها سرقة على مرأى ومسمع من جميع الناس، أيّ على المكشوف. على أنّ العجيب في شركات العقار هو اعتقاد زبائنها بأنّها تسدي لهم معروفاً. توسعهم ضرباً، فيهبّون إلى تقبيل يدها. أقول في نفسي أحياناً ليتهم ينصبون تمثالاً ضخماً لشركة هيسبريدز العقارية، يكون إلهاً للمستثمرين في البناء، ولن يكون أيّ إله. لعلّ ما يميّزه هو أنّه خنثى، نصفه العلوي يمثّل مدير شركة، بينما يمثّل نصفه السفلي امرأة حامل، يمسك بإحدى يديه مفتاحاً ضخماً -مفتاح الملجأ بالطبع-، وفي الأخرى قرناً خصباً تخرج منه أجهزة مذياع

محمولة وعقود تأمين وأطقم أسنان وحبّات أسبرين وواقيات جنسية وأسوار إسمنتية للحدائق.

الواقع أنّنا في إيلسمير لا نصبح ملّاك منازلنا حتّى بعد الانتهاء من أداء أقساطها. إذ نُلزَم بتسديد إيجار يقدّر بخمسمئة وخمسين جنيهاً، يدفع على مدى ستّ عشرة سنة، وهي منازل لو يُؤدّى ثمنها دفعة واحدة، لن تكلّف أكثر من ثلاثمئة وثمانين جنيهاً. بمعنى أنّ الزبون يدفع مئة وسبعين جنيهاً لشركة القروض. لكنّ أرباح الشركة أعلى من ذلك بكثير. فمبلغ ثلاثمئة وثمانين جنيهاً يشمل ربح شركة البناء أيضاً. عدا أنّ شركة القرض هي من قامت بالبناء تحت اسم آخر، ويلسون وبلوم، ومن ثمّة فهي تستولي على الفارق. وكل ما تنفقه هو ثمن مواد البناء. وحتى في مواد البناء فهي تكسب منها، بما أنّها تبيع الطوب والقرميد والأبواب وإطارات النوافذ والرمل والإسمنت، بل حتّى الزجاج فيما أظن، وذلك تحت اسم بروكس وسكاترباي. ولن أتفاجأ إذا قيل لي إنّها تبيع أيضاً، بهويّة أخرى، الخشب الذي تصنع منه الأبواب والنوافذ. ثمّ إنّ شركة القرض هذه، وهو أمر ما كان ليفاجئنا رغم أننا ذهلنا حين علمنا به، لا تحترم التزاماتها دائماً. فعند بناء إيلسمير تركوا فضاءات فارغة أُطلِق عليها مروج بلات، وهو أمر ليس بالسيّئ، بما أنّها قد تصلح ملاعب للأطفال. ورغم أنّ لا شيء كان منصوصاً عليه رسمياً، اعتقدَ الناس أنّ مروج بلات هذه ستظلّ كما هي، ولن يبنى عليها شيء. إلّا أنّ ويست بليتشلي كانت ضاحية في طور التوسّع، بحيث أقامت بها شركة روثويل مصنع مربّى سنة 1928، كما أقيم بها مصنع إنجليزي أميركي من الفولاذ ينتِج الدراجات الهوائية سنة 1933. وخلال تلك الفترة، بدأ عدد السكان يتزايد، وثمن إيجار المنازل يرتفع. لم ألتقِ

قط شخصياً بالسير هربرت كروم ولا أيّ من الشخصيات المرموقة في شركة القروض العقارية، لكنّني أستطيع أن أتصوّر كيف كانت هذه الأمور تسيل لعابهم. في يوم من الأيام حلّت جيوش البنائين، فاجتاحت المنازلُ الحقولَ. شعر الناس بالتذمّر، وأنشأوا جمعيّة للدفاع عن حقوق المستأجرين. عدا أنّ ذلك لم يجدِ نفعاً، إذ سرعان ما شلّ محامو شركة كروم حركتنا، وغطّت البنايات كل الفضاءات الفارغة.

على أنّ عملية النصب الحقيقية البارعة التي دفعتني إلى الاعتقاد بأنّ هذا العجوز كروم يستحق فعلاً وساماً في الاحتيال، هو أنّه استطاع إيهامنا بأنّنا نملك منازلنا، وصرنا من ثمّة مواطنين كاملي المواطنة. على أنّنا، فُقراء هيسبريدز، سرعان ما ألفينا أنفسنا عبيداً في خدمة كروم. تحوّلنا جميعاً إلى ملاك محترمين، إلى محافظين، إلى إمعات تابعين ومتملّقين. من يجرؤ على قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً؟ وما يزيد الطين بلّة هو أنّنا لسنا مُلّاكاً حقّاً، وأنّنا نعيش في خوف دائم من العجز عن دفع الأقساط، والتوجّس من وقوع شيء قد يعيقنا عن الاستمرار في الدفع حتّى النهاية. لقد اشتُرينا جميعاً، والمؤسف هو أنّنا اشتُرينا بمالنا. كل واحد من هؤلاء المساكين المقهورين يذوق شظف العيش من أجل أن يدفع ضعف ثمن تلك العلب الضيّقة التي يسمونها المنظر الجميل، وإن كانت بلا جمال. وكلّ واحد من هؤلاء مستعدّ لبذل حياته فوراً من أجل حماية بلده من خطر البلاشفة.

انطلقتُ في شارع والبول، ومنه إلى هاي ستريت. هناك قطار سينطلق إلى لندن على الساعة العاشرة وأربع عشرة دقيقة. وبينما كنت مارّاً تذكّرت أنّ عليّ أن أشتري شفرات حلاقة، فدخلت إلى

أحد المتاجر. حين دنوت من منضدة الجناح الخاص بالعطور وموادّ النظافة، سمعت رئيس الجناح -لا أدري ما إذا كان هذا اسمه- يوبّخ الفتاة المكلّفة بالبيع. في تلك الساعة من الصباح، لا يكون المتجر محتشداً بالزبائن عادة. وأحياناً حين تدخل بعد فتح أبوابه مباشرة، ترى جميع البائعات مصطفّات ورئيسهنّ يقرّعهنّ تقريعاً يعلن به عن بداية يوم عمل جديد. ويقال من باب التهكّم والسخرية إن هذه المتاجر تشغّل رجالاً موهوبين، ينقّلونهم من متجر إلى آخر من أجل تحميس البائعات. كان رئيس الجناح (أو لعلّه رئيس الطابق الأرضي بأكمله) رجلاً قصيراً فظّاً، بكتفين مربّعتين، وشارب مفزع. وكان منهمكاً في تقريع بائعة يبدو أنّها أخطأت في الحساب. يقول لها بصوت أشبه بصوت منشار دائري:

«كلا! أنا واثق تمام الوثوق! واثق من أنّك عاجزة عن القيام بعملية حسابية».

والتقت عيناي بعينَي البائعة. من الواضح أنّها انزعجت من أن يراها شخص بدين في مثل سنّي وهي تُهان وتُمتهن، فاستدرت فوراً، وتظاهرت بالاهتمام بشيء في الجناح المجاور. أمّا هو، فاستمرّ في إهانتها، يبتعد عنها قليلاً، ثمّ يعود لينقضّ عليها في حركة أشبه بحركة يعسوب.

«أنا واثق من أنّك عاجزة عن الحساب. ماذا يضيرك أنت إن نقّصت بضعة شلنات من الحساب؟ مبلغ تافه! ماذا يمثل شلنان بالنسبة إليك؟ لا شيء. الشيء الأهمّ هو ما يناسبك أنت، أمّا الآخرون، فليذهبوا إلى الجحيم!».

دام هذا المشهد خمس دقائق تقريباً، وكان صدى صوته يتردّد في نصف المتجر تقريباً. استدار الرجل مراراً موهماً بأنّ حصّة

التوبيخ انتهت، وأنّه انصرف، لكنّه لا يلبث أن يعيد الكرّة من جديد، وينقضّ على ضحيته. وبما أنّني كنت قد ابتعدت بخطوات، ألقيت نظرة إليهما. كانت الفتاة في حوالي الثامنة عشرة من عمرها، أميَل إلى البدانة، بوجه ممتلئ، تبدو من طينة أولئك الذين يخطئون دائماً في الحساب. كانت تشحب وتمتقع، تتلوّى من الألم كما لو أنها تُجلد. أمّا فتيات الأجنحة الأخرى، فتظاهرن بعدم سماع ما يجري.

كان ذلك الرجل القصير يقف متصلّباً وقد نفخ صدره تعاظماً، واضعاً يديه تحت ذيل سترته كديك متغطرس.

كان بإمكان هذا القرد أن يكون رقيباً في الجيش لو كانت قامته تسمح بذلك. هل لاحظتم أنّ مثل هذه الأعمال القائمة على الفظاظة عادة ما يعهد بها إلى قصار القامة؟ كان وهو يصرخ يقترب من الفتاة حتّى ليكاد شنبه يلامس وجهها، فتراها تتورّد وتتلوى.

وبعد أن قدّر أنّه أفرغ كلّ ما بجعبته، راح مبتعداً بزهو مثل أميرال على منصّة قيادة.

اقتربتُ من المنضدة لكي أشتري شفرات الحلاقة. كان يعلم أنّني سمعت كلّ شيء، وهي أيضاً. هما معاً يعلمان أنّني أعلم، لكنّ أدهى ما في الأمر هو أنّ الفتاة كان عليها أن تتصرّف أمامي كما لو أنّ شيئاً لم يقع، وتظهر ما يفترض في عاملات المتاجر من احتراس وتحفُّظ مع الزبائن الذكور. كان عليها أن تلعب دور الفتاة الرزينة بعد دقائق ممّا تعرّضت له من إهانات. كانت لا تزال متورّدة ويداها ترتعشان. طلبت منها الشفرات التي تباع بشلن، لكنّها مضت تبحث في صحن شفرات الثلاثة شلنات. اقترب ذلك القزم اللعين، واعتقدنا معاً أنّه سيعود للتقريع من جديد. ارتعدت فرائص الفتاة

ككلب أبصر السوط، ونظرت إليّ بطرف عينها نظرة لا تخلو من جفاء. فقد كنت شاهداً على امتهان كرامتها، ولهذا السبب كرهتني. ما أغرب هذا!

تناولت شفراتي وانصرفت وأنا أتساءل: لماذا يتحمّلن، جميعهنّ، هذه المذلّة؟ بسبب الخوف طبعاً. إن دافعن عن أنفسهنّ بكلمة واحدة، يكون الطرد مصيرهنّ. هذه هي القاعدة في كلّ مكان. وتذكّرت الشابّ الذي يخدمني أحياناً في جناح البقالة بالمتجر الذي نتبضّع منه. شخص قويّ في العشرين من عمره، ذو خدّين حمراوين في لون الورد، ومرفقَين مفتولَين، جديرَين بالعمل في الحدادة. لكنّه يقف هناك بسترته البيضاء وقد استند على المنضدة، يفرك يديه وهو يقول: «نعم سيدي، أنت على حقّ سيدي! الجو جميل بالنظر إلى هذا الفصل، سيدي! ما الخدمة التي سأسعد بتقديمها لسيدي؟»، هو ينفّذ الأوامر طبعاً: الزبون دائماً على حقّ. ما يقرؤه المرء على وجهه هو الخوف من الزبون الذي قد يشكو من قلة صبره، فيتسبّب في طرده. ثمّ كيف له أن يعرف أنّك لست جاسوساً بعثته الإدارة؟ إنّه الخوف، وكلّنا غارقون في الخوف حتّى صار كالهواء الذي نتنفّسه. فمن لا يخاف الطرد من العمل يخاف أهوال الحرب أو الفاشية أو الشيوعية... إلخ. فاليهود تتملّكهم الرهبة حين يفكّرون في هتلر. وخطر ببالي أنّ ذلك الإمعة ذا الشنب الأشعث قد يكون أشدّ خوفاً على منصبه من البائعة. لا بدّ أن لديه أسرة يعيلها. ومن يدري؟ لعلّه يتصرّف في بيته ببالغ اللطف، ويزرع الخيار في أقصى حديقته، ويسمح لزوجته بأن تجلس على ركبتيه وللصغار بأن يشدّوا شنبه، تماماً مثلما كان المحقّقون الإسبان وضبّاط الشرطة السياسية السوفيتية -كما تورد الكتب- أفضل الرجال

في حياتهم الخاصة، وأروع الأزواج والآباء. بل تجدهم أشدّ الناس عناية بطيور الكناري. . . إلخ.

شيّعتني البائعة في جناح العطور بعينيها بينما كنت أغادر المتجر. لو كان بمقدورها أن تقتلني، لفعلت. ما كان أشدّ حقدها عليّ بسبب ما شهدت! حقد أكبر من حقدها على رئيسها.

3

حلّقت طائرة قاذفة فوق رؤوسنا، وخيّل إلينا لدقيقة أو دقيقتين أنّها تطير بسرعة القطار نفسها. جلس قبالتي شخصان مبتذلان يرتديان معطفَين باليَين، من الواضح أنّهما عاملان عاديان من عمّال الشركات التجارية، يشتغلان على الأرجح في أحطّ أنواع الإشهار الصحفي. كان أحدهما يقرأ دايلي ميل بينما يقرأ الآخر دايلي إكسبريس. وقد أدركت من سحناتهما أنّهما آنسا فيّ عاملاً من طينتهما. وفي الطرف الآخر من المقصورة جلس كاتبا محام، يحملان حقيبتَين سوداوين، وهما مستغرقان في الحديث، يتبجّحان بمصطلحات قانونية للفت انتباهنا، وإظهار أنّهما لا ينتميان إلى السوقة.

رحت أنظر من خلال النافذة إلى خلفيات المنازل تتراكض. ذلك أنّ خطّ القطار هذا يخترق على مسافة طويلة من مساره أحياء عمّالية فقيرة، لكن من يرى من بعيد الباحات الخلفية الصغيرة حيث أُصُص الزهور والنساء ينشرن الغسيل وأقفاص الطيور المعلّقة على الجدران، يتخيّل أنها أحياء هادئة. تأرجحت القاذفة الضخمة السوداء قليلاً في الهواء، ثمّ زادت من سرعتها واختفت عن الأنظار. كنت جالساً بحيث أدير ظهري إلى القاطرة. ألقى أحد

العاملَين في الإشهار نظرة خاطفة إلى الطائرة، فحزّرت ما كان يقول. الواقع أنّ جميع الناس يفكرون في الشيء نفسه. لا يحتاج المرء إلى ذكاء خارق لكي يخمّن ذلك في تلك الأيّام. قد يستمرّ الأمر لسنة أو سنتين، ولكن ماذا سنفعل بعد ذلك عند رؤية هذه الطائرات؟ سنهرول إلى الأقبية، وسنبلّل سراويلنا من الهلع.

وضع أحد العاملَين في الإشهار نسخة دايلي ميل بعد أن اطّلع على صفحة سباق الخيل، وقال: «فاز تامبلغايت».

أمّا الشخصان اللذان يشتغلان في مجال القانون، فكانا يتجادلان بنوع من التعالم حول الملكية الخالصة والإيجار الاسمي، بينما تحسّس الرجل الآخر العامل في الإشهار جيبه، وأخرج سيجارة رخيصة. فتّش في جيبه الثاني ثمّ التفت إليّ:

«أنت أيّها البدين، أليست معك أعواد ثقاب؟». يا لها من طريقة في مخاطبتي! نسيت تماماً للحظة القنابل، واستغرقت في التفكير في شكلي الخارجي كما تأمّلته هذا الصباح في الحمّام.

من المؤكّد أنّ وزني زائد، ونصفي العلوي أشبه ببرميل. لكنّ الشيء الغريب في نظري هو أن جميع الناس، حتى أولئك الذين لا تربطك بهم أيّ رابطة، لا يتحرّجون في وصفك بنعت جارح لا لشيء إلّا لأنك أميَل إلى البدانة. لو افترضنا شخصاً أحدب أو أحول أو منشقّ الشفة، هل كانوا سينادونه بلقب يذكّره بعاهته؟ أمّا إذا كان المرء أكرش، فإنّهم لا يجدون حرجاً في فرزه. أنا من نوع الأشخاص الذين يُضرَبون على أكتافهم، ويُلكَزون في جوانبهم، والجميع يعتقدون بأنّني أجدُ متعة في ذلك. لهذا السبب لا أستطيع ارتياد حانة التاج في بودلي (حيث أذهب مرّة في الأسبوع) دون أن يقوم ذلك الحمار الغبي ووترز (وهو ممثل شركة صابون رغوة البحر،

لكنّه لا يبرح هذا المكان) بقرصي بين أضلاعي وهو يهتف: من يبحث عن صمصم، فها هو! فيروح الأغبياء الآخرون الموجودون في الحانة يقهقهون. ويواصل ووترز دعابته السخيفة دون أن يعبأ بمشاعري. فهم جميعاً يعتقدون أنّ البُدُن لا مشاعر لهم.

أشعل العامل في الإشهار سيجارته، وتناول عود ثقاب آخر لينظف به أسنانه ثمّ رمى لي بالعلبة بحركة لا مبالية. وتجاوز القطار على نحو صاخب جسراً حديدياً، فلاحت لي في الأسفل سيارة بائع خبز وصفّ من الشاحنات المحمّلة بالإسمنت. وقلت في نفسي إنّ الشيء الغريب هو أنّ معتقدات الناس حول البدناء ليست خاطئة تماماً. فالشخص البدين، لا سيما إذا كان بديناً منذ ولادته، أو لنقل منذ طفولته، لا يشبه الآخرين في كلّ شيء. فهو يجتاز الحياة بطريقة مختلفة، أشبه بما يقع في الكوميديا. على أنّ أولئك الذين يُعرضون في معارض التسلية، والذين يتجاوز وزنهم 125 كيلوغراماً، فتشبه حياتهم ما يقع في المسرحيات الهزلية الرخيصة. أمّا أنا فعرفت في حياتي الرشاقة والبدانة، ومن ثمّة أعرف كيف تغيِّر السمنة نظرتك إلى الحياة. يبدو كما لو أنّها تمنعك من أخذ الأمور بجدّية مبالغ فيها. أتساءل عمّا إذا كان الشخص الذي يقضي حياته كلّها بديناً، ويُنعت بالسمين منذ نعومة أظافره، يستطيع أن يحسّ بمشاعر عميقة. كيف له أن يستطيع ذلك وهو لم يجرّبه قطّ؟ لا يمكنه أن يتمثّل الموقف المأساوي لأنّه يعيش دائماً في الموقف الهزلي. إنّه لأمر غريب حقّاً. هل يمكن تخيّل هاملت سميناً مثلاً! أو أوليفر هاردي في دور روميو. ومن المضحك أنّه خطر ببالي شيء كهذا قبل أيام بينما كنت أقرأ رواية بعنوان **الحب الضائع** جلبتها من أحد المتاجر، تحكي عن شخص تركته عشيقته ورحلت مع شخص آخر. إنّه شخص لا

يختلف عن الأشخاص الذين يصادفون في الروايات، بوجه شاحب معذّب، وشعر أسود، ودخل مريح. ما زلت أذكر المقطع على وجه التقريب:

كان دايفد يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وقد وضع جبينه بين يديه. يبدو أنّ الخبر حطّمه. أيمكن أن تخونه شيلا؟ شيء لا يصدّق! وفجأة بدا له الواقع بكلّ بشاعته، أبشع من أن يحتمله. ارتمى أرضاً وراح ينتحب، وقد أخذ منه اليأس مأخذه.

أو شيء من هذا القبيل على كلّ حال. ولم ألبث أن شغلت بالي فكرة، لأنّ الأمور تجري على هذا النحو. الناس -أو بالأحرى فئة من الناس- عادة ما يتصرّفون على هذا المنوال. ولكن، كيف سيتصرّف شخص مثلي؟ لنتصوّر أن هيلدا رحلت مع شخص آخر لقضاء عطلة الأسبوع، فهل سيزعجني ذلك؟ بالعكس، ستسرّني معرفة أنّ ذلك ما زال يستهوي هيلدا. لكن لنتخيّل أنني تأذّيت، فهل سأرتمي أرضاً وأنتحب؟ من سيخطر بباله أنّني سأتصرّف هكذا؟ مستحيل، لا سيما مع بطن ضخم كبطني. سيبدو ذلك مقزّزاً.

كان القطار يتقدّم بمحاذاة كومة ضخمة من الردم، وأسفل منّا قليلاً تمتدّ سقوف المنازل على مدّ البصر. سقوف واطئة حمراء بالكاد تضيئها أشعة الشمس الواهنة، ستسقط عليها القنابل. عجباً كيف يلازمنا التفكير في القنابل! هي لا تسقط الآن بالطبع، لكنّها ستسقط لا محالة. متى سيكون ذلك؟ هذا ما تشي به خطابات التحريض التي تنشرها الجرائد. ذلك أنّني قرأت قبل أيام مقالة في **نيوز كرونيكل** تقول إنّ الطائرات المقنبلة لم تعد قادرة على إحداث خسائر في الوقت الراهن. فالقاذفات المضادّة لها صارت من التقدّم

بحيث ستضطرّها إلى التحليق على علوّ يتجاوز ستة آلاف متر. ولاحظوا ماذا يستنتج كاتب المقال: إذا حلّقت الطائرات على هذا العلو، فلن تصل القنابل إلى الأرض. أو لعلّه يقصد بالأحرى أنّ قذائفها ستخطئ ترسانة وولويتش، وستصيب مناطق مثل إيلسمير.

لكن بعد تقليب الأمر من كلّ وجوهه، قلت في نفسي: لا يضير المرء أن يكون بديناً. الشيء الأكيد هو أنّ البدين ينعم بالراحة حيثما كان. فمهما كانت الرفقة، سماسرة أم قساوسة، يشعر كما لو أنّه في بيته. أمّا فيما يخص النساء، فالبُدُن ذوو حظوة عندهنّ بخلاف ما يشاع. إنّ اعتقاد بعضهم بأنّ النساء لا يأخذن السمان على محمل الجدّ، كلام فارغ. الحقيقة هي أنّ المرأة تأخذ الرجل كيفما كان على محمل الجد، إن هو نجح في إيهامها بأنّه يهيم بها حبّاً.

تذكّروا أنّني لم أكن بديناً طوال حياتي. لم يزد وزني إلّا منذ ثمانية أو تسعة أعوام. ولا بدّ أنّني خلال هذه المدّة اكتسبت معظم صفات البُدُن. على أنّني في قرارة نفسي، لا أشعر، في الآن ذاته، بأنّني مجرّد رجل سمين. ينبغي أن أنبّه إلى أنّني لا أحاول التظاهر بمظهر الوردة الناعمة، وإخفاء قلبي المكلوم خلف قناع باسِم... إلخ. فلن تستطيع أن تشقّ طريقك في مجال التأمينات إن كنت من هذه الطينة. أنا بالأحرى رجل عادي غير مغرق في الرهافة، أشعر بالراحة في محيطي. فطالما يوجد البيع بالعمولة، ويكسب المرء قوته بالوقاحة، دون أن تربكه المشاعر الرقيقة، فالرجال مثلي هم المناسبون. فأنا أستطيع أن أتدبّر أمري وأكسب قوتي -فقط ما يسدّ رمقي- مهما كانت الظروف، وأنا مستعدّ للمراهنة على أنّني حتّى في زمن الحرب أو الثورات أو الطاعون أو المجاعة، أستطيع البقاء لفترة أطول من معظم الآخرين. هذا هو معدن الرجال الذي أنتمي

إليه. لكنّني حُبيت أيضاً بشيء آخر. شيء يعود إلى الماضي، سأحدّثكم عنه لاحقاً. رغم بدانتي، فأنا رشيق في الداخل. ألم يخطر ببالكم قطّ أن داخل كلّ بدين رجلاً نحيفاً؟ مثلما نقول إنّه داخل كل كتلة من الحجر تمثالاً؟

الشخص الذي استعار منّي أعواد الثقاب ما زال ينظف أسنانه وهو يقرأ **دايلي إكسبريس**. قال:

«فيما يتعلق بقضية السيقان، ما زالوا لم يلقوا القبض على الجاني».

فأجاب الآخر:

«لن يوقفوه قطّ. لا يمكن كشف هويّة صاحبة الجثة من ساقيها. السيقان تتشابه».

فاستأنف الأول:

«ما يمكن أن يقودهم إلى الجاني هو الورق الذي لُفّت فيه».

كانت سقوف البيوت تبدو صفوفاً ملتوية هنا وهناك على مدّ البصر، مثل سهل لا نهاية له. إن أنت عبرت لندن في أيّ اتجاه، لن تجد غير المنازل، خمسة وثلاثون كيلومتراً من المنازل على الأقل، متواصلة بلا انقطاع. فكيف، يا إلهي، يمكن أن تخطئنا الطائرات القاذفة لمّا يحين الأوان؟ وقد يتمّ ذلك من دون أيّ إنذار. فمن هذا الغبي الذي سيعلن الحرب؟ لو كنت هتلر لأرسلت طائرات أثناء انعقاد مؤتمر حول نزع السلاح. ذات صباح بينما يحتشد جسر لندن بالموظفين، ويغني الكناري، وتنشر عجوز سروالها الداخلي على حبل النشير، بووم! بووم! وتتطاير المنازل في الهواء، ويتلطخ السروال الداخلي بالدم، ويغنّي الكناري على الجثث.

وقلت في نفسي سيكون الأمر مؤسفاً مع ذلك. ورحت أنظر إلى

بحر السقوف هذا الذي لا ينتهي. كيلومترات وكيلومترات من الشوارع ومحلات السمك المقلي والمحار وأسقف الكنائس الحديدية المتموّجة ودور السينما والمطابع الصغيرة المخفية في الأزقة الضيّقة، والمصانع ومحطّات الطاقة والأبراج. يا لها من ضخامة! كيف سيعمّها السلام؟ يظنّها الناظر أرضاً بكراً بلا وحوش كاسرة. بلا مدافع تدوّي ولا قنابل يدوية تنفجر، ولا عصي تهوي على الجماجم. لو نفكر في هذه اللحظة في إنجلترا بأسرها، لن توجد فيها نافذة غرفة نوم واحدة تأوي قناصاً منتصباً خلف مدفع رشاش.

ولكن كيف ستكون الأمور بعد خمس سنوات؟ أو سنتين؟ أو سنة واحدة؟

4

أودعت أوراقي بالمكتب. وارنر هو أحد أولئك الأطباء الأميركيين الذين لا يفرضون أثمنة باهظة على زبائنهم. تقع عيادته أو «صالونه» كما يحبّ أن يسمّيها في منتصف بناية تجارية شاهقة، بين محل تصوير ومتجر مواد مطاطية بالجملة. كنت قد وصلت قبل الموعد، فاغتنمت الفرصة لكي أسدّ رمقي. لا أعرف كيف دخلت إلى مطعم وجبات خفيفة، وهو مكان أتلافى ارتياده في العادة. فنحن، أقصد من يكسبون بين خمسة وستة جنيهات، لسنا مدلّلين فيما يتعلّق بالطعام في العاصمة. فإذا عزمت على أن تنفق على وجبتك شلناً وثلاثة قروش، أمامك أن تختار بين ليون أو إكسبريس دايري أو أ. ب. س، وإلّا فعليك بالوجبات الخفيفة المقزّزة التي تُقدّم في الحانات: كأس جعة وقطعة من معجون لحم أبرد من الجعة.

في الخارج كان باعة الجرائد يلوّحون بالنسخ الأولى من جرائد المساء. وخلف منضدة محلّ وجبات خفيفة طلي بلون أحمر ساطع، توجد نادلة ترتدي قبعة بيضاء ضخمة، تتحرّك بخفة حول الثلاجة. وفي الأقصى، ينبعث من مذياع صوتٌ معدني: فرووم، تي دي دي، فرووم، بلانك. ماذا دهاني حتى أتيت إلى مثل هذا المكان؟ سؤال

طرحته على نفسي بينما كنت داخلاً. فالأجواء التي تسود هذه الأماكن تصيبني بالاكتئاب. كلّ شيء فيها يلمع، كلّ شيء يتلألأ. حيثما حوّلت بصرك لا تجد غير المرايا والميناء والأسطح المطلية بلون الكروم. كلّ العناية موجّهة للزينة، ولا شيء للبطن. لا وجود لطعام حقيقي. كلّ ما يُقدّم أطعمة مزيّفة بأسماء أميركية -موادّ وهمية من دون طعم مشكوك حتّى في وجودها-. كلّ هذه المواد تستخرج من صندوق كرتون أو علبة مصبّرات، أو تُجلب من الثلاجة أو تتدفّق من صنبور أو تُستلّ من أنبوب ألومنيوم، بلا نضارة ولا فرادة. وأنت فضلاً عن ذلك مضطرّ للجلوس على مقاعد عالية، ووضع الطبق على حوافّ ضيقة، تحاصرك المرايا من كلّ جانب. كلّ شيء في هذا المكان، بما في ذلك المذياع، يجتهد في أن يقنعك بأنّ الطعام لا أهميّة له، وأن المهمّ هو الأسطح الناعمة البراقة، ذات الشكل الانسيابي. كلّ شيء يتّخذ شكلاً انسيابياً اليوم، بما في ذلك الرصاصة التي يخبئها لك هتلر. طلبت فنجان قهوة كبيراً وسجقتَين. قذفتهما لي الفتاة ذات القبّعة البيضاء كما لو أنّها تقذف بيض نمل لسمكة حمراء.

يصرخ بائع بأعلى صوته بعناوين جرائده. وقد كُتب على الملصق الذي يشدّ الجرائد: «أخبار جديدة حول قضية السيقان». لعلّكم لاحظتم الحديث كلّه حول «السيقان»، ولا شيء غيرها. انظروا أين بلغت الأمور. قبل ذلك بيومين، اكتُشف ساقا امرأة في قاعة انتظار بإحدى محطات القطار، ملفوفة في الورق. منذئذ والجرائد في أعدادها المتعاقبة توهم بأنّ سائر الأمة تولي هاتين الساقين اللعينتين اهتماماً بالغاً، دون أن تقدّم توضيحات أكثر. فهما الساقان الوحيدتان القادرتان على إثارة اهتام القارئ. قلت في نفسي

وأنا أمضغ رغيفي إنّ جرائم القتل صارت معتادة هذه الأيام. كثرت الجثث المقطّعة الأوصال والأشلاء المتناثرة في الطبيعة، وهي جرائم لا صلة لها بعمليات التسميم التي كانت شائعة في الأسر قديماً. حين كانت تقع، تشتهر بين الناس، ويتحدّثون عنها لمدّة طويلة.

وفي تلك اللحظة عضضت إحدى السجقتين، و... يا إلهي!

لكي أكون صريحاً معكم، لم أكن أنتظر أن أجد في السجق طعماً لذيذاً. كنت أنتظر أن يكون بلا طعم، تماماً مثل الرغيف. لكن، ينبغي أن يشهد المرء هذا الأمر لكي يصدّقه. ومع ذلك سأحاول أن أقدّم لكم فكرة عنه.

كان جلد قطعة السجق كالمطاط طبعاً، وطقم أسناني لم يكن على مقاسي تماماً. كان عليّ إذاً أن أقوم بحركة أشبه بحركة منشار لكي أمزّق الجلد. وفجأة، كراك! انفجرت قطعة السجق في فمي مثل إجّاصة متعفّنة، فشعرت بمادّة بغيضة لزجة تنتشر على لساني. أمّا الطعم، فكان رهيباً. لم أصدّق ذلك في البداية، فقمت بمحاولة أخرى، فعالجتها بلساني مرّة ثانية. إنّها محشوّة بالسمك (قطعة سجق يزعمون أنّها من فرانكفورت، ومحشوّة بالسمك!). قمت من مكاني وفررت هارباً دون أن ألمس قهوتي. الله وحده يعلم كيف سيكون طعمها، إن كان لها طعم أصلاً!

لوّح في وجهي بائع الجرائد بعدد من **ستاندارد** وهو يصرخ: «الساقان! الكشف عن أخبار رهيبة! نتائج السباقات! كلّ شيء عن الساقين!». كانت تلك المادّة اللزجة لا تزال ملتصقة بلساني، ورحت أتساءل أين سأبصقها. وتذكّرت أنني قرأت ذات يوم مقالاً حول مصانع الطعام في ألمانيا، حيث يُصنع كلّ شيء من مواد غريبة يسمونها بدائل. يقول المقال إنّهم يصنعون السجق من السمك،

والسمك من شيء آخر. من يصدّق هذا! كلّ ذلك أشعرني كما لو أنّني قضمت من المادة التي شُكِّل منها العالم المعاصر، واكتشفت ممّا هو مصنوع حقّاً. هذا هو ما يهيّئونه لنا. عالم كلّ شيء فيه برّاق وسهل، زائف ومسوّغ. كلّ ما فيه مصنوع من مادّة أخرى. حيثما ذهبت لا تجد غير السيلوليت المطاط والحديد الملمّع والمصابيح الكهربائية ليلاً. سقوف زجاجية فوق رؤوس الناس، ومحطات الراديو تقدّم اللحن نفسه. العشب لم يعد له وجود في أيّ مكان. صرنا نعيش في عالم من الأسمنت، ترعى فيه سلاحف اصطناعية تحت أشجار مثمرة «لا لون لها»، «محايدة». لكن حين تلمس الواقع بأصابعك، وتقضم من شيء صلب، قطعة سجق مثلاً، تجد سَمَكاً متعفّناً داخل جلد مطاط، وتتفجّر القذارة في فمك.

لمّا ارتديت طقم الأسنان الجديد، شعرت بنفسي أفضل بكثير. أسنان بديعة ناعمة، تلتصق باللثة جيّداً. قد يكون من الغباء القول إنّها تعيدك إلى الشباب، ومع ذلك فهذا هو الواقع. حاولت أن أبتسم لنفسي في واجهة أحد المتاجر الزجاجية، ولاحظت أنّها ليست سيّئة. فرغم أنّ وارنر يعرض أسعاراً تفضيلية، إلا أنّه يتقن عمله، ولا يعطيك الانطباع بأنّه يقدّم عرضاً ترويجياً على شاكلة شركات معاجين الأسنان. وقد أطلعني ذات مرّة على خزنة زجاجية ضخمة مليئة بالأسنان الاصطناعية، مرتّبة بحسب حجمها ولونها، يبدو أنّه يختارها كما يختار الصائغ جواهر العِقد. لذلك فإن من يرى هذا الطقم في فمي لن يداخله شكّ في أنّها أسناني الطبيعية.

وبينما واصلت طريقي في الشارع، ألقيت نظرة في زجاج متجر آخر، فلاحت لي صورتي بالكامل، وتهيّأ لي أنّني لا أرى هيئة مضحكة على كلّ حال. صحيح أنّها أميَل إلى البدانة، لكن لا شيء

فيها معيب يثير الأنظار. وحتّى احمرار الوجه، فكثير من النساء لا ينزعجن منه. وقلت في نفسي: ما زال الرجل يفيض حيوية! وتذكّرت جنيهاتي السبعة عشر، وقرّرت بلا تردّد إنفاقها على امرأة. كان لا يزال أمامي كفاية من الوقت قبل أن تغلق الحانات أبوابها. وستكون مناسبة كذلك لأدشّن طقمي الجديد. وبما أنّني كنت أشعر بنفسي موسراً، بسبب الجنيهات، دخلت إلى متجر تبغ لأشتري سيجاراً بستّة قروش، وهو النوع الذي أفضّله. لفافة بطول عشرين سنتيمتراً، بضمان أنّها من التبغ الكوبي الخالص. ذلك أنّ كلّ ما ينبت على هذه الأرض ينبغي أن يكون له معنى.

عند خروجي من الحانة، لم أعد الرجل نفسه. كنت قد احتسيت كأسين كبيرين من الجعة دفّآ أحشائي، ونكّه تدخين السيجار الرفيع طقمي الجديد. وراق مزاجي فجأة، وركبني ميل إلى التفلسف والتأمّل. لعلّ مردّ ذلك، في جانب منه، إلى أنني كنت متحلّلاً من العمل. واستأنفت تأمّلاتي التي بدأتها صباحاً حول الحرب لمّا رأيت الطائرة تحلّق فوق القطار. كنت في حالة مزاجية إلهامية. تلك الحالة التي تستشعر فيها وشوك نهاية العالم، ومع ذلك يخامرك إحساس بالانتشاء.

انطلقت أمشي في شارع ستراند باتجاه الغرب، ورغم برودة الجوّ، كنت أسير ببطء لكي أستمتع بالسيجار. عباب الحشود المألوفة تغمر الشارع، بحيث يلزمك لكي تتقدم أن تشقّ طريقك بالأكتاف والمناكب وسط هذه السحنات الكئيبة الجامدة التي يشتهر بها سكان لندن. إنّها زحمة الجَوَلان المألوفة: الحافلات الحمراء المتسلّلة بين السيارات، والمحرّكات الهادرة والزمّارات المتعالية. وقلت في نفسي: هذا الصخب قمين بإيقاظ الموتى من مراقدهم، مع

أنّه لا يوقظ هؤلاء الناس. وخلت نفسي الرجل الوحيد الصاحي في مدينة كلّ أهلها مسرنمين. هذا وهم بالطبع. حين تسير وسط حشد من الغرباء، من المستحيل تقريباً ألّا يلوحوا لك كتماثيل من شمع أو ككائنات آلية. على أنّهم قد يروك على الأرجح مثلما تراهم. وبذلك فإن استشعار الحرب الذي تملّكني في هذه الأثناء، من أنّها تتربّص بنا، وأنّها ستكون نهاية كل شيء، لا يقتصر عليّ. فنحن جميعاً نحمله بداخلنا بشكلٍ من الأشكال. بل إنني أستطيع أن أفترض أنّ داخل هذا الحشد يوجد أناس يتخيّلون في أذهانهم انفجار القنابل ووحل الخنادق. مهما فكرت في شيء، فهناك مليون شخص على الأقل يفكّرون في نفس ما فكرت فيه، وفي اللحظة نفسها. لكنّني قلت في نفسي رغم كلّ ذلك: إنّنا جميعنا نقف على سطح سفينة تحترق، وأنا الوحيد من يعرف ذلك. ورحت أنظر إلى وجوه هؤلاء الأغبياء وهي تتدفّق من حولي. وقلت في نفسي ما أشبههم بدِيَكة رومية تنتظر أعياد الميلاد. لا يشعرون بشيء مما يتربّص بهم. كنت كما لو أنّ عينيّ تُصدران أشعّة إكس، كما لو أنّني أرى هياكل عظمية تتحرّك.

حاولت أن أتخيّل ما ستؤول إليه الأمور بعد بضع سنوات. وتراءى لي حال هذا الشارع بعد خمس سنوات، أو بالأحرى بعد ثلاث سنوات، أيّ بعد بداية الحرب.

كلا، لن يتحوّل كل شيء إلى رماد. كلّ ما في الأمر أنّ ملامحه ستتشوّه قليلاً. ستحصل خسائر، وسيبدو كلّ شيء متناثر الأشلاء. الواجهات فارغة تقريباً ومغبرّة بحيث لا يُرى من خلالها شيء. وفي شارع جانبي قريب، تركت قنبلة فوهة ضخمة، بينما تبدو كتلة من المنازل المحترقة كضرس عظيم مسوّس. يظهر المكان هادئاً

على نحو غريب، والناس مهزولين. تعبر فرقة من الجنود الشارع، أفرادها هزيلون يجرجرون خطاهم، يتقدّمهم رقيب ذو شنب معقوف، وهيئة متصلّبة كبندقيته. لكنّ منظره مخيف من شدّة نحوله، وهو يسعل حتّى لتكاد روحه تزهق، ومع ذلك تراه يصرخ بين نوبتين من السعال، كما لو أنّه ما زال في ساحة التدريب:

«اللعنة! قف منتصباً يا جونس! لماذا تنظر إلى الأرض هكذا؟ أتبحث عن أعقاب سجائر؟ لقد التقطوها قبلك منذ زمن بعيد!».

وتعتوره نوبة سعال جديدة. يحاول عبثاً السيطرة عليها، فينثني حتّى يلامس صدره ركبتيه، ويكاد يلفظ رئتيه. يمتقع لونه، ثمّ تستحيل الحمرة إلى زرقة، وتدمع عيناه.

أسمع صفارات الإنذار تزعق، ومكبّرات الصوت تصرخ بأنّ جنودنا البواسل أسروا مئة ألف من عساكر العدو. وأرى تحت سقف أحد مساكن برمنغهام المتواضعة، طفلاً يبكي بصوت مرتفع بلا انقطاع من أجل قطعة خبز، فتنهره أمّه فجأة وقد عيل صبرها قائلة: «ألن تكفّ عن العويل أيها الولد القذر؟»، ثمّ ترفع مئزره، وتنهال على مؤخرته بالضرب لأنّها لم تعد تملك خبزاً، ولن تجده مستقبلاً. أرى كلّ هذا. أرى الملصقات وطوابير التموين، أرى زيت الخروع والهراوات والرشاشات تطقطق في نوافذ الغرف.

أهذا هو ما ينتظرنا؟ الله وحده يعلم. هناك أيام يكون فيها من المتعذّر تصديق ذلك. أيّام أقول فيها لنفسي إنّ الجرائد هي التي تتعمّد إشاعة هذا الفزع. لكن في أيّام أخرى يساورني شعور عميق بأنّنا لن نفلت من هذا المصير.

يهتف باعة الجرائد بقرب تشارين كروس بعناوين آخر الطبعات المسائية: «الساقان: إفادة جرّاح شهير»، ثمّ أثار انتباهي إعلان

صغير ظهر على إحدى تلك الجرائد: «تأجيل زواج الملك زوغ». الملك زوغ، يا له من اسم! من المستحيل ألّا يتصوّر من يسمعه أنّ صاحبه ليس شخصاً في سواد الأبنوس.

لكن في تلك الأثناء وقع أمر غريب. لقد سبق أن صادفتُ اسم الملك زوغ مرّات عديدة خلال ذلك النهار. لا شكّ أنّه يتداخل بالنسبة إليّ بأحاسيس أخرى... من قبيل ضجّة المرور أو رائحة روث الخيل أو... مهما يكن، فقد أيقظ ذلك في نفسي العديد من الذكريات.

الماضي هو أيضاً شيء غريب. إنّه يرافقك طوال الوقت، وأفترض أنّك لا تكاد تقضي ساعة دون أن تفكّر في لحظات تعود إلى عشرة أعوام أو عشرين عاماً خلت، ومع ذلك فهو لا يملك وجوداً واقعياً في أغلب الأحيان، وأنّه ليس إلّا متوالية من الأحداث حفظتها تماماً مثل كثير ممّا تعرضه كتب التاريخ. ثمّ فجأة يُؤذِن شيء رأيته أو سمعته، أو ربّما رائحة شممتها -ولا سيما الرائحة-، بانطلاق العملية، عندئذ لا تسترجع ذاكرتك قطعة من الماضي فحسب، بل تجد نفسك في قلب الماضي حقيقة. هذا بالضبط هو ما وقع لي.

بهذا النحو عادت بي الذاكرة إلى كنيسة بينفيلد قبل ثمان وثلاثين سنة. ظاهرياً كنت لا أزال أمشي في شارع ستراند -أنا الرجل البدين الأربعيني بطقم أسنانه وقبّعته الدائرية-، أمّا في الداخل فكنت جورج بولينغ، طفل في السابعة من عمره، الابن الأصغر لصامويل بولينغ، تاجر الحبوب والبذور، القاطن بـ 57، شارع بينفيلد. كان ذلك يوم الأحد صباحاً، وما زالت رائحة الكنيسة تملأ أنفي. نعم، ما زلت أشمّها! لعلكم تعرفون رائحة الكنائس، رائحة تتفرّد بها، هي مزيج من الرطوبة والغبار والعطن. رائحة حلوة الطعم، يمتزج بها شيء من

الشمع والبخور. وفي صباح الأحد تكاد تحجبها رائحة الصابون والفساتين الصوفية، لكن تبقى مع ذلك الغلبة لرائحة الغبار والعطن الحلوة التي تشبه رائحة خليط من الحياة والموت، أو بالأحرى رائحة مسحوق الجثث.

كان طولي حينذاك متراً وعشرين سنتيمتراً تقريباً. أقف على المجثى حتّى لا يحجب عني المقعد الذي أمامي الرؤية، وأستطيع أن أحس تحت يدي ثوب فستان أمي الصوفي الأسود. أرتدي جوربَين طويلَين مشدودَين بحيث يتجاوزان ركبتي -كذلك كانت تُلبَس الجوارب حينئذ- وعيناي تلمحان الجزء الخارجي من الطوق المطوي المسمّى طوق إلتون، الذي كانوا يزينونني به صباح كل أحد. كنت أستطيع أن أسمع نغم الأرغن المخنوق، والصوتَين الخائرَين اللذين ينشدان المزمور بملء فميهما. ففي كنيستنا، يقود الجوقة رجلان، يبثّان فيها من الحماسة بحيث يغطي صوتهما على أصوات بقية الحاضرين. أحد هذين الصوتَين القويَّين هو صوت شوتر، بائع السمك، بينما الثاني هو صوت ويذيرال، نجّار ومتعهّد دفن الموتى. عادة ما يجلسان متقابلَين في صحن الكنيسة، على أقرب المقاعد من المنبر. شوتر رجل قصير أميَل إلى البدانة، ذو بشرة ناعمة ووجه متورّد. له أنف ضخم وشنب متدلٍّ، وذقن منسحب تحت فمه. أما ويذيرال، فمختلف تماماً. إنّه عجوز فارع ونحيل، في نحو الستين من العمر، بشعر أشيب بطول سنتيمتر تقريباً يغطي جمجمته بكاملها. وجهه أشبه بوجوه الموتى، بحيث لم يسبق لي أن رأيت شخصاً في مثل نحوله، حتّى ليخيّل لمن يراه أنّه يرى هيكلاً عظمياً. وبشرته تذكّرك بلون البرشمان، وتبدو على فكّه البارز أسنان صفراء تتحرّك صعوداً ونزولاً كفكّ جمجمة في متحف خاص بعلم

التشريح. ورغم هذا النحول المرعب، فويذيرال صلب كالحديد. يبدو كما لو أنّه نذر ليعيش مئة عام إلى أن يشهد جنائز جميع أولئك الحاضرين. ومثلما أنّ الرجلَين مختلفان، فكذلك صوتاهما. أمّا صوت شوتر، فجئير موجع، كما لو أن أحداً يضع سكّيناً تحت حنجرته، كما لو أنّه يوجّه آخر نداء استغاثة، بينما صوت ويذيرال أشبه بخوار أو هدير أو قرقرة منبعثة من الأعماق. فمهما كانت حدّة الصوت الصادر عن ويذيرال، تدرك بأنّ نفسَه ما زال طويلاً. لذلك كان الأطفال يلقبونه دمدمة البطن.

كان صوتاهما يتجاوبان، لا سيما في المزامير. وكان ويذيرال هو المسيطر دائماً. لا بدّ أنّ الصداقة كانت مستحكمة بينهما، لكن في وعيي الطفولي، كنت أراهما عدوَّين لدودَين، يبذل كلّ منهما أقصى ما يستطيع لإسكات الآخر. يزأر شوتر: «أنت من ترعاني، يا إلهي»، فيردّ ويذيرال: «لذلك لن يحوجني شيء» بصوت يكاد يحجب صوت صاحبه. ولعلّكم خمّنتم، بما لا يدع مجالاً للخطأ، من الغالِب منهما. أمّا أنا فكنت أنتظر على أحرّ من الجمر الترنيمة التي تتحدّث عن قصة سيحون ملك العموريين، وعوج ملك بيسان (الذي ذكّرني به الملك زوغ). ينشد شوتر قائلاً: «سيحون، ملك العموريين»، ثمّ يتعالى صوت الجوقة بعد نصف دقيقة تقريباً قائلاً: «و»، فيدوي صوت ويذيرال الجهير: «عوج، ملك بيسان» غامِراً الجمع كموجة عارمة. وددت لو تسمعون ذلك الهدير العميق الرائع الصادر عن ويذيرال محاكياً الملك عوج، الشبيه بهدير برميل ضخم يُدحرج بعنف. ولمّا علمت لاحقاً بكيفية كتابة الاسمين، تمثلت في ذهني صورة سيحون وعوج كتمثالَين مصريَّين عظيمَين، وهي صورة استوحيتها من إحدى الموسوعات الشعبية. كان هذان الرجلان

يتصوّران لي كتمثالَين عملاقَين بارتفاع ثلاثين قدماً، لملكَين جالسَين على عرشيهما متقابلَين وقد وضع كلّ منهما يديه على ركبتيه، تنير وجهيهما ابتسامة غامضة.

ما أغرب أن يراودني كل هذا الآن وأنا في الكنيسة! وما أغرب هذا الشعور -هو حقّاً شعور وليس نشاطاً- الذي يرافق كلمة «كنيسة»! العطن الحلو الشبيه بعطن مستودع الأموات، وحفيف فساتين يوم الأحد، ولحن الأرغن المخنوق، والأصوات الهادرة، وبقعة الضوء المتسلّلة من خلال ثقب في الزجاج الملوّن، المتحرّكة ببطء نحو الصحن. وقد كان الكبار ينجحون بطريقتهم الخاصة في التسليم بضرورة هذا القداس العجيب، واعتباره أمراً بديهياً، شأنه في ذلك شأن الإنجيل الذي كان يُستهلك بجرعات كبيرة في ذلك العهد، بحيث تغطّي مقاطع منه كل الجدران، ويحفظ الناس منه سُوَراً بكاملها. وما زال رأسي محشوّاً بأجزاء منه إلى يومنا هذا. أبناء إسرائيل يقترفون الآثام الفادحة على مرأى من الرب، وعشير مُصرٌّ على جرائمه، فيجتمع شعب الله من دان إلى بيرشيبا... يوجّهون له ضربة تصيب ضلعه الخامس، فتقتله. ظلّ الأمر غامضاً غير مفهوم، ولم يكن أحد يرغب في فهمه. كان كدواء غريب يلزم شربه، لأنّ ذلك ضروري بوجه من الوجوه. ثرثرة غريبة لا أوّل لها ولا آخر، تدور حول أناس ذوي لحى آشورية مثل شيمي ونبوخد نصر وأخيتوفل وهاشبادادا، جميعهم يتدثّرون بأردية طويلة خشنة، ويمتطون جمالاً، يجوبون الأرض ويتجوّلون بين المعابد وأشجار الأرز، يأتون أشياء خارقة، ويقدّمون للإله الأضاحي والقرابين. يمشون على الجمر، يُصلبون بالمسامير، وتبتلعهم الحيتان. كل هذا ممزوج برائحة مقابر حلوة، وفساتين صوفية وأنغام أرغن مخنوقة.

هذا هو العالم الذي عاودني عندما رأيت اسم الملك زوغ على ملصق إحدى جرائد المساء. وخلال لحظة لم أجد نفسي أتذكّره فحسب، بل منغمساً فيه. وبطبيعة الحال، مثل هذه المشاعر لا تدوم إلا بضع ثوانٍ. وما هي إلّا هنيهة حتى أحسست بنفسي وكأنّني أفتح عيني من جديد، فأجدني في الخامسة والأربعين من عمري، وسط زحمة في شارع ستراند. على أنّ وقْع تلك العودة إلى الماضي لم يكن قد زال تماماً. حين تخرجون أحياناً من تيار أفكاركم، تحسّون كما لو أنّكم تصعدون من مياه عميقة. أمّا هذه المرّة، فكان الأمر مبايناً تماماً. كنت كما لو أنّني تنفّست من فوري هواء سنة 1900 النقي. وحتّى في تلك اللحظة، ومع أنّ عينيّ مفتوحتان بحيث أبصر كلّ هؤلاء الأغبياء المستعجلين، وهذه الملصقات، وأشمّ رائحة البنزين الكريهة، وأسمع صخب المحركات، بدا لي كلّ ذلك أقل واقعية من صباح الأحد في بينفيلد قبل ثمان وثلاثين سنة.

رميت السيجار، وواصلت السير ببطء. تذكرت روائح الجيف، بل إنّني ما زلت أشمّها الآن بشكل من الأشكال. أنا في بينفيلد عام 1900. بساحة السوق، بجانب مورد الدواب. يحشر حصان الحوذي أنفه في المخلاة. في متجر الحلويات تزن الأمّ ويلير قرشين من الحلوى، وعربة السيدة رامبلينغ تنطلق، بينما يجلس خادمها في المؤخّرة، بسرواله الجلدي القصير، شابكاً ذراعيه. العمّ إيزكيل يشتم جو شامبرلان والرقيب ببذلته القرمزية وسرواله الأزرق يتبختر مستعرضاً قبّعته، يذرع الساحة جيئة وذهاباً وهو يبرم شنبه. السكارى يتقيؤون في ساحة الفندق. الملكة في إقامتها بويندسور، والله في السماء، والمسيح على الصليب، ويونس في بطن الحوت والفتية شدرخ وميشخ وعبدنغو في النار المستعرة، وسيحون ملك العموريين

وعوج ملك بيسان، جالسان على عرشيهما، يحدّق أحدهما في الآخر دون أن يفعلا شيئاً، متشبّثين بمكانيهما كأثفيتين.

هل اختفى هذا العالم إلى الأبد؟ لست متأكّداً من ذلك. لكن ما أريد قوله هو أنّ الحياة فيه كانت طيبة. إنّ هذا العالم عالمي وعالمكم أيضاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الثاني

1

العالم الذي تمثّل في ذاكرتي على نحو خاطف لمّا رأيت اسم الملك زوغ على الملصق كان عالماً بالغ الاختلاف عن هذا الذي أعيش فيه الآن لدرجة يتعذّر معها عليكم أن تصدّقوا أنّه كان عالمي يوماً.

أقول في نفسي إنّكم لا بدّ أن تكونوا قد شكّلتم عنّي صورة -صورة شخص أكرش، بسحنة ضاربة إلى الحمرة وأسنان اصطناعية- ولا بدّ أنّكم تظنّون في لا شعوركم أنّني خلقت على هذه الهيئة. لكن أشياء كثيرة يمكن أن تحدث في خمس وأربعين سنة، ورغم أنّ ثمّة أناساً لا يتغيّرون كثيراً، ولا يتبدّلون، هناك آخرون ليسوا كذلك. فقد تغيّرت كثيراً، وعشت اليسر والعسر، ولا سيما اليسر. قد يبدو هذا غريباً، لكن لو طال عمر أبي حتّى رآني الآن، لشعر بالفخر. كان سيحسّ بالزهو من أن أحد أبنائه يملك سيارة ويعيش في منزل مجهّز بحمّام. ورغم سوء الأحوال، فمستواي أعلى من الوسط الذي أتيت منه. وفي بعض لحظات حياتي، بلغت درجات ما كنّا لنحلم بها في الماضي، أيّ قبل نشوب الحرب.

قبل نشوب الحرب! أتساءل كم من الوقت سنظلّ نستعمل هذا التعبير. كم سيلزم من الوقت قبل أن ينسوا ويجيبوك: «أيّ

حرب؟!». بالنّسبة إليّ نعيم ما قبل الحرب كان موجوداً قبل حرب البوير. فقد ولدت سنة 1893، وما زلت أذكر اندلاع حرب البوير بوضوح بسبب مشاحنة بين أبي والعمّ إيزيكل. بل إنّ بعض ذكرياتي تعود إلى السنة التي سبقت ذلك الحدث.

أوّل ما أذكره هي رائحة كرة العنبريس. كنّا نعبر الممرّ المجصّص بين المطبخ والمتجر، وكانت رائحة العنبريس تشتدّ كلّما تقدّمنا. وكانت أمّي قد وضعت حاجزاً خشبيّا في فتحة الباب لكي تمنعنا، أنا وجو (أخي الأكبر) من الدخول إلى المتجر. ما زلت أذكر كيف كنت أبقى واقفاً، متشبّثاً بالقضبان الحديدية، وأنا أستنشق رائحة العنبريس الممزوجة برائحة الجبس المبلل. ولم أتمكّن من اجتياز الحاجز والدخول إلى المتجر وليس فيه أحد، إلّا بعد مرور سنوات عديدة. أبصرت فأراً في أحد صناديق الطحين، ما إن رآني حتّى لاذ بالفرار متسلّلاً بين قدميّ وقد ابيضّ بالطحين. كنت في حوالي السادسة من عمري لمّا حدثت هذه الواقعة.

حين تكون صغيراً تعي على نحو مفاجئ حقيقة أشياء طالما رأيتها حولك. ذلك أنّ الأشياء التي تحيط بك تفرض نفسها عليك الواحد تلو الآخر، تماماً مثلما تصحو من النوم. فأنا لم أنتبه مثلاً إلى أننا نملك كلباً إلّا حين بلغت الرابعة من العمر. كان اسمه نيلر. كلب صيد إنجليزي عجوز من فصيلة لم يعد لها وجود الآن. وجدت نفسي ذات يوم وجهاً لوجه معه تحت مائدة المطبخ، واكتشفت فيما يشبه الوحي بأنّه كلبنا، وأنّه يدعى نيلر. وبالطريقة نفسها اكتشفت أنّ المكان الذي تنبعث منه رائحة العنبريس يوجد في أقصى الممرّ، خلف الحاجز. المتجر نفسه، بموازينه الضخمة، وأوزانه الخشبية، والرفش القصديري، والحروف البيضاء المكتوبة على الواجهة

والعصفور المغرّد في القفص -الذي لا يبدو بوضوح من الرصيف بسبب الغبار المتراكم على الواجهة الزجاجية-، كل هذه الأشياء لم أستوعبها إلّا واحداً تلو الآخر، مثل قطع لعبة الأحجية.

ثمّ يمضي الزمن، وتتقوّى ساقاك، وشيئاً فشيئاً تكتسب بعض مبادئ الجغرافيا. تدرك أن بينفيلد لا تختلف في شيء عن بقية القرى التي لا يتجاوز تعداد سكانها ألفي نسمة، وتضمّ سوقاً. كانت تقع في أكسفوردشاير (لا بدّ أنّكم لاحظتم أنّني قلت «كانت» رغم أنّها لا تزال موجودة) على بعد أقلّ من عشرة كيلومترات من نهر التمز، وتمتدّ فيما يشبه الوادي، تفصلها عن النهر تلال متموّجة. وهذه التلال تحيط بها تلال أعلى تكسو قممها غابات تشكّل ما يشبه كتلة زرقاء يتوسّطها منزل ضخم ذو أعمدة. وقد كان هذا المنزل يدعى بينفيلد هاوس، يعرف بين الناس باسم «القصر». أمّا قمة التلّ فكانت تشتهر باسم بينفيلد العليا، رغم أنّ القرية التي كانت موجودة فيها اختفت منذ قرن. لا بدّ أنّني كنت في السابعة من عمري لمّا وعيت بوجود بينفيلد هاوس. لمّا يكون المرء صغيراً، لا يعير المسافات انتباهاً. لكنّني كنت أعرف، وأنا لا أزال في السابعة من عمري، القرية شبراً شبراً. كان شكلها عبارة عن صليب تتوسّطه ساحة السوق، وكان متجرنا يقع في الشارع الرئيس قبل بلوغ السوق بمسافة قصيرة. وعند الزاوية يقع متجر حلويات السيدة ويلير حيث كان بالإمكان شراء الحلوى بنصف قرش. وقد كانت السيدة ويلير عجوزاً شمطاء قذرة يشتبه الناس في أنها تمص كريات الحلوى وتعيدها إلى القناني قبل أن تبيعها، رغم أن لا أحد استطاع أن يثبت ذلك يوماً. وأبعد من متجر الحلوى قليلاً يوجد محلّ حلاقة تعلوه لوحة إشهارية لسجائر عبد الله -يظهر عليها جنود مصريون، والغريب هو أن تلك

اللوحة لا تزال قائمة إلى اليوم-، تنبعث منه رائحة مشروبات مسكّرة. وخلف المنازل تنتصب مدخنة مصنع الجعة. أمّا وسط ساحة السوق، فكان يوجد مورد الدواب الحجري، تطفو على مائه دائماً طبقة رفيعة من الغبار والتبن.

قبل الحرب، ولا سيما قبل حرب البوير، كان الصيف يدوم السنة بكاملها. أنا أدرك أنّ الأمر مجرّد وهم، كلّ ما في الأمر هو أنّني أحاول أن أشرح لكم كيف أتذكّر الأشياء. لو أغمض عينَيّ لكي أرى من جديد بينفيلد في أيّ لحظة من عمري، لنقل، قبل سنتي الثامنة، فإنّ ذاكرتي تستحضرها دائماً صيفاً وقت الزوال: خمول ساحة السوق، وحصان الحوذي الحاشر رأسه في المخلاة وهو يمضغ ويمضغ... أو أتذكّر عصر يوم قائظ في المروج الواسعة الباردة المحيطة بها، أو عند حلول الظلام على الطريق الواقع خلف حديقة العمال حيث تنبعث من فوق الأجمة رائحة الغليون والزهر. لكنني أتذكر أيضاً، على نحو من الأنحاء، الفصول الأخرى، لأنّ كل ذكرياتي تقترن بالأكل المتوفر، وهو أمر لم يكن قارّاً على امتداد السنة، ولا سيما ما كان يتوفر في الشجيرات المتناثرة. ففي شهر يوليو كنا نجد التوت البري -على قلّته- وتوت العليق الذي يحمرّ في هذه الفترة ويروق طعمه. وفي شهر سبتمبر ينضج البرقوق البري والبندق. وكانت أفضل حبات البندق بعيدة المنال دائماً. بعد ذلك ينضج الإجّاص والتفّاح البرّي، ثمّ يأتي في المرتبة الثانية الزعرور وفاكهة وردة المسك ذات المذاق المرّ، بعد تخليصها من الأهداب. أمّا حشيشة الملوك فتكون لذيذة في بداية الصيف، لا سيما عند الشعور بالعطش. والأمر نفسه بالنسبة إلى سيقان مختلف الحشائش. ثمّ هناك نبتة الحُمّاض ذات الطعم اللذيذ إذا أُكلت مع الخبز

والزبدة. وهناك أيضاً جوز البلوط والنفل الخشبي ذو المذاق اللاذع. وحتّى حبوب نبات الجدي تكون أفضل من لا شيء عندما يشتدّ بنا الجوع ونكون بعيدين من البيت.

يكبرني جو بسنتين. لمّا كنا لا نزال صغاراً، كانت أمّي تدفع لكاتي سيمونس ثمانية عشر قرشاً في الأسبوع مقابل أخذنا للنزهة بعد ظهر كلّ يوم. وقد كان أب كاتي يعمل في مصنع الجعة، وله أربعة عشر طفلاً، بحيث كان كلّ أفراد الأسرة في بحث مستمرّ عن أعمال صغيرة. كانت كاتي قد بلغت الثانية عشرة من عمرها لمّا أقفل جو سنته السابعة وأنا سنتي الخامسة. على أنّ الفارق بين سنّها العقلي وسنّنا لم يكن كبيراً. كانت متعوّدة على سحبي من يدي كما لو كنت رضيعاً، ولم تكن سلطتها علينا تتجاوز حمايتنا من أن تدهسنا إحدى العربات أو أن ينطحنا ثور من الثيران. أمّا على مستوى الحديث، فكنّا متساوين. كنّا نقوم بنزهات طويلة على الطريق الضيّق الموجود خلف حديقة العمّال حيث كنّا نأكل أشياء نلتقطها من جانب الطريق. ثمّ نخترق المروج ونتوجّه إلى ضيعة الطاحونة حيث توجد بركة تعيش فيها سَحالٍ مائية وأسماك صغيرة (وهي بركة كنا نتردّد عليها أنا وجو لاحقاً من أجل الصيد). إثر ذلك نقفل راجعين حريصين كلّ الحرص على المرور بمتجر الحلويات في أقصى المدينة، والذي كان كلّ من يشغله ينتهي إلى الإفلاس بسبب موقعه السيّئ. وقد استُعمل حسب علمي ثلاث مرّات لبيع الحلويات، ومرّة للبقالة، ومرّة ورشة لإصلاح الدراجات الهوائية، لكنّه كان يحظى لدى الأطفال بسحر خاص. وحتّى لمّا لا يكون معنا نقود، كنّا نتوقف لكي نلصق أنوفنا بواجهته الزجاجية. ولم تكن كاتي تستغل نفوذها عند اقتسام الحلوى بيننا، إذ كثيراً ما كانت تغضب قائلة إنّنا أكلنا جُلّ الحلوى، ولم

نترك لها سوى الفتات. ففي تلك الفترة كان بإمكانك أن تشتري مئة وعشرين غراماً من الحلوى بقرش واحد. كما يمكن أن تشتري بالقرش نفسه مئة وثمانين غراماً من خلطة الفردوس، أيّ بزيادة النصف على ما يمكن أن تحصل عليه بالثمن نفسه في محلّ آخر. وقد كانت خلطة الفردوس عبارة عن مزيج من فُتات مختلف الحلويات. وكان ثمّة أيضاً حلويات أخرى بقرش واحد، ذات أشكال متنوعة: مصاصات بالغة الطول يستغرق استهلاكها نصف ساعة تقريباً، سكاكر على شكل فئران أو خنازير، عرق سوس على شكل مسدس. وبنصف قرش أيضاً كان بالإمكان شراء كيس كبير من الفشار. على أنّ كثيراً من حلويات تلك الفترة انقرضت الآن. كانت ثمّة حلوى مسطّحة بيضاء نقشت عليها شعارات، وكذلك علبة عود ثقاب إهليجية الشكل، بداخلها مادة لزجة ذات لون وردي، ومعها ملعقة بالغة الصغر تستعمل لأكلها. لم يعد لكل ذلك أثر اليوم مثلما لم يعد أثر لبعض الفواكه المسكّرة وأصابع الشوكولاتة وعيدان السكّر وقناني المشروبات الغازية الضخمة.

هكذا، فحين أتذكّر طفولتي، يخيّل لي أنّ الزمن كلّه كان صيفاً، بحيث أستطيع تحسّس العشب من حولي -وهو بطول قامتي-، والحرارة المتصاعدة من الأرض، وغبار الطريق الريفي الضيّق والضوء المخضرّ النافذ من خلال أغصان شجرة البندق. وتتراءى لي صورتنا، نحن الثلاثة، نأكل ما نعثر عليه في الشجيرات، وكاتي تسحبني من يدي وهي تصرخ: «تعال أيها الرضيع!» أو تصيح في جو: «ارجع إلى هنا فوراً يا جو!». كان جو طفلاً جسوراً، بديناً برأس ضخم وربلتَين عظيمتَين. وما كاد يبلغ السابعة حتى شرع يرتدي السراويل القصيرة مع جوارب سوداء تصعد فوق الركبة، وينتعل حذاء

ضخماً مثل كلّ أطفال ذلك العهد. أما أنا فكنت أرتدي دائماً وزرة من القماش تخيطها لي أمي بينما كانت كاتي تلبس أثواباً رثّة تكبرها، ترثها الأخت الصغرى عن الكبرى. وكانت تضع على رأسها قبّعة مضحكة، تتدلّى منها ضفيرتان، وتلبس تنورة قذرة أطول من قامتها، تلامس الأرض، وتنتعل حذاء ثقيلاً تآكل كعباه. كما كانت فتاة ضئيلة، بالكاد أطول من جو، لكنّها تتدبّر أمرها مع الأطفال جيّداً. ففي أسرة مثل أسرتها، كلّ طفل مدعوّ إلى العناية بالأصغر منه بمجرّد ما يفطم. وفي بعض الأحيان تراها تتصرّف كشخص راشد، كسيدة، فتجيبك بمثل أو قول مأثور من شأنه، في نظرها، أن يفحمك.

كانت أسرة كاتي تقطن كوخاً حقيراً في حيّ بئيس يقع خلف مصنع الجعة، يعجّ بالأطفال كقرية نمل. كانوا يبذلون قصارى جهدهم لكي ينقطعوا عن المدرسة الإجبارية، وهو ما كان يسيراً نسبياً حينئذ. وما أن يصير الطفل قادراً على المشي حتّى يشرع في تدبّر أمره، والبحث عن شغل يشغله. وقد حُكم على أخ يكبرها بشهر سجناً لأنّه اختلس لفتاً. ولم تكد تمرُّ سنة حتى توقفت كاتي عن أخذنا للنزهة، أي لمّا بلغ جو الثامنة، وقدّروا أنّه أوقح من أن يُعهد به إلى فتاة صغيرة. كان قد اكتشف أنّ إخوة كاتي لا ينامون كلّ في سريره، بل ينام خمسة في السرير نفسه، ولم يكن يكفّ عن استفزازها والتنكيد عليها بسبب ذلك.

مسكينة كاتي! أنجبت طفلها الأوّل وهي لا تزال في الخامسة عشرة من عمرها. ولا أحد كان يعرف -ولا حتى هي نفسها- من يكون الأب. وقد كان معظم الناس يعتقدون أنّه أحد إخوانها. أودع الطفل في ملجأ بينما ذهبت هي للعمل في والتون. بعد ذلك بمدّة قصيرة تزوّجت من شخص يشتغل في تبييض الأواني، وبسبب هذه

الزيجة زاد وضعها الاجتماعي سوءاً. وكانت آخر مرّة رأيتها فيها سنة 1913. بينما كنت أعبر والتون على درّاجة هوائية، مررت بقرب سكّة الحديد، وسرت بمحاذاة أكواخ مسيّجة بأوتاد وبراميل، يستقر بها الغجر في بعض الأوقات من السنة، لمّا تسمح لهم الشرطة بذلك. وفجأة خرجت من أحد تلك الأكواخ امرأة عجوز بوجه متغضّن، وشعر أشعث، تبدو وكأنها في الخمسين من العمر، لتنفض سجاداً متآكلاً. إنّها كاتي التي لم تكن قد جاوزت السابعة والعشرين من العمر.

2

كان يوم الخميس هو يوم السوق. يرتاده رجال ذوو وجوه حمراء ورؤوس ذات هيئة كالقرع، يرتدون وزرات قذرة، وينتعلون أحذية ضخمة جفّ عليها الروث. يأتون ببهائمهم في الصباح الباكر، يهمزونها بعصيّهم الطويلة. تتعالى جلبة تصمّ الآذان لساعات: نباح الكلاب وقباع الخنازير وصياح أصحاب العربات وصفير سياطهم. وقد كان الصخب يصل إلى حدّه الأقصى لما يأتي أحدهم بثور. حتى وأنا في ذلك السن، كان يخيّل إليّ أنّ الثيران كائنات بريئة لا تطلب سوى العودة إلى حظيرتها بسلام. على أنّ الثور ما كان ليبدو خطيراً لولا خروج نصف سكان البلدة لمطاردته. وأحياناً تفلت بهيمة مرعوبة من عقالها، وغالباً ما تكون عِجلة، وتندفع جارية في أحد الأزقة الجانبية. عندئذ يتسمّر من تصادفهم في طريقها في أماكنهم، ويشرعون في التلويح بأيديهم كطواحين هوائية صارخين: هوووه! قاصدين من ذلك تهدئتها، على أنّ ذلك لم يكن يعمل على الأرجح إلّا على مضاعفة فزعها.

وعندما تنتصف الصبيحة، يرتاد بعض مربّي الماشية المتجر. يتفحّصون جودة الحبوب وذلك بملء قبضات أيديهم منها، ثمّ يتركونها تنساب من بين أصابعهم. والواقع أنّ أبي لم يكن يتعامل

معهم إلّا قليلاً، لأنّه لم يكن، من جانب، يملك عربة تسمح له بنقل السلعة وتسليمها لهم في بيوتهم، ولأنه لم يكن يستطيع، من جانب آخر، أن يقرضهم لفترة طويلة. كان يتعامل معهم على الخصوص في تعاملات أقل أهميّة مثل علف الدواجن والخيول. وقد كان بروير، وهو عجوز بخيل يقطن في ضيعة الطاحونة، يتدلّى من ذقنه عُثنون أشيب، متعوّداً على قضاء نصف ساعة يداعب حبوب القمح الموجّهة للدواجن، والتي كان بعضها يسقط في جيبه من شدّة شروده، ثمّ ينصرف دون أن يشتري شيئاً في الغالب. وفي المساء، كانت الحانات تحتشد بالسكارى. وكان نصف لتر من الجعة يباع في ذلك العهد بقرشين، ولم تكن حينئذ رديئة كما هو الشأن اليوم. وطوال حرب البوير، كان الرقيب المكلّف بالتجنيد يرتاد حانة جورج مساء كلّ خميس وسبت وهو في أزهى حلله، وينفق بلا حساب. وأحياناً يُرى في صباح اليوم الموالي وهو يقود شخصاً بديناً متورّد الوجه، لعبت الخمر برأسه، فاستدان بعشرين جنيهاً، وعجز عن أدائها. ولمّا كان الناس يبصرونهما، يقفون عند أبواب منازلهم وهم يحركون رؤوسهم كما لو أنهم أمام موكب جنائزي، ويقولون: «يا للعجب! أتراه التحق بالجيش؟! شاب وسيم مثله يفعلها وينخرط في الجيش؟!»، كان ذلك يصدمهم، إذ أنّ انخراط شابّ في الجيش في نظرهم أشبه بفتاة تشرع في امتهان الدعارة. فقد كان موقفهم من الحرب والجيش غريباً. كان هؤلاء الناس متشبّعين بالأفكار الإنجليزية القديمة التي تعتبر أنّ الرعاع فقط هم من يرتدون بذلة العسكر الحمراء، وأنّ من ينخرط في الجيش سينتهي مدمناً على الخمر، وسيكون مآله الجحيم. لكنّهم كانوا في الآن ذاته صادقي الوطنية، يضعون العلَم في النوافذ، ويؤمنون بأنّ الإنجليز لم يعرفوا

الهزيمة قطّ، ولن يعرفوها أبداً. كان جميع الناس في ذلك العهد، بما فيهم المستقلّون، يردّدون أناشيد حماسية تمجّد الخط الدفاعي الأخير الذي لا يتراجع أبداً، وتشيد بالشاب الذي ضحّى بحياته في ساحة الشرف. هؤلاء الأبطال الذين ما زالوا في ريعان الشباب يلفظون أنفاسهم دائماً «تحت وابل من الرصاص». وقد كنت أجد صعوبة في تخيّل «وابل الرصاص» هذا. وعندما فُكّ الحصار عن مافكينغ، عمّت موجة عارمة من الفرح؛ ذلك أنّ الناس كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً في بعض اللحظات، أنّ البوير يتقاذفون الرضّع، ويحملونهم على رؤوس حراب بنادقهم. لقد ضايق الأطفال العجوز بروير، ولم يعد يطيق هتافهم خلفه: «كروغر!» -اسم قائد البوير الكبير منطوقاً بلكنة إنجليزية- الذي ضحّى بعُثنونه حين أوشكت الحرب على أن تضع أوزارها.

والواقع أنّ موقف الناس من الحكومة لم يكن مختلفاً عن موقفهم من تجنيد الشباب. كانوا يعتبرون أنفسهم إنجليزاً خالصين، ويقسمون بأنّ فيكتوريا هي أفضل ملكة في العالم، بينما الأجانب حُثالة. لكن لا أحد يفكر في دفع ما عليه من ضرائب، ولن يجد حرجاً في التهرّب حتى من أداء رسم الكلاب إن وجد إلى ذلك سبيلاً.

كانت بينفيلد قبل الحرب دائرة انتخابية مضمونة بالنسبة إلى الحزب الليبرالي. وخلال الحرب، نُظّمت انتخابات جزئية أسفرت عن فوز المحافظين. كنت لا أزال صغيراً حينئذ لأفهم ما كان يجري على وجه الدقة. كلّ ما كنت أدركه هو أنّني محافظ لأنّني كنت أفضّل العلَم الأزرق على الأحمر. وأنا أذكر هذا بسبب السكّير الذي سقط أمام باب الحانة وظلّ ممدّداً. في خضمّ تلك الفورة العامة، لم

يلتفت إليه أحد، وظلّ هناك لساعات تحت الشمس الحارقة حتّى جفّ الدم النازف منه. وعند تنظيم انتخابات 1906، كنت قد بلغتُ سنّاً يخوّل لي فهم ما يجري على وجه التقريب. وهذه المرة كنت ليبرالياً لأنّ جميع الناس كانوا كذلك. لاحق الناخبون المرشّح المحافظ، وبعد مطاردته لمسافة كيلومتر، قبضوا عليه، وألقوا به في بركة مليئة بالطحالب. كان الناس في ذلك العهد يأخذون السياسة على محمل الجدّ، ويهيّئون البيض الفاسد قبل موعد الاقتراع بأسابيع.

كنت لا أزال صغيراً لمّا نشبت تلك المشادّة الكلامية المشهودة بين أبي والعمّ إيزيكل بسبب حرب البوير. كان العمّ إيزيكل يبيع الأحذية في متجر واقع بشارع متفرّع عن الشارع الرئيس. كما كان يعمل إسكافياً أيضاً. كانت تجارته تبور شيئاً فشيئاً، لكنّه لم يكن يأبه بذلك لأنّه كان عازباً. لم يكن أخاً شقيقاً لأبي -كان يكبره بعشرين سنة على الأقل-، وخلال الخمس عشرة سنة التي عرفتُه فيها، لم يتغيّر مظهره الجسدي بالنسبة إليّ: رجل مسنّ، أنيق الملبس، طويل القامة، أشيب، ذو لحية شائكة لم أرَ مثل بياضها قطّ. ما زال يتراءى لي وهو يضرب بقوة على وزرته الجلدية، ويقف مستقيماً، يلفظ في وجهك مواقفه وآراءه لينهي كلامه بكركرة غريبة. كان ليبرالياً حقيقيّاً من ليبراليي القرن التاسع عشر، من أولئك الذين يسألونك عن إعلان كلادستون سنة 1878، وهم مستعدّون لإخبارك بمحتواه إن كنت تجهله. إنّه أحد القلائل الذين ظلّوا أوفياء لمواقفهم خلال فترة الحرب بكاملها ببينفيلد. ولم يكن يتوقّف عن مهاجمة جو شامبرلان وأولئك الذين كان ينعتهم بـ«صعاليك بارك لان». ما زال صوته وهو يتجادل مع أبي يتردّد في مسامعي. «هم وإمبراطوريتهم

المترامية لا يستطيعون أن يفعلوا معي شيئاً، ها ها ها!» فيردّ عليه أبي بصوت هادئ رصين، بنبرة رجل يدرك خبايا ما يجري، بأن الرجل الأبيض ملزم بحمل هذا العبء، وأنّ علينا واجباً ينبغي أن نفي به اتّجاه هؤلاء السود المساكين الذين يعاملهم البوير بكيفية مخزية. وخلال أسبوع تقريباً، أعلن العمّ إيزيكل مساندته للبوير، وتأييده لدولة إنجليزية صغيرة غير استعمارية. وكادا يتقاطعان بسبب ذلك. وقد نشبت بينهما مشاحنة أخرى عندما بدأت تروج إشاعات حول الفظاعات المرتكبة. كانت هذه الإشاعات تسبّب لأبي إزعاجاً كبيراً، لذلك لم يتحرّج من مناقشة الموضوع. ورغم أنّ العم إيزيكل كان يعلن تأييده لدولة إنجليزية صغيرة، فإنّه لا يمكن أن يرى من العدل أن يقذف البوير الرضّع في الهواء، ويعترضونهم بحراب بنادقهم، رغم أنهم ليسوا سوى أطفال السود. لم يكن الإنجليز من يفعلون ذلك في نظره، بل الجنود البريطانيون! كان يلتقطني، وأنا في حوالي الخامسة من عمري، ويقذف بي في الهواء ليصوّر كيف كانوا يفعلون. «قلت لك إنهم يرمونهم في الهواء، ويسلكونهم في الحراب كالضفادع. يفعلون بهم هكذا، كما أفعل بهذا الصبي!» ويرميني في الهواء أقصى ما يستطيع، ثمّ يتظاهر بأنّه سيتركني أسقط، فأرى نفسي طائراً في الهواء، وأتخيّلني أحطّ على رأس حربة.

كان أبي مختلفاً تماماً عن العمّ إيزيكل. لست أعرف الشيء الكثير عن جدّي وجدتي. فقد ماتا قبل ميلادي. كلّ ما أعرفه هو أن جدي كان إسكافياً، وأنّه تزوّج وهو في سنّ متقدّم بأرملة تاجر حبوب، وبذلك آلت إليه ملكية المتجر. لم تكن تجارة الحبوب تعجب أبي رغم أنّه كان يعرف أسرارها، ويشتغل بها طول الوقت ما عدا أيّام الآحاد. لا أذكر أنّني رأيته يوماً من دون أثر الطحين على

ظهر يديه وتجاعيد وجهه وعلى شعره المتناثر. كان في الثلاثين من عمره تقريباً عندما تزوّج، وفي الأربعين أوّل ما أذكره. كان رجلاً ضئيلاً، هادئاً ومنزوياً، يلبس وزرة بيضاء وقميصاً بكمّين، معفّراً دائماً بالطحين. كان مدوّر الرأس، منبسط الأنف، كثّ الشارب، أشقر الشعر مثلي، وإن كان يعلوه البياض، ويضع نظارة.

لقد حسّن جدي وضعه كثيراً بزواجه من أرملة تاجر الحبوب، إذ تمكّن أبي أن يتابع دراسته في ثانوية والتون حيث كان المزارعون والتجّار الميسورون يبعثون أبناءهم. أما العمّ إيزيكل، فكان يتباهى بأنّه لم يلتحق بالمدرسة قطّ، وأنّه تعلّم القراءة بمفرده على ضوء الشمع بعدما كان يفرغ من العمل. كان ذهنه أحدّ من أبي، وكان قادراً على الحديث مع مختلف طبقات الناس، يورد في كلامه الكثير من أقوال كرايتل وسبنسر. أمّا أبي فكان أقل يقظة منه. لم يكن يقرأ الكتب، وإنجليزيته كانت ضعيفة. بعد ظهر أيّام الآحاد، وهي اللحظة الوحيدة في الأسبوع التي يرتاح فيها، كان يجلس في الصالون الصغير قرب المدفأة ليتفرّغ -كما كان يقول- لحصّة القراءة. وقد كانت جريدته الأسبوعية المفضّلة هي **ذا بيبول** (الناس)، بينما كانت أمّي تفضل **نيوز أوف ذا وورلد** (أخبار العالم)، لأنّ الركن المخصّص للجرائم كان فيها أضخم. ما زالت صورتهما إلى الآن تتراءى لي. كان ذلك عصر أحد أيّام الصيف بالطبع -لأنّ الوقت كلّه صيف-، لا تزال رائحة لحم خنزير مشوي وبازلاء خضراء تملأ المكان. ماما جالسة في أحد جانبَي الموقد تقرأ عن آخر جريمة قتل، لكن النعاس غلبها شيئاً فشيئاً، فنامت وفمها مفتوح بينما يتقدّم أبي ببطء، وقد ارتدى شبشباً ونظارة، في قراءة أعمدة الجريدة. كان دفء الصيف غامراً، والنافذة تزيّنها

أزهار المسك بينما راح زرزور يملأ المكان تغريداً. أمّا أنا فجلست تحت المائدة أتصفّح مجلّة مصوّرة للصغار متخيّلاً أن غطاء المائدة يمثّل خيمة. وحين يحلّ وقت الشاي، يشرع أبي، وهو يقضم الفجل والبصل، في اجترار كلّ ما قرأ بصوت عالٍ: الحرائق وحوادث الغرق وفضائح المجتمع الراقي والآلات الجديدة الطائرة والشخص الذي ابتلعه الحوت في البحر الأحمر (والذي ما زال يظهر في الصحافة إلى اليوم مرّة كل ثلاث سنوات تقريباً) ولفَظَه بعد ثلاثة أيام وقد ابيضّ بفعل إفرازات معدته. لم تكن هذه القصة تستهوي أبي مثلما لم يستهوه خبر الآلات الطائرة، وإن كان يصدّق كلّ ما يقرأ. لم يكن يصدّق أحد في بينفيلد إلى حدود سنة 1909 أنّ الإنسان سينجح في الطيران يوماً. كان الاعتقاد السائد هو أنّ الله لو شاءنا أن نطير، لكان وهبنا أجنحة. ولم يكن العمّ إيزيكل يتمالك نفسه من أن يردّ: لو شاء الله أن يجعل الإنسان يطوي المسافات لوهبه عجلات. لكن حتّى هو لم يكن يؤمن بتلك الآلات الجديدة الطائرة.

لم يكن أبي يرتاد الحانة إلّا بعد ظهر يوم الأحد، وربّما مرّة أخرى خلال الأسبوع، ليشرب قليلاً من الجعة. أمّا بقيّة الوقت، فكان يقضيها منهمكاً في تجارته. ومع أنّ العمل لم يكن كثيراً في الواقع، فقد كان منشغلاً دائماً، إمّا في مخزن الحبوب خلف الساحة يتصارع مع الأكياس والرزم، وإمّا خلف المنضدة في المكتب الضيّق المغبرّ حيث يعكف على ضبط الحسابات بواسطة قلم رصاص ودفتر. وقد كان رجلاً مستقيماً وخدوماً، حريصاً على التفاني في خدمة زبائنه، وعدم غشّهم، رغم أنّ ذلك النهج لم يكن حينئذ الأمثل للنجاح في التجارة. ربّما كان سيكون أنجح لو أنّه عمل موظّفاً

بسيطاً، ساعي بريد مثلاً أو رئيس محطة قطار ريفية. لكنّه لم يكن يملك لا الجسارة للاقتراض وتطوير تجارته، ولا الخيال ليوسّع شبكة زبائنه. ولعلّ الفكرة الأصيلة الوحيدة التي خطرت بباله هي تلك الخلطة المبتكرة لطيور الأقفاص (كانوا يسمونها «خلطة بولينغ»، اشتهرت على مدى دائرة شعاعها عشرة كيلومترات تقريباً)، والتي أوحى له بها العم إيزيكل. ذلك أن العمّ إيزيكل كان مولعاً بالعصافير، وكان يملك عدداً من طيور الحسون في دكانه المعتّم، ويرى أنّها تفقد لونها إن لم يكن طعامها متنوعاً بما فيه الكفاية. وقد كان أبي يملك قطعة أرض خلف المتجر يزرعها بعشرين نوعاً من الأعشاب تحت شبكة من الأسلاك، يعمد إلى تجفيفها وخلطها بحبوب الذرة البيضاء. وقد كان جاكي، طائر الدغناش المعلّق في واجهة المتجر، بمثابة إشهار لـ«خلطة بولينغ». ومن ثمّة فإنّه، بخلاف بقية طيور الدغناش في الأقفاص، لم يكن يفقد ألوانه أبداً.

منذ أن وعيت، كانت أمّي تبدو لي دائماً بدينة. وممّا لا شكّ فيه أنّني ورثت عنها هذا الميل إلى البدانة. كانت امرأة سمينة، أطول قليلاً من زوجها، بشعر أبهت من شعره، وولع بالفساتين السوداء. وباستثناء أيّام الآحاد، لا أذكر أنّي رأيتها ترتدي شيئاً آخر عدا الوزرة. ولا أظنّني أبالغ إذا قلت إنّني ما أذكرها إلّا وهي تطبخ. حين يعيد المرء النظر في ماضيه البعيد يبدو له الأشخاص كما لو أنّهم ثابتون في مكان محدّد، ودائمون على حال واحدة. ويخيّل إليه أنّهم يقومون بالأعمال نفسها. وبذلك فإن أبي يتراءى لي دائماً خلف المنضدة، بشعره المعفّر بالطحين، يضبط حساباته بواسطة قلم رصاص لم يبقَ منه إلّا العقب، يبلّله بين الفينة والأخرى، كما يتراءى لي العمّ إيزيكل بلحيته البيضاء، ينتصب ويضرب بيده وزرته

الجلدية، مثلما أتذكّر أمّي أمام طاولة المطبخ وقد شمّرت عن ساعديها، وهي تعجن الخبز.

لعلّكم تعرفون نوع المطابخ الذي كان يملكه الناس حينئذ. حجرة واسعة، واطئة ومعتّمة، تتوسّط سقفها عارضة كبيرة، ذات أرضية حجرية، يوجد أسفلها قبو. كلّ ذلك كان كبيراً، أو هكذا كان يبدو لي وأنا طفل. حوض حجري من دون صنبور، لكنّه مجهّز بمضخّة، وخزنة تغطّي أحد الجدران بالكامل حتى السقف، وموقد ضخم يستهلك نصف طنّ من الفحم الحجري في الشهر. أتذكّر أمي وهي تعجن كميّة كبيرة من العجين، بينما أزحف أنا على الأرض، ألعب بقطع الحطب والفحم المتناثرة، وكذا الفخاخ المنصوبة للصراصير (التي كانت منتشرة في كلّ مكان، وكانوا يأملون التخلّص منها بواسطة الجعة)، وبين الفينة والأخرى كنت أتوجّه إلى الطاولة باحثاً عن شيء آكله. وكانت أمّي تعلّق بأنّ الأكل لا يكون بين الوجبات، وكانت تردّد دائماً الشيء نفسه تقريباً: «انصرف من هنا! لا تفسد عشاءك، عيناك أكبر من بطنك»، لكنّها كانت أحياناً تعطيني قطعة صغيرة من الليمون المسكّر.

كنت أحبّ أن أنظر إلى أمّي وهي تخبز. ذلك أنّ النظر إلى شخص يتقن عمله أمر يستهويني. انظروا إلى امرأة -امرأة تتقن الطبخ حقّاً- وهي تعجن الخبز. تبدو متميّزة ورزينة، منهمكة فيما هي فيه، بادية الرضا ككاهنة تقوم بشعيرة مقدّسة. وقد كان لأمّي مرفقان حمراوان وقويان، معفران بالطحين في معظم الأوقات. عندما تطبخ، كانت كلّ حركاتها دقيقة وواثقة على نحو عجيب. فحين تخفق البيض أو تستعمل مِفرمة اللحم أو تعالج مِرقاق العجين، كلّ تلك الأدوات كانت طوع بنانها، تحرّكها كيفما تشاء. حين يراها

المرء هناك، يدرك أنّها في عالمها. عالَم لا يخفى فيه شيء عنها. وباستثناء ما كانت تقرؤه في بعض الجرائد الأسبوعية، أو بعض الدردشات القصيرة، لم يكن العالم الخارجي موجوداً بالنسبة إليها. ورغم أنّها كانت تقرأ أكثر من أبي -إذ كانت تُطالع فضلاً عن الجرائد، روايات رخيصة-، فإن جهلها بما يدور حولها لا يصدّق. وهو أمر تنبّهت إليه وأنا لم أجاوز العاشرة من عمري. لم تكن قادرة على أن تحدّد لك موقع إيرلندا بالنظر إلى إنجلترا، أتوجد في شرقها أم غربها. وأنا لست واثقاً من أنّها كانت تعرف اسم رئيس الوزراء عند اندلاع الحرب الكبرى. وهي فضلاً عن ذلك لم تكن ترغب في معرفة هذه الأمور. ولمّا قرأتُ في مرحلة لاحقة بعض الكتب عن تعدّد الزوجات في الشرق، وعن الحريم حيث تحبس النساء تحت حراسة الخصيان السود، كنت أقول في نفسي كم كانت ستندهش لو سمعت بهذه الأشياء. يكاد استنكارها يتردّد في أذني وهي تقول: «كيف يعقل هذا؟ يحبسون نساءهم هكذا؟! يا لها من فكرة غريبة!» لا لأنّها لا تعرف شيئاً عن معنى الخصي، بل لأنّ حياتها كانت محصورة في رقعة هي من الضيق بحيث لا تكاد تختلف عن رقعة الحريم. فحتّى داخل البيت، كانت ثمّة أماكن لا تطؤها قدمها قطّ. لم تكن تذهب أبداً إلى مخزن الحبوب الموجود خلف الساحة، كما أنّها لم تكن ترتاد المتجر إلّا نادراً. ولا أذكر أنّي رأيتها يوماً تخدم زبوناً. كما لا أظنّها كانت تعرف المكان المخصّص لكلِّ سلعة، بل لم تكن تستطيع حتّى التمييز بين القمح والشوفان قبل أن يطحنا. فلماذا كانت ستحشر أنفها في هذه الأمور إذاً؟ المتجر كان شأناً خاصّاً بأبي، أيّ أنه بالنسبة إليها «عمل الرجال». كما أنّها لم تكن تعير المسائل المتعلّقة بالمال أيّ اهتمام. فدورها يقتصر على «أعمال

النساء»، أيّ الاعتناء بشؤون البيت من طبخ وغسيل وعناية بالأطفال. وكانت ستستشيط غضباً لو أبصرت أحد الذكور يثبّت زرّاً على قميصه بنفسه.

أمّا أوقات الطعام فكنّا من تلك الفئة من الناس التي تضبطها بدقّة متناهية، كما تُضبط الآلات الموسيقيّة، لا وفق جهاز ضبط الإيقاع، وهو ما يوحي بشيء من الآلية، بل وفق نظام طبيعي. كان بإمكانك أن تعرف أنّ وجبة الفطور ستكون لا محالة جاهزة في صباح اليوم الموالي مثلما تعرف أنّ النهار يعقب الليل. طوال حياتها وأمّي تنام على الساعة التاسعة ليلاً وتستيقظ على الخامسة. كانت ترى أنّ التأخّر في النوم شيء مشين لا يليق إلّا بالأجانب والنبلاء. وهي إن كانت تسمح لكاتي سيمونس بأن تأخذني أنا وجو للنزهة، ما كانت لتقبل فكرة أن تساعدها امرأة أخرى في أشغال البيت. ولا يمكن أن يعدلها أحد عن هذه الفكرة. كانت ستجيب: الخادمات حين يكنسن يخفين الغبار دائماً تحت الخزنة. وكانت الوجبات تُقدّم في موعدها تماماً، بلا تقديم ولا تأخير. يقدّم فيها طعام وفير: لحم بقر مسلوق أو مشوي، رأس خنزير، لحم ضأن مسلوق، فطائر التفاح، البودينغ بالزبيب، حلويات محشوّة بالمربّى. ومثلما كانت هذه الوجبات تشرع بالصلاة، تختتم بها أيضاً. ورغم أنّ الأفكار القديمة حول تربية الأطفال كانت في طور الانقراض، كان الأطفال -نظرياً- ما زالوا يُضربون، ويُبعثون إلى السرير ليلاً من دون عشاء. وإذا هم شاغبوا خلال الأكل أو اختنقوا أو «رفضوا أكل ما ينفعهم» أو لم يمتثلوا للأوامر، يُطردون من المائدة. لكن رغم ذلك لم يكن الأطفال منضبطين كل الانضباط في البيت، وكانت أمّي دائماً هي الأكثر حزماً. أمّا أبي، فرغم ترديده: «إن غابت العصا، فسد

الأطفال»، كان أكثر تسامحاً معنا، ولا سيما مع جو رغم أنّه صعب المراس. وكان كثيراً ما يهُمّ بأن يوسعه ضرباً، ويحكي لنا عن الضرب المبرّح الذي كان يتلقاه من والده بواسطة حزام جلدي، وهو أمر أنا مقتنع اليوم بأنّه كان محض افتراء. على أنّ والدي لم يكن أبداً ينفّذ وعيده. وحين بلغ جو الثانية عشرة من عمره، صار أكبر من أن تقوى أمي على معاقبته. لم تعد تستطيع أن تمدّده على ركبتيها لكي تضربه على مؤخّرته، ومنذئذ، صار من الصعب ضبطه.

في ذلك العهد، كان لا يزال مألوفاً أن يقضي الآباء كلّ وقتهم يكرّرون على مسامع أبنائهم: «لا تفعل هذا! اترك ذاك!» كان من الشائع أن تسمع الرجل إذا ضبط ابنه يدخّن أو يسرق التفاح أو يخرّب يقول له: «سأضربك ضرباً مبرحاً». وفي بعض العائلات لم يكن الضرب مجرّد تهديد باللفظ. فمثلاً باغت العجوز السرّاج لوفغروف ابنيه، وهما فتيان طويلا القامة، أحدهما في السادسة عشرة من عمره والثاني في الخامسة عشرة، يدخّنان في كوخ الحديقة، فضربهما بقسوة ذاع صيتها في القرية قاطبة. على أنّ هذه العقوبات لم تُجدِ نفعاً فيما يظهر، لأنّ لوفغروف كان مدمناً على التدخين. وقد كان كلّ الأطفال يسرقون التفاح ويخرّبون الأعشاش، ويشرعون في التدخين عاجلاً أم آجلاً. لكنّ فكرة التعامل بقسوة مع الأطفال كانت لا تزال شائعة. والواقع أنّ كل ما كان مسلياً كان محظوراً، نظرياً على الأقل. ففي نظر أمّي، الأطفال لا تستهويهم إلّا الأمور «الخطيرة»: السباحة خطر، وتسلّق الأشجار خطر، وكذلك الشأن بالنسبة إلى التزحلق والتقاذف بكُرات الثلج والتعلّق بالعربات من الخلف واللعب بالمقلاع، بل حتّى صيد السمك خطر. وسائر الحيوانات كانت خطراً باستثناء نيلر والقطتين والعصفور

جاكي. وقد كانت لكلّ حيوان من هذه الحيوانات طريقته الخاصة في الهجوم: الخيل تعضك والخفافيش تعلق بشعرك، وأبو مقص يتسلل إلى أذنك وذكر الإوز يكسر ساقك بضربة من جناحه، والثيران تقذف بك في الهواء، والأفاعي تقرصك. كلّ الأفاعي تقرص في اعتقاد أمّي، ولمّا نبهتها إلى أنّ الأفاعي لا تقرص بل تلدغ حسب موسوعة الجيب، نهرتني، وأمرتني بأن أصمت. ليست الأفاعي وحدها التي تقرص بل السحالي والديدان والعلاجم والضفادع أيضاً. وكلّ الحشرات تقرص باستثناء الصراصير والذباب. علاوة على هذا، فكلّ ما يمكن أن يؤكل خارج البيت فهو إمّا مسموم وإمّا «يضرّ بصحتنا». البطاطس النيئة سمّ قاتل، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الفطر، إلّا إذا اشتُريَت من محلّ البقالة. وعنب الثعلب يسبّب المغص بينما يسبّب التوت البري البثور. أمّا السباحة بعد الأكل، فتصيب بتشنج العضلات، ومن ثمّة تسبّب الغرق، والإصابة بجرح بين الإبهام والسبابة يسبّب الكزّاز، وغسل اليدين بالماء الذي سلق فيه البيض يصيب بالثآليل. ومعظم ما يوجد في المتجر مسموم. ولهذا نصبت أمّي حاجزاً أمام بابه. فالكعك وقمح الدجاج وبذور الخردل والمواد المحفزة لنمو الدواجن كلّها سموم. وكانت الحلوى ضارّة، والأكل بين الوجبات ضارّ كذلك. لكن، وهو أمر غريب، كانت ثمّة استثناءات. فلما تطبخ أمّي مربّى البرقوق، كانت تسمح لنا بأكل الرغوة الحلوة، التي تعلو الإناء، إلى أن نشعر بالتخمة دون أن نمرض. ورغم أنّ كلّ ما يوجد في العالم إمّا خطير وإمّا مسموم، كانت لبعض الأشياء قدرة عجيبة. فالبصل النيئ علاج لكلّ شيء تقريباً، وربط جورب حول العنق يشفي تماماً من التهاب الحلق، ووضع الكبريت في الماء الذي

يشربه الكلب يجعله مقوّياً، وبذلك كان إناء نيلر يحتوي دائماً على قطعة منه لسنوات متواصلة.

كنا نتناول الشاي على الساعة السادسة. فقد كانت أمّي عادة ما تفرغ من أشغال البيت على الساعة الرابعة بعد الزوال، وبذلك تتناول فنجان شاي بهدوء بين الرابعة والسادسة، وتقرأ -كما كانت تقول- «جريدتها»، مع أنّها لم تكن تقرأ الجريدة إلّا نادراً، باستثناء يوم الأحد. فالجرائد اليومية لم تكن تنشر سوى أخبار اليوم، مع الاقتصار على خبر جريمة واحدة بين الفينة والأخرى. على أنّ رؤساء تحرير الجرائد تنبّهوا إلى أنّ الناس لا يعيرون جدّة الخبر في هذا المجال اهتماماً، وبذلك لم يكونوا يتوانون عند غياب جريمة جديدة في العودة إلى الجرائم القديمة، بل البالغة القدم مثل الدكتور بالمر والسيدة مانينغ. وأظنّ أمّي كانت تتصوّر العالم، خارج بينفيلد، على أنّه مسرح ترتكب فيه جرائم القتل. وقد كان هذا النوع من الجرائم يسحرها، فتتساءل -وهي ملاحظةٌ كثيراً ما عبّرت عنها- عن كيف يستطيع الناس إيتاء أعمال بهذه الشناعة: ضرب رقاب الزوجات ودفن الآباء تحت البلاطة ورمي الرضّع في الآبار! كيف يجرؤ الناس على فعل أشياء رهيبة كهذه؟!

لقد تزامن زواج والدي مع قضية السفّاح جاك، وهي قضية زرعت الرعب في النفوس، بحيث ترجع عادة إغلاق المصاريع الخشبية الثخينة المثبّتة خلف واجهة المتجر الزجاجية كلّ ليلة، إلى هذه الحقبة. لطالما ردّدت أمّي أنّ إحساساً كان يراودها باختباء جاك في بينفيلد العليا. بعد ذلك بسنوات -وكنت حينئذ شابّاً يافعاً- صُعِقتْ حين نشرت الجرائد قضية كريبن. ما زلت أذكر صوتها وهي تقول: «كيف استطاع أن يُقطّع أوصال زوجته ويدفنها في مخزن

الفحم بقبو المنزل؟! يا له من عمل شنيع! آه لو أمسكت بهذا الرجل، لا أعرف ماذا سأفعل به!» وحين كانت تتذكّر قساوة هذا الطبيب الأميركي الضئيل الذي قطّع جثة زوجته (وإذا لم تخنّي الذاكرة، فصل لحمها عن عظامها، ثم تخلّص من الرأس في البحر)، تفيض عيناها بالدموع أحياناً.

خلال الأسبوع، كانت تقرأ في الغالب جريدة **هيلداس هوم كومبانيون**، وهي صحيفة كانت تقرؤها ربات الأسر كأسرتنا كثيراً في تلك الفترة، ولا تزال تصدر إلى اليوم، رغم أنّها تراجعت بالنظر إلى جرائد نسائية أخرى أكثر حداثة ظهرت بعد الحرب. وقد ألقيت نظرة مؤخّراً على أعدادها الأخيرة فلاحظت أنّها لم تعد كما كانت، لكن التغيير الذي طالها ليس كبيراً مقارنة بالتغيُّر الذي مسّ معظم الأشياء الأخرى. فهي ما زالت تنشر المسلسلات الطويلة نفسها (التي تدوم ستة أشهر تقريباً، والتي تُسوّى فيها كلّ المشاكل في النهاية، وتُقدّم الوعود بالزواج) ونصائح تدبير البيوت نفسها وإشهارات آلات الخياطة نفسها ووصفات علاج الدوالي الوريدية. ما تغيّر فيها هي الصور وأسلوب الطباعة بالخصوص. في ذلك العهد، كان يشترط في البطلة أن تكون ضامرة الخصر، واسعة الصدر والردفين. أمّا اليوم فينبغي أن يكون قدّها أشبه بالأسطوانة. وقد كانت أمّي تقرأ ببطء، وتصرّ على أن تأتي على صفحات الجريدة بكاملها حتّى لا تشعر بأنّها ضيّعت القروش الثلاثة التي دفعتها مقابلها. كانت تتقدّم في القراءة من الصفحة الأولى إلى الأخيرة وهي جالسة على المقعد الأصفر القديم بقرب المدفأة، واضعة قدميها على سياجها، وبقربها برّاد الشاي الصغير. تقرأ المسلسل والقصتين القصيرتين والنصائح العملية والإعلانات وبريد القرّاء. كان ذلك يستغرق أسبوعاً في

الغالب، وإن كانت لا تتمكّن في بعض الأسابيع من قراءة جميع الصفحات. فقد كانت تغفو أحياناً بسبب حرارة المدفأة في الشتاء، أو حرارة الجوّ في الصيف مع طنين الذباب. لكنّها تستيقظ مذعورة عند السادسة إلّا ربع، وتلقي نظرة على ساعة المدفأة فينتابها القلق من ألّا تتمكن من إعداد الشاي في موعده، وهو ما لم يحدث قط.

في ذلك العهد -أي إلى سنة 1909 على وجه التحديد- كان لا يزال بإمكان والدي أن يشغّل صبياً يساعده في المتجر. كان يتركه هناك ويأتي إلى البيت ليتناول الشاي ويداه معفرتان بالطحين. وبينما تكون أمي تقطع الخبز، تتوقف لحظة وتقول له: «هلا تلوْتَ صلاة الشكر!» نخفض رؤوسنا بمهابة، ويشرع أبي في ترديد: «نشكرك يا إلهي أن وهبتنا هذا الطعام، آمين». ولمّا كبر جو لاحقاً، أخذت أمي تطلب منه أحيانا أن يتلو الصلاة. «أنت من ستتلو صلاة الشكر اليوم يا جو»، فيمتثل لطلبها. أما هي فلم تكن تتلو هذه الصلاة أبداً: ينبغي أن يردّدها رجل.

كان ثمة دائماً ذباب أزرق يطنُّ بعد ظهر أيام الصيف الحارة. ذلك أن بيتنا كانت تنقصه النظافة مثل معظم بيوت بينفيلد. فمن بين خمسمئة منزل تقريباً، لم تكن المنازل المتوفرة على حمّام تتعدّى العشرة، بينما لا يتعدّى عدد المنازل المجهزة بمّا يسمّى اليوم مرحاضاً الخمسين. وخلال الصيف، كان فناء منزلنا يفوح دائماً بروائح القمامة. ومثل كل المنازل، كان يعجُّ بالحشرات. تجدُ الصراصير في الأثاث الخشبي وخلف موقد المطبخ، هذا دون ذكر السوس الذي يأهل المتجر. في تلك الفترة، حتى ربات البيوت الحاذقات مثل أمي لم يكن يستفظعن وجود الصراصير. كانت جزءاً من المطبخ، شأنها في ذلك شأن الخزنة أو مرقاق العجين. على أن

الحشرات لم تكن نفسها في كل البيوت. فالمنازل البئيسة الموجودة خلف معمل الجعة، هناك حيث تسكن كاتي سيمونس، تعجُّ بالبق. لو عثرت أمي على هذه الحشرة في بيتنا لماتت من الخزي، شأنها في ذلك شأن زوجة أي تاجر. لذلك تلزم الإشارة إلى أننا لم نكن قادرين على تمييز بقة لو رأيناها.

لم يكن الذباب الكبير الأزرق يتوانى عن التسلُّل إلى حجرة المؤن، والتعلُّق بأسلاك أغطية اللحم. وكان الناس يردّدون: «يا لقذارة هذا الذباب!» على أنهم كانوا يعتبرونه بلاء من الطبيعة لا سبيل لمقاومته إلّا بتغطية اللحم، واستعمال الورق المخصّص لقتله.

قلت سابقاً إن أول رائحة أذكرها هي رائحة العنبريس. على أن رائحة القمامة تعدّ أيضاً من أولى ذكرياتي. لمّا أتذكر مطبخ أمي، ببلاطته وموقده المسودّ، ومصائد صراصيره، يتهيّأ لي دائماً أنني أسمع طنين الذباب الأزرق، وأشمُّ رائحة القمامة والكلاب القوية المنبعثة من نيلر.

الله يعلم أن هناك روائح وأصوات أسوأ من تلك بكثير. ماذا تفضّلون: سماع طنين ذبابة زرقاء أم هدير طائرة مقنبلة؟

3

التحق جو بثانوية والتون قبلي بسنتَين. لم يسبق لنا أن رأيناها قبل إتمام سنتنا التاسعة. وكان علينا أن نقطع الكيلومترات الستة التي تفصلها عن البيت بواسطة الدراجة صباح مساء، وهو ما كان يقلق أمي علينا، لا سيما أن السيارات الأولى بدأت تظهر في ذلك العهد.

ارتدنا لسنوات المدرسة التي كانت تديرها عجوز تدعى السيدة هاوليت. وهي المدرسة التي كان يرتادها معظم أبناء التجّار، ممّا كان يوفّر عليهم خزي وحقارة المدرسة الداخلية رغم إجماع كل الناس على أن السيدة هاوليت محتالة، وتعليمها رديء. كانت امرأة تتجاوز السبعين من العمر، صماء وبالكاد تبصر من خلال نظارتها. أما أثاث مدرستها فلم يكن يتجاوز عصاً ولوحاً أسود وبضعة كتب بالية ودزينتين من ألواح الأردواز القذرة. وهي إن كانت تتمكن من ضبط التلميذات، فإن التلاميذ كانوا يسخرون منها علانية، ويتغيّبون عن الدروس كما يحلو لهم. وقد حدثت ذات مرة فضيحة رهيبة لأن أحد التلاميذ حشر يده تحت تنورة إحدى الفتيات، وهو أمر لم أفهم منه شيئاً حينئذ. على أن الأم هاوليت نجحت في طمس القضية. وحين كان التلاميذ يتجاوزون الحدود، تهددهم قائلة: «سأخبر والدك»، لكنها نادراً ما كانت تنفّذ تهديدها. على أننا كنا من المكر

بحيث أدركنا أنها لا تجرؤ على ذلك. وحين كانت تحاول معاقبتنا بعصاها، تمنعها الشيخوخة والخرق، بحيث كان يسهل تفادي ضرباتها.

لم يكن سنّ جو يتجاوز الثامنة لمّا انضم إلى عصابة من أولاد أشقياء أطلقوا على أنفسهم اسم اليد السوداء. كان يترأسهم سيد لوفغروف، أصغر أبناء صانع السروج، والذي كان في الثالثة عشرة من عمره. كانت العصابة تضمُّ أيضاً ولدين من أبناء أصحاب المتاجر، وفتى يعمل في معمل الجعة، وولدين يعملان في الضيعات، كانا يتسللان من العمل أحياناً لساعة أو ساعتَين يقضيانها مع باقي الأولاد. وقد كانا عظيمَي الجثة بحيث تتمزّق سراويلهما المخملية من فرط ضخامتهما. وقد كان الأولاد يزدرونهما بسبب لكنتهما الريفية، لكنهم كانوا يقبلونهما بينهم، لأن معرفتهما بالحيوانات كانت ضعف ما نعرف نحن. وقد كان أحدهما -ولقّبناه روكان- قادراً على اصطياد أرانب باستعمال يديه فقط. حين كان يرى أحدها جاثماً على العشب، ينقضّ عليه انقضاض النسر.

من الناحية الاجتماعية، كان ثمّة خندق يفصل بين أبناء أصحاب المتاجر وأبناء العمال وشغّيلي المزارع. لكن أطفال الضاحية لم يكونوا يعيرون ذلك اهتماماً قبل بلوغ سنّ السادسة عشرة تقريباً. وكانت للعصابة كلمة سرّ لا يطّلع عليها العضو الجديد إلّا بعد أن يجتاز «اختباراً»، من قبيل جرح أحد أصابعه أو ابتلاع دودة بينما يتبادل الأعضاء الآخرون النظرات على طريقة عتاة المجرمين. ولا مناص من الاعتراف بأنهم تمكنوا من إقلاق راحة الناس لفترة، إذ كانوا يكسرون النوافذ ويطاردون البقر وينزعون مدقّات الأبواب ويختلسون كمّيات لا يستهان بها من الفواكه. وفي فصل الشتاء،

حين يأذن لهم المزارعون بذلك، يستعيرون نمسَين يصطادون بهما الجرذان. كانوا كلهم يملكون مقاليع، ويدّخرون كل ما يقع بين أيديهم من مال لشراء مسدس رعاة بقر كان يباع حينئذ بخمسة شلنات. لكنهم لم يكونوا ينجحون في جمع نصف عُشر ذلك المبلغ. وخلال الصيف كانوا يخرّبون أعشاش الطيور، ويصطادون السمك. ولمّا كان جو ما زال يتابع دراسته لدى السيدة هاوليت، أخذ يتغيّب عن الدروس مرة في الأسبوع على الأقل، ثم لمّا انتقل إلى الثانوية لاحقاً، صار يتدبّر أمره لكي يتغيّب مرة كل أسبوعين. وقد كان في المدرسة ولد -هو ابن أحد الدلالين- قادر على محاكاة الخط كيفما كان. ومقابل قرش، يحرِّر لك رسالة من أمك تشهد فيها بأنك كنت مريضاً في اليوم السابق. وبطبيعة الحال كنت أتحرّق شوقاً للانتماء إلى عصابة اليد السوداء. لكنّ جو كان يصرفني قائلاً إنهم ليسوا بحاجة إلى صبي صغير مثلي يعلَقُ بأقدامهم.

ما كان يستهويني أكثر هي فكرة صيد السمك. إلى حدود الثامنة من عمري، لم أصطد إلّا بشبكة رخيصة لا تصلح إلّا لصيد أبي شوكة من حين إلى آخر. وقد كانت أمي تخشى علينا من الماء، و«تمنعنا» من الذهاب للصيد، شأنها في ذلك شأن كل الآباء في ذلك العهد الذين كانوا يمنعون أبناءهم من كل شيء تقريباً. ولم أكن قد أدركت بعد حينذاك بأن الراشدين لا يستطيعون مراقبة كل شيء. لكنني لم أكن قادراً على مقاومة الرغبة في الصيد. كثيراً ما كنت أتوقف عند بركة ضيعة الطاحونة لكي أتأمّل صغار سمك الشبوط وهي تتشمس. وأحياناً أرى سمكة شبوط تظهر على سطح الماء في أحد أركان البركة، تحت شجرة الحور، تلقّم حشرة ثم تختفي في الأعماق. كانت تبدو لي سمكة ضخمة، بطول خمسة عشر سنتيمتراً

تقريباً. وكنت أقضي الساعات مُلصِقاً وجهي بواجهة متجر والاس الواقع في الشارع الرئيس، والمتخصِّص في بيع لوازم صيد السمك وبنادق القنص والدراجات الهوائية.

في صباحات الصيف، كنت أبقى مستلقياً في سريري فاتحاً عيني أفكّر في قصص الصيد التي حكاها لي جو: إعداد الطعم، قطعة الفلين التي تطفو على سطح الماء قبل أن تغوص، القصبة التي تنثني والسمكة التي تسحب الخيط. ولكن كيف السبيل لوصف ذلك البريق الخرافي الذي تضفيه عينا طفل على السمكة ومعدات الصيد؟ فهذه ليست أشياء تقبل التفسير وتخضع لسلطان العقل، بل هي بكل بساطة أمور أدْخَل في باب السحر. وفي صباح أحد أيام يونيو -وكنت حينئذ في الثامنة من عمري على الأرجح- علمت أن جو سيتغيّب عن الدراسة ليذهب إلى الصيد، فقرّرت أن أتعقّبه دون أن يشعر بي. ولا بدّ أنه خمّن ما كان يجول برأسي، فحذّرني قائلاً:

«اسمع أيها المغفل، إياك أن تفكر في الذهاب مع العصابة! من صالحك أن تلزم البيت».

«لم يخطر لي هذا على بال. لم يخطر لي بتاتاً».

«بلى خطر لك. فكرت في مرافقة العصابة».

«كلا».

«بلى».

«كلا».

«بلى، الزم البيت. لا نريد أن نرهق أنفسنا بصبي لعين مثلك».

في هذه الفترة كان جو قد اكتشف كلمة «لعين»، وبذلك كانت تجري على لسانه في كل حين حتى أن أبي سمعه يردّدها مرة، فأقسم

إن سمعه يكرّرها سيوسعه ضرباً، لكنه لم يفِ بقسمه كالعادة. هكذا بعدما تناول جو وجبة الفطور، حمل محفظته وركب دراجته وانطلق إلى الثانوية خمس دقائق قبل المعتاد، كديدنه كلّما عزم على التغيُّب عن الدروس. ولمّا حان موعد ذهابي إلى مدرسة الأم هاوليت، تسلّلتُ دون أن يشعر بي أحد، واختبأت في الممر الضيّق خلف التجزئة السكنية. كنت أعرف أن العصابة ستذهب لا محالة إلى بركة ضيعة الطاحونة، وصممت على تعقّبهم، حتى لو كلفني ذلك حياتي. قد يوسعونني ضرباً، وربما تخلّفت عن الغداء بحيث تتفطن أمي إلى أنني تغيّبت عن المدرسة، فيكون مصيري الجلد من جديد، إلّا أن كل ذلك لا يهم. المهم بالنسبة إلي هو أن أذهب مع العصابة للصيد. ولم تكن الحيلة تعوزني. تركت لجو ما يكفي من الوقت لكي يقوم بجولة كبيرة قبل أن يتوجّه إلى بركة الطاحونة. أما أنا، فسلكت الممر الضيّق، ومشيت بمحاذاة المروج قرب الجانب الآخر من الدغل بحيث أصل إلى البركة دون أن يراني أحد من أفراد العصابة. كان صباحاً رائعاً من صباحات يونيو. نبات الحوذان يبلغ ركبتي، والنسيم عليل بحيث أنه بالكاد يحرك قمم أشجار الدردار الشامخة، بينما تبدو أوراقها كسحب خضراء ناعمة.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، وكنت في الثامنة من عمري، ومن حولي ينشر الصيف الفتي محاسنه. الشجيرات الشائكة المتشابكة تتخلّلها الزهور البرية، والسماء تعبرها غيوم باهتة، وفي البعيد ترتسم خطوط التلال وخضرة غابة بينفيلد العليا الداكنة. على أن كل ذلك لم يكن يعنيني في شيء. ما كان يشغل بالي هي البركة الخضراء وأسماك الشبوط والعصابة بصناراتها وخيوطها وطُعومها. كانوا في الجنة، وينبغي أن ألحق بهم مهما كلفني ذلك. وانتهى بي

الأمر أن تسللت بينهم. كانوا أربعة أولاد: جو، سيد لوفغروف، صبي المحل وابن تاجر آخر يدعى هاري بامز فيما أظن.

التفت جو فلمحني وقال:

«يا إلهي، ماذا يفعل هذا الصبي هنا؟».

وتقدم نحوي بمشية هرّ مصمّم على القتال.

«جئت إذاً! ماذا قلت لك؟ اسمع، عد إلى البيت بسرعة!».

فتراجعت وأنا أقول:

«لن أعود إلى البيت».

«ستعود، قلت لك!».

فقال سيد:

«عالجه بلطمة يا جو. لسنا بحاجة إلى صبيان هنا».

فقال جو:

«ألن تعود؟».

«كلا».

«حسناً يا صغيري، حسناً».

انطلق في إثري ليمسك بي ويوسعني ضرباً، لكنني كنت قد عقدت العزم على ألّا أبتعد عن البركة مهما كان، فرحت أركض حولها. أمسك بي في الأخير وأسقطني أرضاً، وشلّ حركة يدَي بركبتيه، وجعل يلوي أذني كعادته حين يريد معاقبتي. لم أستحمل تعذيبه، فشرعت أنتحب دون أن تلين قناتي. كلا، لن أعود إلى البيت. أريد أن أبقى وأصطاد مع العصابة. وما هي إلّا برهة حتى غيّر الآخرون رأيهم فجأة، ومضوا يدافعون عنّي، طالبين من جو أن يدعني وشأني، ويتركني أصطاد إن أردت. وهكذا بقيت معهم في نهاية المطاف.

كانوا يتوفرون على صنارات وخيوط وقطع فلين طافية وقطعة خبز ضخمة ملفوفة في خرقة. قطعنا أغصاناً من أشجار الصفصاف الموجودة في إحدى زوايا البركة، وصنعنا منها عصي صيد. كانت الضيعة تبعد حول مئتي متر، وكان علينا أن نختبئ لأن العجوز بروير لا يمزح رغم أن الأمر لم يكن يؤذيه في شيء. فهو لم يكن يستعمل البركة إلّا في سقاية دوابه، إلّا أنه لا يطيق رؤيتنا هناك. وقد استمرت نقمة أعضاء العصابة عليّ، إذ لم يتوقفوا عن تحذيري من الخروج إلى الضوء، وتذكيري بأنني مجرد صبي صغير لا يفهم شيئاً في الصيد. وقالوا إن ما أحدثه من ضجة يفزع الأسماك ويبعدها، مع أنني كنت في الواقع أحرصهم جميعاً على الهدوء. وفي الأخير منعوني من الجلوس معهم، وصرفوني إلى جانب من البركة ماؤه ضحل، وظله قليل بدعوى أن طفلاً صغيراً مثلي سيرشّ الماء لا محالة فيخيف الأسماك. كان المكان الذي صرفوني إليه متعفّناً، لا يأتيه السمك أبداً. كنت واثقاً من ذلك، كما لو أنّ إحساساً غريزياً يدلّني على الأماكن التي يوجد بها السمك. على أنّي مكثت هناك مع ذلك، ورحت أصطاد. جلست على العشب الموجود في جانب البركة والقصبة بين يدي، أنصت لطنين الذباب، ورائحة النعناع البري تفغم أنفي، وعيناي على العوامة الحمراء العائمة فوق الماء الأخضر، تتملكني فرحة عارمة رغم آثار الدموع والوحل الذي لطّخ وجهي.

الله وحده يعلم كم مكثنا على هذه الحال. بدا الصباح طويلاً لا نهاية له، والشمس تتحرّك باتجاه كبد السماء دون أن تقرب سمكة الطعم. وقد كان اليوم حارّاً لا ريح فيه، جوّ من الصفاء بحيث لا يناسب الصيد. وظلت قطع الفلين ثابتة لا تتحرك فوق

صفحة الماء الشبيهة بمرآة خضراء غامقة. وكان بالإمكان رؤية الأسماك في وسط البركة بالقرب من السطح تتشمس، وبين الفينة والأخرى يتسلل سمندل إلى الضفة من بين الطحالب ليسترخي، واضعاً أرجله على العشب، وأنفه بالكاد يخرج من الماء. لكن السمك كان لا يزال لا يقرب الطعم بعد. ورغم أن بعض أفراد العصابة كانوا يصرخون بين الفينة والأخرى مدّعين أن السمك لامس صناراتهم، فإن ذلك لم يكن صحيحاً. طال الانتظار، ومعه بدا الوقت أطول. وزادت الحرارة ارتفاعاً، ومضى الذباب ينهشنا نهشاً، وذكرنا عبق النعناع البري النابت عند الضفة بمتجر الأم ويلر. وأخذ الجوع يشتدّ بي أكثر فأكثر، وزاد من ألمه أنني لم أكن أعلم أين ولا متى سأتناول وجبة الغداء. لكنني مع ذلك مكثت هناك ثابتاً في مكاني أراقب العوامة. كانوا قد أعطوني قطعة طُعم في حجم كريّة زاعمين بأنها تكفيني. وقد مكثت فترة بدت لي لا نهاية لها دون أن أجرؤ على تفحّص طعم صنارتي لتجديده، لأنني كلما رفعت الصنارة، صرخوا في وجهي بأنني أحدث ضجة تفزع السمك على مدار كيلومترات.

كنا قد مكثنا على تلك الحال ساعتين تقريباً عندما اهتزَّت عوامتي فجأة. إنها سمكة! لا بدّ أنها سمكة شاردة أبصرت طعمي. لا يمكن أن تخفى على المرء حركة العوامة عندما تلامسها سمكة. لا صلة لهذا بما يحدث حين تحرّك قصبتك عن غير قصد. وما هي إلّا هنيهة حتى اختلجت العوامة بعنف وكادت تغطس، حينئذ لم أتمالك نفسي من الصراخ:

«سمكة!».

فردّ سيد لوفغروف على الفور:

«كفاك ادّعاء، إنها الجرذان!».

لكن بعد لحظة، لم يعد يراودني شكّ. فقد غطست العوامة تماماً، وإن كنت لا أزال أستطيع تمييزها تحت الماء، عبارة عن كتلة حمراء داكنة. وشعرت بالقصبة تتصلب بين يدي. يا له من شعور يا إلهي! الخيط يُسحب بعنف وينشدّ، في طرفه الآخر سمكة! وما إن رأى الأولاد ذلك حتى تركوا قصباتهم وهرعوا إليّ. انثنت صنارتي، فسحبتها بكل ما أوتيت بقوة، وإذا بسمكة ضخمة فضية اللون تطير في الهواء، فصرخنا جميعاً في الوقت نفسه مرعوبين. أفلتت السمكة من شصّ الصنارة وهوت فوق النعناع البري على جانب الضفة. على أن الماء الذي سقطت فيه لم يكن عميقاً، وبذلك لم تستطع أن تنقلب، وظلت لثانية على الأرجح مستلقية على جانبها، غير قادرة على الهرب. ألقى جو بنفسه في البركة، بحيث تطاير الماء، وبلّلنا من الرأس إلى القدمين، وأمسك بها بكلتا يديه وهو يصيح: «أمسكتها!» ثم رماها على العشب، فتحلقنا حولها وقد جثونا على ركبنا. كم كانت فرحتنا كبيرة! كانت السمكة المسكينة تحتضر وهي تضرب الأرض بذيلها، وحراشفها تلمع بألوان قوس قزح. كانت سمكة شبوط ضخمة، بطول عشرين سنتيمتراً على الأقل، ووزن يناهز مئة غرام. وبينما كنا نهلل من العجب، إذا بظلٍّ يخيّم على رؤوسنا، رفعنا أعيننا، فإذا بالعجوز بروير فوقنا بحذائه الجلديّ الطويل، وقبّعته المستديرة، وبيده هراوة غليظة.

انكمشنا على أنفسنا وتضاءلنا كفراخ حجل لمحت نسراً يحلّق فوقها. راح ينظر إلينا واحداً واحداً. كان له فم مُربع أدرد. ومنذ أن حلق لحيته، صار ذقنه أشبه بكسّارة بندق. بادرنا قائلاً: «ماذا تفعلون هنا يا صبية؟».

لم تكن ثمة ذرة شكّ فيما كنا نفعله، لذلك لم يجب أحد. وفجأة راح يصرخ:

«سأريكم عواقب الصيد في بركتي!».

ومضى يهوي بعصاه يمنة ويسرة من دون تمييز.

تفرّقت اليد السوداء، ولاذ الأولاد بالفرار تاركين صناراتهم والسمكة. وجرى العجوز بوير في إثرنا إلى منتصف المرج. كانت رجلاه متصلبتان بحيث لم يكن يقوى على الجري السريع، لكنه سدّد لنا بعض الضربات قبل أن نصبح خارج متناوله. تركناه وسط المرج يصرخ بأنه يعرفنا جميعاً بأسمائنا، وأنه سيشكونا إلى آبائنا. وبما أنني لم أكن في مثل سرعتهم، تلقّيت معظم الضربات. ولمّا بلغت الجانب الآخر من السياج، تنبّهت إلى أن ربلتَي ساقَيّ تعلوهما بقع حمراء.

قضيت بقية ذلك اليوم مع العصابة. لم يكونوا قد قرّروا بعد ما إذا كنت أنتمي حقاً إلى اليد السوداء، لكنهم إلى حدود تلك اللحظة لم يعترضوا على وجودي. كان على صبي معمل الجعة، الذي حصل على ترخيص بالتغيُّب ذلك الصباح بذريعة من الذرائع، أن يعود إلى العمل، بينما رحنا نحن نتسكع على غير هدى كدأب الأطفال حين يتغيّبون عن البيت لنهار كامل، من دون إذن ذويهم بطبيعة الحال. كانت هذه أول خرجة لي مع الفتيان، وهي تختلف تماماً عن النزهات التي كنا نقوم بها مع كاتي سيمونس. سدّدنا الرمق عند مدخل القرية في حفرة مليئة بعلب تصبير صدئة ونبات الشمر البري. أعطوني شيئاً من طعامهم. وبما أن سيد لوفغروف كان يملك قرشاً، انطلق أحدهم لشراء زجاجة صودا اقتسمناها فيما بيننا. كان الجو بالغ الحرارة، وجعلنا نتجشأ بسبب رائحة نبات الشمر القوية

والمشروب الغازي. بعد ذلك انطلقنا بخمول في الطريق المترب الأبيض نحو بينفيلد العليا -ولعلّها المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى هناك- إلى أن بلغنا غابة الزان. دخلنا بين جذوع الأشجار الملساء الطويلة التي تبدو الطيور الواقفة على قممها كنقط سوداء صغيرة من فرط طولها. ومشينا على الأوراق الميّتة الشبيهة بالسجاد. كان لا يزال بإمكان المرء في ذلك العهد أن يذهب إلى الغابة كما يشاء. وكان بينفيلد هاوس أو «القصر» مغلقاً، ولم تعد الغابة المحيطة به محمية لطيور التدرج. وأسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن نصادف سائق عربة يحمل الحطب. عثرنا على شجرة مقطوعة تشبه دائرة جذعها الدريئة، فرحنا نتمرّن فيها على التصويب بالحجر. بعد ذلك رمى الكبار الطيور بمقاليعهم، وأقسم سيد لوفغروف بأنه أصاب طائر حسون، لكنه ظلَّ عالقاً بين الأغصان. فقال جو إنه كاذب، وتلاجّا بسبب ذلك، بل كادا يتعاركان. بعد ذلك نزلنا إلى كهف كلسي تتكدس في قعره طبقات من أوراق الشجر الميتة، ورحنا نصرخ لكي نسمع صدى أصواتنا. هتف أحدهم بكلمة بذيئة، فتبعه الآخرون يصيحون بكل الكلمات البذيئة التي يعرفون، ومضوا يسخرون منّي لأنّني لا أعرف إلّا ثلاث كلمات. وقال سيد لوفغروف إنه يعرف كيف يولد الأطفال. يولدون تماماً كما تولد الأرانب، عدا أن الطفل يخرج من سُرّة المرأة. وشرع هاري بيرنز ينقش كلمة بذيئة على جذع شجرة، لكنه ما كاد يكتب حرفين حتى أعرض عن ذلك. بعدئذ قصدنا كوخ «القصر». يقال إن بركة مليئة بأسماك ضخمة توجد في مكان ما في الحديقة، لكن لا أحد حاول التثبّت من الأمر بسبب الحارس العجوز هودجز الذي يطارد الأطفال مثلنا. لما مررنا به، وجدناه ينكش بستانه، فأخذنا نشاكسه من خلف السياج إلى أن نفد

صبره وانطلق في مطاردتنا. توجّهنا إثر ذلك نحو والتون، ومضينا نهزأ بسائقي العربات ونحن خلف السياج في مأمن من سياطهم. كان ثمة مقلع قديم تحوّل إلى مطرح نفايات ينبت فيه الآن العلّيق وتتكدّس به علب المصبّرات الصدئة وأوعية المطبخ المثقوبة وحطام القناني الزجاجية وإطارات الدرّاجات الهوائية، كلّ ذلك مكسوّ بالأعشاب البرّية. قضينا هنالك ما يقارب الساعة ننبش عن الأوتاد الحديدية حتّى اتسخنا من رؤوسنا إلى أقدامنا. ذلك أن هاري بارنز أقسم بأن حداد بينفيلد يدفع ست شلنات مقابل نصف قنطار من خردة الحديد. ثم عثر جو بين شجيرات العليق على عشّ طائر سمنة به فراخ بالكاد بدأ ريشها ينبت. وبعد جدال طويل حول ما سنفعله بها، أخرجناها، ورحنا نقذفها بالحجارة، ثمّ داس كلّ منّا واحداً. كان موعد الشاي قد اقترب، وكنّا نعلم أنّ العجوز بروير سيفي بوعيده، ويبلّغ عنا، ومن ثمّة فإنّ عقاباً مبرحاً ينتظرنا. كان الجوع قد أخذ منّا مأخذه، ولم نعد قادرين على البقاء في الخارج. وفي الأخير انطلقنا عائدين إلى البيوت. في الطريق أثرنا علينا من جديد حفيظة رئيس محطة القطار، العجوز بينيت. ذلك أنّنا عند مرورنا أمام قطعة الأرض التي يحرثها، لمحنا أرنباً فطاردناه بالعصي. وبينما نحن كذلك طلع علينا العجوز وقد استشاط غضباً لأنّنا دسنا ما زرع من بصل، وبدّدنا ما أنفق فيه من أوقات فراغه.

كنت قد مشيت خمسة عشر كيلومتراً دون أن أشعر بالتعب. تبعت العصابة طوال اليوم، حريصاً على فعل ما يفعلون. ورغم أنهم عاملوني بغطرسة، وظلوا ينادونني بـ«الصبي»، تحمّلت. غمرني شعور بالنصر، شعور لا يمكن أن تعرفوه إن لم تحسوا به حقيقة. لكن إن كنتم رجالاً، فلا بدّ أنكم آنستموه في لحظة من لحظات

حياتكم. لم أعد «صبياً»، بل صرت يافعاً بكل ما للكلمة من معنى. إنه لشيء رائع أن تصبح يافعاً، وأن تستطيع التسكّع في أمكنة لا يملك فيها الكبار أي فرصة للقبض عليك، وأن تصطاد الجرذان وتقتل العصافير، وتقذف بالحجارة، وتسخر من سائقي العربات وتتلفظ بالألفاظ البذيئة. إنك تشعر بانتشاء قوي حين تحس بأنك تعرف كل شيء ولا شيء يخيفك، وأنك قادر على خرق القواعد وقتل هذا وذاك. إن الطرق المتربة البيضاء والعرق الذي يبلّل ملابسك ورائحة نبات الشمر والنعناع البري والألفاظ البذيئة ورائحة مطرح النفايات النفاذة، وطعم المشروب الغازي والتجشؤ، والفراخ التي تداس والسمك الذي يسحب بخيط الصنارة. أحمد الله على أنني رجل، لأن المرأة لا يمكن أن تجرّب هذه الأشياء أبداً.

وكما كان منتظراً، طاف العجوز بروير على الآباء. أخبرهم بكل شيء. ذهب أبي وهو متجهّم إلى المتجر ليحضر سوطاً من الجلد وقال لجو إنه سيضربه «بقسوة»، لكن جو قاوم وصرخ وضرب بقدميه، فخرج منها سالماً من دون كبير أذى. لكن في اليوم الموالي، جلده مدير المدرسة أما أنا فحاولت المقاومة، لكنني كنت لا أزال صغيراً بحيث تمكّنت أمي من تثبيتي على ركبتيها، وأوسعتني ضرباً. كانت تلك هي المرة الثالثة التي أتعرّض فيها للضرب ذلك اليوم بعد عقاب جو وضربات العجوز بروير.

في اليوم الموالي أصدر أعضاء اليد السوداء قراراً يقضي بأنّ عليّ أن أجتاز «طقس العبور» (وهي عبارة عثروا عليها في إحدى حكايات الهنود الحمر) لكي أكتسب العضوية في العصابة. اشترطوا أن أعض دودة قبل بلعها. وبما أنني كنت الوحيد الذي اصطدت سمكة رغم صغر سني، قدّروا أنّها بالغة الصغر، ولا يعتدّ بها. وإذا

كان السمك يميل إلى أن يصبح أكبر فأكبر في حكايات الصيادين، فإن سمكتي تميل إلى أن تصير أصغر فأصغر في أحاديثهم، بحيث يخال السامع أنني اصطدت فرخاً من فراخها.

لكن ذلك لم ينل منّي. فالمهمّ بالنسبة إليّ أنّني اصطدت، ورأيت العوامة تغطس تحت الماء، وشعرت بالسمكة تسحب الصنارة. ومهما كذبوا، لن يستطيعوا أن يأخذوها منّي.

مكتبة
t.me/t_pdf

4

خلال السنوات السبع اللاحقة، أيّ منذ أن كنت في الثامنة إلى أن أتممت الخامسة عشرة، معظم ما رسخ في ذاكرتي من ذكريات يدور حول صيد السمك.

لا تتوهّموا أنّني لم أكن أفعل شيئاً عدا ذلك. كلّ ما في الأمر أنّ الذاكرة حين تعود بك إلى الوراء لتستحضر فترة طويلة من الزمن، تكتسي بعض الأشياء أهميّة إلى حدّ أنّها تكاد تحجب ما سواها. انتقلت من مدرسة الأمّ هاوليت إلى المدرسة الثانوية، متأبّطاً حقيبة جلدية، ومعتمّاً بقبعة سوداء مخطّطة بالأصفر. وحصلت على درّاجتي الأولى، وكانت ذات عجلة ثابتة، لأنّ ذوات العجلات المتحرّكة كانت أغلى. وبعدها بمدّة غير قصيرة حصلت على سروالي الطويل الأوّل. كنّا نضع أرجلنا على مقدّمة الدراجة حين ننزل الأماكن المنحدرة، فتتحرّك الدوّاسات وتدور. وقد كان هذا المشهد من المشاهد المميّزة للسنوات الأولى من القرن: ولد ينزل منحدراً وقد مال برأسه إلى الخلف وقدماه مرفوعتان في الهواء.

التحقت بالثانوية مثقلاً بالهواجس بسبب ما حكاه لي جو من قصص مريعة عن المدير ذي المظهر المرعب، الذي كان يلقّبه التلاميذ بـ«أبو شنب» -اسمه الحقيقي هو ويكسي-، وهو رجل ضئيل

ذو وجه مرعب كوجه ذئب. وكان يحتفظ في أقصى حجرة الدرس، داخل صندوق زجاجي، بتشكيلة من القضبان، لم يكن يتردّد أحياناً في إشهار أحدها، يلوح به في الهواء على نحو مفزع، بحيث يُسمع له صفير. على أنّني، وهو أمر فاجأني، لم أصادف مشاكل في المدرسة، وكنت أتدبّر أمري جيّداً. لم يخطر ببالي قط أنّني سأكون أذكى من جو الذي يكبرني بسنتَين، والذي ظلّ يضطهدني منذ أن بدأ يمشي على رجليه. اكتشفت أنّه غبيّ بكل ما في الكلمة من معنى، وأنّه يُضرب بالقضيب كلّ أسبوع تقريباً، وظلّ يحتلّ المراتب الأخيرة إلى أن بلغ السادسة عشرة. وفي نهاية السنة الثانية، حصلت على جائزة في الحساب وأخرى في مادّة غريبة، تدور بالأساس حول الزهور اليابسة، كانت تسمّى العلوم. وحين بلغت الرابعة عشرة، شرع أبو شنب يتحدّث عن المنحة وعن التحاقي بالجامعة. وقد كانت رغبة أبي في ذلك الإبّان شديدة في أن نلتحق أنا وجو بمؤسسة جامعية، آملاً في أن أصير أنا معلّماً بينما يصبح جو سمسار مزادات.

على أنّ ذاكرتي لم تحتفظ بذكريات كثيرة عن المدرسة. وحين كان يحدث أن أتعرّف إلى أشخاص ينحدرون من طبقة أعلى من طبقتي، كما هو الأمر إبّان الحرب، كنت أندهش من ملاحظة كيف أنّهم لم يستطيعوا التخلّص من آثار التربية الرهيبة التي تلقّوها في مدارس النخبة، والتي إمّا بلّدتهم، أو جعلتهم يقضون بقيّة حياتهم في التمرّد عليها. أمّا نحن، فكنّا نرتاد ثانوية المدينة إلى أن نبلغ السادسة عشرة، لا لشيء إلّا لكي نثبت بأنّنا لسنا من أبناء البروليتاريا، لكن دون أن نقضي فيها وقتاً طويلاً. ولم يكن ولاؤنا لها أخرق، بخلاف مدارس النخبة، كما أنّنا لم نكن نرتدي ربطة عنق، بل لم يكن لنا حتّى نشيد مميّز. وكان بوسع التلاميذ أن

يتخلّفوا عن الدراسة نصف يوم كما يحلو لهم، لأنّ الألعاب لم تكن إلزامية. وكنّا نلعب الكريكت بالحزام والسروال، ونحتفظ بملابسنا العادية. والواقع أنّ الرياضة الوحيدة التي كانت تسلّيني هي مباريات الكريكت، مباريات كانت تلعب في ساحة المدرسة بكُرة مرتجلة، ومضارب عبارة عن قطع خشب منزوعة من صناديق التلفيف.

أذكر رائحة حجرة الدرس الكبيرة. مزيج من رائحة الحبر والغبار والأحذية، كما أذكر الحَجَرة التي كانت موجودة في الساحة، والتي كانت تستعمل فيما قبل لامتطاء صهوات الخيل، ونستخدمها حينئذ في شحذ سكاكيننا. وممّا أذكره أيضاً المخبزة الصغيرة الواقعة قبالة المدرسة، التي كانت تبيع بنصف سنت لفائف خبز حجمها ضِعف حجم تلك التي تباع اليوم. لقد فعلت كلّ ما يمكن أن يفعله طفل في المدرسة. نقشت أسمي على الطاولة، وهو أمر كان يفعله التلاميذ، وعوقبت بسبب ذلك. لطّخت أصابعي بالحبر، وقضمت أظافري، وصنعت سهاماً من الأقلام وأتقنت لعبة الكستناء (كان كلّ لاعب يربط حبة كستناء في خيط، ويحاول أن يضرب بها حبة المنافس ليكسرها)، وتعلّمت نقل القصص البذيئة، واستمنيت، وسخرت من أستاذ الإنجليزية العجوز بلوويرز، ونكّدت على ويلي سيمين ابن متعهد الجنائز الأبله الذي يصدق كلّ ما يُقال له. وقد كانت خدعتنا المفضّلة هي أن نبعثه إلى المتاجر لشراء أشياء لا وجود لها من قبيل: طوابع بريد بوجهَين، مطرقة مطاطية، فكّاك براغٍ للأعسر، علبة طلاء بلونين. وقد كانت كلّ هذه المقالب تنطلي على المسكين. ولم نضحك مثلما ضحكنا يوم وضعناه في حوض الغسيل، وطلبنا منه أن يتشبّث بالمقابض لكي ينهض. وقد انتهى به المطاف في مستشفى الأمراض العقلية.

على أنّ متعتنا لم تكن تكتمل إلّا أيّام العطل. وفي ذلك العهد كانت ثمّة أشياء كثيرة جميلة يمكن فعلها. كنّا مثلاً نستعير في الشتاء نمسين -رغم أنّ أمّي لم تكن تسمح لنا بالاحتفاظ بهذه «الحيوانات النتنة» كما كانت تصفها- نجوب بهما الضيعات مستأذنين باصطياد الجرذان. وكان أصحاب الضيعات يأذنون لنا تارة، ويرفضون أخرى، قائلين إنّنا أسوأ من الجرذان. وفي نهاية الشتاء، كنّا نتبع الدرّاسات، ونقتل الجرذان المختبئة بين أكوام التبن. ومرّة، في سنة 1908، فاض نهر التمز عن مجراه، وتجمّدت مياهه من البرد، فقضينا أسابيع نتزلج فوقها. وقد سقط هاري بارنز، فانكسرت ترقوته. ومع مطلع الربيع، نروح نطارد السناجب بعصيّ تشبه الرماح، وبعد ذلك بقليل، نشرع في إتلاف أعشاش الطيور. كنّا نعتقد أنّ الطيور لا تعرف الحساب، وأنّه من الجيّد أن نترك لها بيضة واحدة، لكنّنا كنّا حيوانات قاسية، نتلف الأعشاش أحياناً، وندوس ما بها من بيض أو فراخ. وعندما يحين وقت وضع بيض الضفادع، كنّا نمسك بتلك الكائنات المسكينة، وننفخها بمنفاخ الدراجة إلى أن تنفجر. لا أعرف لماذا كنّا أشقياء هكذا. وفي الصيف نركب دراجاتنا ونقصد سدّ بورفورد لكي نسبح. وقد غرق فيه ويلي لوفغروف، ابن عم سيد، سنة 1906. علق في الطحالب الموجودة في أعماقه. لمّا أخرجوا جثّته، بدا وجهه مسودّاً كما لو طُلي بالحبر.

على أنّ الصيد كان هو أمتع شيء. كنّا كثيراً ما نقصد بركة العجوز بروير، ونصطاد أسماك شبوط وتنش صغيرة. وذات مرّة اصطدنا سمكة أنقليس ضخمة. وقد كانت توجد في المناطق المحيطة برك أخرى بها أسماك كنّا نذهب إليها بعد ظهر أيام السبت مشياً على الأقدام. لكن ما إن حصلنا على دراجات حتّى شرعنا

نصطاد في التمز، أسفل سدّ بورفورد. كان ذلك يبدو لنا أليَق بعمرنا من البرك الضحلة التي يرتادها البقر ليشرب. لم يكن يوجد هناك فلاحون يطاردوننا، كما أنّ التمز يحوي أسماكاً ضخمة رغم أنّني لا أعرف أحداً اصطاد إحداها.

كان شغفي -ولا يزال في الحقيقة- بالصيد غريباً، رغم أنّني لا أستطيع الادّعاء بأنّني صيّاد ماهر. فأنا لم أصطد في حياتي سمكة تستحقّ العناء. وها قد مضت ثلاثون سنة لم ألمس فيها قصبة صيد. ومع ذلك يتهيّأ لي أنّ أيّام طفولتي، بين الثامنة والخامسة عشرة، كانت تدور بكاملها حول جولات الصيد. فكلّ التفاصيل ظلّت منقوشة في ذاكرتي -ذكريات أيام تعدّ بالمئات، وأسماك تعدّ بالمئات أيضاً-، ويكفي أن أغمض عينَيّ لتتراءى لي كلّ البِرك والجداول التي جُبتها. بل إنّني أستطيع تأليف كتاب حول تقنيات الصيد. والواقع أنّ أدوات صيدنا كانت بدائية، لأن اللوازم الحقيقية مكلفة، ومعظم مصروفنا (الذي لم يكن يتعدّى ثلاثة قروش في الأسبوع) كنّا ننفقه في شراء الحلوى ولفائف الخبز. وقد كان الصغار يصطادون في الغالب بواسطة دبابيس معقوفة لم تكن تجدي نفعاً. كان بالإمكان صنع صنانير مقبولة بتقويس إبرة بواسطة كلّاب بعد تسخينها على شعلة شمعة. وكان أبناء الفلاحين يعرفون كيف يفتلون شعر الخيل بحيث تصبح كخيطان الصيد، بل حتّى بخيط واحد كان بالإمكان الإمساك بسمكة صغيرة. بعد ذلك صرنا نستعمل قصبات صيد كنّا نشتريها بشلنَين، وبكرات مختلفة الأنواع. ليتكُم تعرفون كم أنفقت من ساعات فاغر الفم أمام واجهة متجر والاس! حتّى بنادق القنص ومسدّسات رعاة البقر لم تكن تستهويني مثلما تستهويني لوازم الصيد. ثمّ كان هناك فهرس كاميدج الذي لم أعد أذكر أين عثرت

عليه -ربّما في القمامة-، والذي كنت أقرأه بهمّة من يقرأ الكتاب المقدّس. ما زلت قادراً إلى اليوم على أن أحدّثكم بإسهاب عن بدائل الخيوط والصنانير الإيرلندية والكلاليب والهراوات وبكرات نوتنغام التي لا يحصرها العدّ.

ثمّ هناك أنواع الطعوم المختلفة التي كنّا نستخدمها. فقد كانت توجد في متجرنا ديدان الدقيق بكميات كبيرة. كانت تسدّ الحاجة، لكنّ يرقات الذباب أفضل منها. كنّا نشحذها من غرافيت، الجزّار العجوز. وبما أنّه كان يرفض مدّنا بها، كنّا نقترع لكي نعيّن من يقوم بهذه المهمّة. كان رجلاً فارع الطول، فظّاً، ذا صوت أشبه بنباح كلب شرس. وحين كان يشرع في النباح، تبدأ كلّ السكاكين والأدوات المعدنية التي يحملها في وزرته في الاهتزاز. كنّا ندخل إلى المحلّ وفي يدنا علب فارغة، ونظلّ هناك ننتظر إلى أن ينصرف آخر زبائنه، فيبادره وكيلنا بصوت وديع: «هل لديك، سيّد غرافيت، يرقات ذباب اليوم؟».

فيجيب غالباً: «ماذا تقول؟ يرقات ذباب؟ يرقات ذباب في مجزرتي؟! لم أرَ شيئاً كهذا منذ سنوات! كيف يخطر ببالك أنّ في هذه المجزرة ذباب؟!».

كان المكان يعجّ بالذباب طبعاً، وكان ينشّه بمنشّة من الجلد مشدودة إلى عصا تستطيع أن تصل إلى أقصى مكان في الدكان، فتُحوّل الذباب إلى عجين. وكنّا نعود أحياناً من دون ذباب، لكنّه كان يصيح بمجرّد ما نتجاوز عتبة الباب: «اذهب وانظر في الساحة الخلفية. إن بحثت جيّداً، قد تجد يرقة أو يرقتين».

كانت اليرقات تنتشر في مجموعات صغيرة في كلّ أرجاء الساحة التي تفوح برائحة أشبه برائحة الجيف. ذلك أنّ الجزارين في

ذلك العهد لم يكونوا يملكون ثلاجات. وللحفاظ على اليرقات مدّة طويلة، كنّا نضعها في نشارة الخشب.

كنّا نستعمل يرقات الدبابير أيضاً، وإن كان من الصعب تثبيتها على الصنارة إذا هي لم تُطبخ قبل الاستعمال. لمّا كان أحدنا يعثر على عشّ دبابير، كنّا نخرج مساء لنصبّ زيت التربانتين في الحفرة، ثمّ نغلقها بالطين. في اليوم الموالي بعد أن تموت، نستولي على العشّ، ونستخرج منه اليرقات.

على أنّ الأمر انتهى مرّة نهاية سيئة. ذلك أنّنا عندما سكبنا زيت التربانتين، ساح في جنبات الحفرة. فلمّا أزلنا الطين في الصباح خرجت الدبابير المحبوسة طوال الليل هائجة وطاردتنا، فانطلقنا هاربين بأقصى ما نستطيع من سرعة، ولحسن حظّنا نجونا من اللسع. على أنّ الجنادب تبقى هي أفضل أنواع الطعوم، لا سيما لاصطياد سمك الشوب، بحيث تُسلك بعناية في الشص، وتُسحب فوق صفحة الماء، وهي تقنية في الصيد تدعى «الهزازة». لكنّ المشكلة هي أنّنا لم نكن نستطيع الحصول على أكثر من جندبين أو ثلاثة في المرّة الواحدة. أمّا الذباب الأخضر، الذي كنّا نجد صعوبة في الحصول عليه أيضاً، فيعدّ أفضل طعم لاصطياد سمك الداس، وبخاصة عندما يكون الجوّ صحواً؛ إذ ينبغي أن توضع حيّة على الشص حتّى تختلج. ويمكن اصطياد سمك الشوب بالدبابير أيضاً، لكنّ تثبيت دبور حي على الشصّ يعدّ عملية بالغة الصعوبة.

وهناك أنواع أخرى من الطعوم لا عدّ لها، كعجين الخبز الذي كنّا نحصل عليه بوضع قطعة من الخبز الأبيض المبلّل بالماء في خرقة، ونضغطها، وعجين الجبن والعسل، وعجين آخر يصنع من حبوب اليانسون. والقمح المطبوخ ليس سيئاً لاصطياد سمك

الروش، بينما يفضّل سمك الغجوم الدود الأحمر الذي كنّا نعثر عليه تحت أكوام الروث القديمة. أمّا سمك الفرخ فيحبّ نوعاً آخر من الديدان الحمراء المخطّطة، تنبعث منها رائحة تشبه رائحة أبي مقص، لكنّها تأكل أيضاً الديدان العادية. ولكي تبقى هذه الديدان طرية، تُحفظ في الطحالب، بينما يحفظ الذباب في روث البقر، وهو يناسب صيد سمك الروش. ويزعمون أنّ سمك الشوب يمكن أن يُصطاد بواسطة حبّة كرز. وقد رأيت سمكة روش تعضّ زبيبة.

خلال هذه الفترة الممتدّة من 16 يونيو، وهو موعد افتتاح موسم الصيد، إلى منتصف الشتاء، كان من النادر ألّا تجد في جيبي علبة ديدان أو يرقات ذباب. وقد كان عليّ أن أخوض معارك مع أمّي من أجل ذلك، انتهت بانتصاري. وبذلك سُحب الصيد من الأنشطة الممنوعة. بل إنّ أبي أهداني قصبة صيد اشتراها بشلنَين بمناسبة أعياد ميلاد سنة 1903. لمّا شرع جو في ملاحقة الفتيات وهو بالكاد في الخامسة عشرة من عمره، توقّف عن الصيد، وقال إنّه يناسب الصبيان. لكنّ عدداً من المهووسين أمثالي استمرّوا. ما كان أحلى أيّام الصيد تلك! ففي أيّام الصيف الحارّة، كنت أجلس إلى مكتبي في حجرة الدرس الواسعة متهالكاً والعجوز بلاورز يرهق مسامعي بأحاديثه عن النعت والشرط واسم الموصول، بينما عقلي شارد في الصيد على ضفّة السد بورفورد، والبركة الخضراء تحت أشجار الحور حيث تسبح أسماك الداس، أو أفكّر في الانطلاق على الدراجات، بعد وقت الشاي، صعوداً إلى تلّ شامفورد ونزولاً نحو النهر من أجل قضاء ساعة في الصيد قبل حلول الليل. كم كان عذباً هدوء أمسيات الصيف، وخرير ماء السد، والدوائر التي تتركها الأسماك الصاعدة إلى سطح الماء، والبعوض الذي ينهشك، وأسراب الداس التي

تتجمّع حول الشصّ دون أن تلمسه! وما كان أجمل الحمّى التي تنتابك وأنت تراقب ظهر الأسماك الأسود التي يعجّ بها الماء، وأنت تأمل وتصلّي (نعم، تصلّي بكل ما في الكلمة من معنى) من أجل أن تغيّر إحداها رأيها، وتلتهم الطعم قبل حلول الظلام! كنّا دائماً نقول: «لنبقَ خمس دقائق أخرى»، ثمّ بعدها «خمس دقائق فقط»، إلى أن يحين موعد العودة مشياً على الأقدام ونحن ندفع الدراجة مخافة أن يباغتنا الشرطي تاولر، خلال جولاته، ونحن راكبين عليها من دون إنارة. وكم كانت حلوة أيام العطلة الصيفية تلك، حيث كنّا نذهب لقضاء النهار كلّه في الصيد والسباحة ونحن محملين بالبيض المسلوق وشطائر الخبز المدهونة بالزبدة وزجاجة صودا! وحين يحلّ الليل نعود إلى البيت بأيدٍ نتنة، وفي جعبتنا ثلاث سمكات داس أو أربع، ملفوفة في خرقة، تنبعث منها رائحة كريهة، وقد قتلَنا الجوع حتّى لنكاد نأكل لبّ الخبز الذي اتّخذناه طعماً للسمك. لم تقبل أمّي يوماً طبخ السمك الذي أعود به. لم تكن تستسيغ أكل سمك النهر، باستثناء سمك الأطروط والسلمون. وكانت تقول: «إنّه سمك قذر يفوح برائحة الوحل». ولعلّ الأسماك التي أذكرها جيّداً هي تلك التي لم أكن أصطادها، ولا سيّما الأسماك الضخمة التي كنّا نلمحها على طول الممرّ المائي حيث كنّا نتنزه عصر أيّام الآحاد من دون صنارات. وبما أنّ الصيد كان ممنوعاً يوم الأحد بقرار من مجلس المدينة، كنّا نقوم بما نسمّيه «نزهة حسب الأصول»، مرتدين بذلة داكنة بطوق مطوي. وقد رأيت ذات مرّة سمكة كراكي بطول متر تنام قرب الضفة في مكان غير عميق، فقذفتها بحجر، وكدت أصيبها. كما أنّنا كنّا نرى أحياناً في البرك الخضراء سمكة أطروط ضخمة قدمت من النهر. ويبلغ هذا النوع من السمك في نهر التمز أحجاماً

هائلة. لكن لا أحد يستطيع اصطيادها. ويقال إنّه لا يوجد صيّاد من صيادي التمز الحقيقيين -أحد أولئك الشيوخ ذوي الأنوف المتبثّرة الذين يُرَون متدثّرين بمعاطفهم طوال السنة، جالسين على مقاعد بجانب النهر، ممسكين بقصبات صيد بالغة الطول- غير مستعدّ للتضحية بسنة من حياته مقابل سمكة واحدة من التمز. وأنا لا ألوم أولئك الأشخاص لأنّني كنت أفهمهم تماماً.

كانت الحياة تمضي في مجراها طبعاً. كان طولي يزيد بسبع سنتيمترات في السنة على الأقل، وحصلت على سروالي الطويل الأوّل. فزت ببعض الجوائز في المدرسة وتردّدت على دروس التثبيت المسيحي. واصلت سرد الحكايات البذيئة، وزاد شغفي بالمطالعة والفئران البيضاء والنقش والطوابع البريدية. لكنّ ما أذكره أكثر هو الصيد. كما أذكر من الصيف المروج الخضراء والتلال الزرقاء البعيدة وأشجار الصفصاف المتمايلة على البرك ذات الماء المتلألئ الشبيه بزجاج أخضر. لا تسيئوا فهمي. فأنا لا أنوي إرهاقكم بأشعار الحنين إلى الطفولة وما يتّصل بها. أعلم أنّها ليست سوى كلام فارغ.

إنّ العجوز بارثيوس، وهو صديق لي، أستاذ متقاعد (سأحدثكم عنه لاحقاً)، مولع بهذا النوع من الأشعار، يقرأ لي أحياناً مقتطفات من كتب ووردزوورث، قصيدة «لوسي غراي»: يوم كانت في المروج أو البساتين. . . لا داعي لأن أشير إلى أنه لم ينجب أولاداً، لأنّ الأولاد لا يحفلون بالشعر، مجرّد حيوانات صغيرة متوحّشة، بل إنّ أنانية الحيوانات لا تعادل ربع أنانيّتهم. فالطفل لا يبالي بالمروج والبساتين وما إلى ذلك، ولا يتأمّل أبداً منظراً طبيعياً، ويهزأ تماماً بالأزهار، اللهمّ إذا أثارت انتباهه لسبب أو لآخر، كأن تكون ثمارها

لذيذة مثلاً. كما أنّه لا يميّز بين نبتة وأخرى. ومنتهى الشعر بالنسبة إلى الطفل هو أن يقتل هذا أو ذاك. ومع ذلك تنبعث من كلّ هذا طاقة مدهشة، شغف عارم يزول عند بلوغ سنّ الرشد. شعور بأنّ الزمن يمتدّ أمامك إلى ما لا نهاية، وأنّك تستطيع فعل ما تريد إلى الأبد.

كنت طفلاً صغيراً أميَل إلى الذمامة، بشعري الأصفر المقصوص ما عدا خصلة مرسلة على جبيني. لا أريد أن أقدّم لكم صورة مثالية عن طفولتي، كما أنّني لا أرغب، بخلاف كثير من الناس، أن أعيشها ثانية. ومعظم الأشياء التي كنت شغوفاً بها، لم تعد لها أي جاذبية عندي. لم تعد كرة الكريكت تعني لي شيئاً كما لم أعد مستعدّاً لدفع ثلاثة قروش مقابل طن من الحلوى. لكنّ الغريب هو هذا الولع الذي طالما رافقني ولا يزال. لا بدّ أنّكم ستعتبرونني مغفّلاً لا خير فيه، لكنّني لا أزال إلى اليوم -أنا الشخص البدين في الخامسة والأربعين من العمر، أب لطفلين، وصاحب منزل في الضاحية- أشعر أحياناً بالرغبة في العودة إلى الصيد. لماذا؟ لأنّني أحس، بنحو أو بآخر، بالحنين إلى طفولتي -ليس إلى طفولتي الشخصية، بل إلى الحضارة التي كبرت فيها، والتي تشارف على نهايتها فيما يبدو-. بمجرّد ما تفكّرون في الصيد، تتبادر إلى أذهانكم أشياء لا علاقة لها بالعالم الحديث. فكرة أن تجلس من الظهر إلى المغرب تحت صفصافة على ضفة بركة هادئة -بل حتّى إمكانية العثور على مثل هذه البركة- تنتمي إلى فترة ما قبل الحرب. كان ذلك ممكناً قبل اكتشاف المذياع والطائرة. قبل ظهور هتلر. تشعر بنوع من السكينة وأنت تستعرض أسماء الأسماك الإنجليزية. إنّها أسماء صلبة ومتينة، والناس الذين استحدثوها لم يسمعوا قط عن الرشاش،

ولم يعيشوا تحت التهديد بالطرد من العمل، ولم يقضوا حياتهم في تناول الأسبرين والذهاب إلى السينما، والتساؤل عن كيفية الإفلات من معسكرات الاعتقال.

أتساءل: ألا زال أحد يذهب إلى الصيد اليوم؟ لم يعد ثمّة سمك يُصطاد في دائرة شعاعها مئة وخمسون كيلومتراً حول لندن. هناك نوادي صيد كئيبة مصطفّة على ضفاف القنوات، والأثرياء يرتادون مناطق صيد خاصة تابعة للفنادق الاسكتلندية حيث يصطادون سمكاً وديعاً بطعوم اصطناعية. ولكن، ألا يزال أحد يصطاد في قنوات الطواحين؟ والخنادق المائية؟ وبرك إرواء البقر؟ أين اختفى السمك الإنجليزي الطبيعي؟ لمّا كنت طفلاً، كان السمك موجوداً في كلّ البرك وفي كلّ الأنهار. أمّا اليوم، فقد جفّت كلّ البرك، والأنهار إن لم تلوّثها نفايات المعامل الكيماوية، فهي مليئة بعلب التصبير الصدئة وإطارات الدراجات النارية.

أنا مدين بأجمل ذكرياتي حول الصيد لسمكات لم أصطدها، وهو أمر عادي في نظري. عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، أسدى أبي لهودجز، حارس بينفيلد هاوس، خدمة لم أعد أذكرها. لعلّه سلّمه عقاراً أشفى طيوره الداجنة من الديدان أو شيئاً من هذا القبيل. وقد كان هودجز عجوزاً أشمط نكد المزاج، لكن إن أسدى له أحد معروفاً، لا ينساه أبداً. بعد مدّة من ذلك، زار المتجر لشراء علف لدجاجه، وصادفني في بابه، فحيّاني بطريقته الفظّة. كان له وجه يخال من يراه أنّه منحوت على جذر شجرة. ولم يكن في فمه غير سنّين طويلين يميلان إلى السواد.

«مرحبا أيها الصغير! أظنّك صياداً فيما يبدو؟».

«نعم».

«واضح. اسمع إذاً، إن شئت، أحضر صنارتك، وجرّب حظك في البركة الموجودة خلف القصر. فهي تعجّ بالأسماك، لكن لا تخبر أحداً بهذا. إن أحضرت معك أولئك الأبالسة من أمثالك، سأسلخهم».

ثمّ انصرف ظالعاً وهو يحمل كيسه على كتفه كما لو أنّه ندم على ما قال. وما إن حلّ يوم السبت الموالي، حتّى ركبت دراجتي وقصدت بينفيلد هاوس، وجيوبي مليئة بالديدان ويرقات الذباب، باحثاً عن العجوز هودجز. كانت قد مضت على إخلاء القصر يومها عشرون سنة تقريباً. ذلك أنّ صاحبه، السيد فاريل، لم يكن يملك الإمكانات لصيانته، ولا يريد إيجاره أو لم يعثر على من يستأجره منه. كان يعيش في لندن من مداخيل ضيعاته، وترك القصر وما يحيط به من أراضٍ. كان السياج يتفتّت وتتساقط أجزاؤه، والحديقة غزتها الأعشاب البرية، والأشجار أدغلت وصارت أشبه بغابة كثيفة، لكن المنزل ظلّ مع ذلك جميلاً، لا سيما حين يُرى من بعيد: عبارة عن بيت واسع أبيض، بأعمدة مصطفّة، ونوافذ عالية، بناه، فيما أعتقد، نازح عاد من إيطاليا على عهد الملكة آن. لا شكّ أنّ قلبي سينقبض لو عدت اليوم إلى ذلك المكان المهجور، وفكّرت في الحياة التي حفل بها في الماضي، وفي الناس الذين شيّدوه معتقدين أنّ الأيام السعيدة لن تنتهي أبداً. لكنّ الطفل الذي كنته، لم يكن يحفل بكلّ هذا.

وانتهى بي الأمر أن عثرت على العجوز هودجز. كان قد فرغ من التهام فطوره، ورغم أنّ مزاجه كان سيئاً، دلّني على الطريق إلى البركة التي توجد على بعد بضع مئات من الأمتار خلف القصر، مخفيّة تماماً خلف دغل من أشجار الزان، كبيرة الحجم بحيث تكاد

تكون بحيرة. كانت بطول مئة وخمسين متراً، ومثلها عرضاً. إنّها مدهشة. ورغم صغر سنّي، ذهلت من وجود مكان منعزل كهذا على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً من ريدينغ، وأقل من ثمانين كيلومتراً من لندن. يشعر فيه المرء بعزلة كما لو أنه على ضفتَي نهر الأمازون. كانت البركة محاطة بكاملها بأشجار زان ضخمة، تحاذي ضفتها في بعض الأماكن أحياناً، وتنعكس على صفحة الماء. وفي مكان مقعّر ينتشر النعناع البري، وفي الأقصى يوجد مستودع لقوارب تتعفّن بين الأعشاب المائية.

كانت البركة تعجّ بالأبراميس. بين الفينة والأخرى تنقلب إحداها، فتبدو حراشفها متلألئة بلون ضارب إلى الحمرة. كان ثمّة أيضاً أسماك كراكي، ولا بدّ أنّها كانت ضخمة. لم تكن تظهر أبداً، لكن من حين إلى آخر تغوص إحداها إلى الأعماق بينما تكون تتشمس بين الطحالب، محدثة ضجّة كما لو أنّك رميت قرميدة في الماء. كنت واثقاً من أنّه لا فائدة من محاولة صيدها، ومع ذلك حاولت في كلّ مرّة ذهبت فيها إلى هناك. كنت أحاول صيدها بواسطة أسماك الداس والمنوة التي أجلبها من التمز، وأحافظ عليها حيّة في علبة مربّى، أو بواسطة طعم اصطناعي أصنعه من قطعة حديد أبيض. على أن أسماك الكراكي المتخمة، لم تكن تقرب الطعم. ومهما يكن، فعُدّتي لم تكن من الصلابة بحيث تتحمّل هذا النوع من السمك. ولم أغادر البركة قط دون أن أصيد اثنتي عشرة سمكة أبراميس على الأقل. وخلال عطلة الصيف كنت أقضي اليوم بكامله هناك أحياناً، حاملاً معي صنارتي وبعض مجلات الأطفال، وقطعة كبيرة من الخبز محشوّة بالجبن، تُعدّها لي أمّي. أظلّ أصيد لساعات طوال، ثمّ أستلقي في العشب وأستغرق في قراءة إحدى المجلات،

ثمّ فجأة تستثيرني رائحة الخبز أو ضجّة سمكة تقفز في الماء، فأعود فوراً إلى الصيد. هكذا كنت أقضي يومي إلى أن يوشك النهار على نهايته. ولعلّ أحبّ شيء إليّ هو لمّا أجد نفسي وحيداً في الطريق، وحيداً تماماً، رغم أنّ الطريق كانت ضيّقة لا تتجاوز بضع عشرات من السنتيمترات. كنت قد بلغت السن التي يدرك فيها المرء أنّ الوحدة بين الفينة والأخرى شيء جيّد. أشعر وأنا بين الأشجار وسط ذلك السكون المطبق الذي لا تكسره إلّا دوائر تثيرها الأسماك على صفحة الماء، ورفرفة الحمام في الأعلى، كما لو أنّ البركة بركتي لوحدي. ومع ذلك، كم مرّة ذهبت للصيد هناك على مدى سنتين؟ ليس أكثر من اثنتي عشرة مرّة على الأرجح. كانت البركة تبعد خمسة كيلومترات عن البيت، خمسة كيلومترات أقطعها على الدرّاجة. وكانت الرحلة تستغرق من الظهر حتى المغرب، وفي بعض الأحيان كان يعرض عارض، أو تمطر السماء بينما أتأهّب للخروج.

وبعد ظهر أحد الأيّام، بينما لم تقرب الأسماك الطعم، قرّرت أن أستكشف الجهة الأخرى من البركة، أبعد نقطة من القصر. كان الماء قد فاض قليلاً وغمر الجوانب بحيث صارت أشبه بمستنقع، وكان عليّ شقّ طريقي وسط نبات العلّيق والأغصان المتعفّنة الساقطة من الشجر. وبعد ما يقارب خمسين متراً، وصلت إلى ما يشبه فرجة بين الأشجار، ووجدت نفسي فجأة في بركة أخرى لم يخطر على بالي قط أنها موجودة هناك. كانت بركة صغيرة بعرض عشرين متراً تقريباً، قاتمة المياه بسبب ما تساقط فيها من أغصان الشجر، لكن ماءها كان شفّافاً، بعمق بين ثلاثة وخمسة أمتار تقريباً. بقيت هناك شارد الذهن كما يحدث للمرء في هذا السن، أستمتع برطوبة المروج تلك. وفجأة رأيت شيئاً جعل قلبي ينخلع من مكانه.

إنّها سمكة ضخمة، وأنا لا أبالغ حين أقول ضخمة: كانت بطول ذراعي تقريباً. مرقت عميقاً في البركة، ثمّ لم أعد أرى سوى طيفها قبل أن تختفي في الجانب الآخر من المياه الداكنة. كان الأمر كما لو أنّ سيفاً اخترقني. إنّها أكبر سمكة رأيتها في حياتي، حيّة أو ميّتة. حبست أنفاسي، وما لبثت أن رأيت هيئة أخرى لا تقلّ عنها غرابة، تنزلق تحت الماء، ثمّ أخرى، ثمّ اثنتين متقاربتين. كانت البركة تعجّ بها. أظنّها أسماك شبوط أو أبراميس أو تنش، والراجح أنّها أسماك شبوط، لأنّ الأبراميس والتنش لا يبلغ هذا الحجم أبداً. وأدركت تفسير ذلك. فهذه البركة كانت متّصلة بالأخرى في الماضي، ثمّ جفّ الجدول الذي يصل بينهما، وفصلتهما الأشجار، وهو أمر شائع الوقوع، حيث تنسى إحدى البركتين، ولا يصيد فيها أحد لسنوات، بل لعشرات السنين، فتكبر الأسماك لتبلغ أحجاماً مهولة. لا بدّ أنّ تلك الأسماك عاشت في تلك البركة لقرن من الزمان دون أن يعرف بها أحد سواي. ممّا لا شكّ فيه أنّ لا أحد وطئت قدمه هذا المكان منذ عشرين سنة على الأقل، بل حتّى السيد هودجز ووكيل أعمال السيد فاريل نسيا وجوده.

لكُم أن تتصوّروا ما كنت أشعر به. لم أعد أقوى على تحمّل النظر إلى هذا المشهد، فسارعت إلى البركة الأخرى لأجلب معدّات الصيد التي لن تفيد في شيء مع وحوش كهذه، تستطيع أن تكسر قصبتي كما لو كانت شعرة. لن أقنع بعد اليوم بالعودة بأسماك أبراميس صغيرة. فقد مرضت من رؤية أسماك الشبوط الضخمة، وكدت أصاب بالغثيان. امتطيت دراجتي وانطلقت نحو البيت في الطريق المحاذية للشاطئ بأقصى سرعة. لكن، يا له من سرّ رائع بالنسبة إلى طفل في ذلك السن! بركة معتّمة مخفية بين الشجر

الكثيف، مليئة بأسماك ضخمة، أسماك لم ترَ صياداً قط، وتلقم الطعم بمجرّد رؤيته. يكفي أن أعثر على خيط متين، وقُضي الأمر! كنت قد سوّيت كلّ شيء في رأسي. سأتدبّر العدّة اللازمة حتّى لو استدعى منّي ذلك سرقة النقود من درج متجر والدي. سأعثر، يا إلهي، على المال لأشتري خيطاً متيناً وصنانير مناسبة مهما كلّفني الأمر، وسأعود إلى البركة محمّلاً بالجبن ويرقات الذباب ولُباب الخبز والديدان والجنادب. باختصار سأعود بكلّ أنواع الطعوم المستعملة في صيد الشبوط. سأعود في أقرب وقت. لن أتجاوز يوم الأحد.

عدا أنني لم أرجع إلى ذلك المكان قطّ، ولم أسرق قطّ النقود من الدرج، ولم أشترِ الخيط المتين، ولم أجرّب حظّي مع أسماك الشبوط تلك. مباشرة بعد ذلك الاكتشاف، حدث شيء صرفني عمّا نويت فعله. لكن حتّى لو لم يحدث ذلك، لكان وقع شيء آخر يمنعني. هكذا هي الحياة.

لعلّكم ستجدون أنّني بالغت في وصف حجم تلك الأسماك. لا بدّ أنّكم ظننتم أنّ حجمها عادي (ثلاثون سنتيمتراً مثلاً) وأنّها كبرت شيئاً فشيئاً في ذاكرتي. عدا أن الأمر ليس كذلك. فالصيادون يسردون دائماً قصصاً لا تصدّق عن السمكة التي صادوها في يوم من الأيام، ولا سيما عن السمكة التي عضت الطعم ثمّ فرت هاربة، لكنّني لم أصطد أبداً سمكة شبوط من البركة، بل لم أحاول حتّى المحاولة، وبذلك ليس ثمّة ما يدعوني إلى الكذب. وأعود فأقول إنّها كانت ضخمة.

5

يا لصيد السمك!

هنا ينبغي أن أعترف لكم بأمر، أو بالأحرى بأمرَين. الأوّل هو أنّني حين أراجع حياتي، أستطيع القول بصدق أنّ لا شيء فيها أبهجني مثلما أبهجني الصيد. فكلّ شيء عداه كان يبدو لي دائماً مخيّباً، بما في ذلك النساء، علماً بأنني لست ممن يزهدون فيهنّ. فقد أنفقت وقتاً طويلاً في مطاردتهنّ، وأنا مستعدّ لفعل ذلك الآن إن واتتني الفرصة. ومع ذلك لو أنكم خيّرتموني بين امرأة، مهما كانت -نعم مهما كانت- وصيد سمكة شبوط بوزن عشرة أرطال، لاخترت السمكة. والاعتراف الثاني هو أنّني توقفت نهائياً عن الصيد منذ أن بلغت السادسة عشرة من عمري.

لماذا؟ لأنّ الحياة هكذا، لا أقصد الحياة الإنسانية في عموميّتها، بل الحياة في هذا الزمن وفي هذه البلاد، حيث لا يفعل المرء الأشياء التي يحبّها، لا لأنّنا منشغلين طول الوقت بالعمل، فحتّى العامل في الفلاحة أو الخياط اليهودي لا يعمل طوال الوقت، بل لأنّنا نحمل بداخلنا شيطاناً يدفعنا بلا توقف إلى تكرار السخافات نفسها. فنحن نجد الوقت لكلّ شيء، إلّا للأشياء التي تستحق. فكّر في شيء يهمّك حقّاً، واحسب عدد الساعات التي حظي بها منك،

والمدّة التي خصّصتها له من حياتك. ثمّ احسب الوقت الذي قضيته في الحلاقة والتنقل بالباص والانتظار في محطات القطار وسرد الحكايات الخليعة وقراءة الصحف.

بعد تجاوز السادسة عشرة من عمري، لم أعد قطّ إلى الصيد. لا يبدو أنّني كنت أملك الوقت لذلك. فقد كنت منشغلاً بالعمل والجري وراء النساء وأنا ألبس حذائي الأوّل وياقاتي الطويلة الأولى (كان يلزم أن يكون للمرء عنق زرافة حتى يلبس ياقات سنة 1908). وكنت أتابع دروساً بالمراسلة حول فنّ التسويق والمحاسبة، محاولاً تثقيف نفسي، بينما كانت الأسماك الضخمة لا تزال تسبح في بركة القصر، ولا أحد يعلم بذلك غيري. قد يأتي يوم عطلة، فأعود إلى هناك وأمسك بها. لكنّني لم أعد قطّ. كان يتوفّر لي الوقت لكلّ شيء باستثناء الصيد، وهو أمر غريب. اللحظة الوحيدة، منذ ذلك التاريخ إلى اليوم، التي كدت فيها أعود فيها إلى الصيد، كانت خلال الحرب.

كان ذلك خريف سنة 1916، قبيل إصابتي. كنّا قد غادرنا الخنادق إلى قرية خلف خطّ الجبهة. كان شهر سبتمبر بالكاد بدأ، لكنّنا كنا غارقين في الوحل من الرأس إلى القدمَين. وكالعادة، لم نكن نعرف على وجه الدقة المدّة التي سنقضيها هناك، ولا الوجهة التي سيبعثون بنا إليها بعد ذلك. ومن حسن حظّنا أنّ الضابط الذي يقودنا كان معتلّ الصحة -يعاني من التهاب في الجهاز التنفسي أو شيء من هذا القبيل- بحيث أنّه كان يعفينا من الاستعراض والتفتيش ومباريات كرة القدم وما إلى ذلك من التسليات التي ترفع من معنويات الرجال خلال فترات الراحة. أمضينا اليوم الأوّل مستلقين على التبن في الإسطبلات المخصّصة لنا، نكشط الوحل من أحذيتنا. ولمّا حلّ المساء، اصطفّ بعض الرجال لمعاشرة عاهرتَين بئيستَين مرهقتَين

جاءتا من طرف القرية. وفي الصباح، رغم الأوامر بعدم مغادرة المعسكر، نجحت في التسلل، ووجدت نفسي أتسكّع في الأماكن المدمَّرة التي كانت حقولاً في يوم من الأيام. كان صباحاً شتوياً ماطراً وبالغ البرودة. كلّ ما كان يحيط بي طبعاً هو حطام الحرب على نحو أبشع من ساحة معركة مكسوة بالجثث: جذوع أشجار عارية، حفر قنابل، علب مصبّرات، أوحال، قاذورات، أسلاك شائكة صدئة غطّتها أعشاب بريّة. لعلّكم تعرفون إحساس من يعودون من خطّ الجبهة. تشعر بتصلّب مفاصلك، وبفراغ في رأسك وإحساس بأنّك لن تستطيب شيئاً أبداً. ينضاف إلى ذلك الخوف والإرهاق، لكن الشعور بالسأم يطغى على ما سواه. في تلك الفترة، لم يكن أحد يرى ضرورة لكي لا تستمرّ الحرب إلى ما لا نهاية. فأنت ستعود إلى الجبهة في يومك أو في الغد أو بعد غد، ومن المحتمل أن تصيبك قنبلة وتحوّلك إلى عجين، ولكن حتّى هذا لم يكن أسوأ من السأم المقيت الذي ينتابك حين تفكّر في هذه الحرب التي لا تنتهي.

وبينما كنت أتجوّل بمحاذاة سياج، وجدت نفسي فجأة وجهاً لوجه مع أحد أفراد السريّة، نسيت اسمه، ولكن الجميع يلقبونه نوبي: شابّ أسمر، خمول، ذو مظهر أشبه بالغجر. حتّى وهو يرتدي البزّة العسكرية، يبدو كما لو أنّه سرق من توّه أرنبَين. كان بائعاً متجوّلاً في السابق، من أبناء أحياء شرق لندن الشعبية، أولئك الذين لا يتوانون عن كسب مال إضافي لسدّ حاجياتهم من جني الجنجل أو قنص الطيور أو الصيد غير المشروع أو سرقة الفاكهة في الكينت أو إيكسيس. وكانت له معرفة متينة بالكلاب والنُّموس وطيور الأقفاص وقتال الديكة وما إلى ذلك. ما إن وقعت عينه عليّ حتّى أومأ لي، وبادرني بنبرته الماكرة:

«جورج! (كانوا ما زالوا يدعونني جورج. لم أكن قد لقبت بـ«البدين» بعد)، هلا نظرت إلى ما يوجد خلف أشجار الحور، في الجانب الآخر من الحقل!».

مكتبة
t.me/t_pdf

«ماذا يوجد؟».

«هناك بركة مليئة بالأسماك الضخمة».

«أسماك؟ كفى هراء!».

«صدّقني، إنّها تعجّ بالسمك. أسماك شبوط لم أرَ مثلها قطّ. تعال وانظر بنفسك».

شققنا طريقنا معاً في الوحل، وتبيّن أنّ النوبي لم يكذب. فخلف أشجار الحور توجد بركة موحلة ذات حوافّ رملية، هي على الأرجح مقلع قديم غمرته المياه. كانت تعجّ بأسماك الشبوط، بالإمكان رؤيتها وهي تسبح بالقرب من السطح، بظهورها المخططة بالأزرق الداكن، وهي من الضخامة بحيث يتجاوز وزن بعضها الرطل. فخلال سنتين من الحرب، لا أظنّ أحداً فكّر في صيدها، فوجدَت الفرصة مواتية لكي تتكاثر. لن تستطيعوا بلا شكّ أن تتصوروا الأثر الذي تركته في نفسي رؤية هذه الأسماك. شعرت كما لو أنّني عدت فجأة إلى الحياة. وبطبيعة الحال لم يعد يشغلنا معاً إلّا كيف نحصل على صنارة.

قلت:

«يا إلهي، هل نستطيع الإمساك ببعض هذه الأسماك؟».

«بالطبع، يتعيّن علينا أن نعود إلى القرية، ونبحث عن اللوازم».

«حسناً. لكن ينبغي أن نحترس. إن علم الرقيب بأمرنا، سنكون في ورطة».

«ليذهب الرقيب إلى الجحيم! فليقطّعوني إرباً إن شاءوا. سأمسك بتلك الأسماك اللعينة مهما كلّف الأمر».

لن تستطيعوا تخيّل مقدار تحرّقنا لاصطياد هذه الأسماك. لكنّكم في الواقع قد تستطيعون إن سبق لكم أن شاركتم في الحرب. لا بدّ أن تكونوا جرّبتم ذلك السأم الذي ينخركم، والفرح الذي يغمركم كلّما سنحت الفرصة لكي تتسلّوا قليلاً. لقد رأيت في أحد الخنادق رجلَين يتعاركان عراكاً مميتاً من أجل مجلّة رخيصة. أمّا بالنسبة إلينا، فالأمر أهمّ: التخلّص ليوم كامل، ربّما، من أجواء الحرب، والجلوس تحت شجر الحور لصيد الشبوط، بعيداً عن السريّة، وبعيداً عن الضوضاء والنتانة والضبّاط والتحيّة العسكرية وأصوات الضبّاط المساعدين. فالصيد هو نقيض الحرب. لكنّنا لم نكن واثقين من أنّنا سننجح. وهي فكرة كانت تصيبنا بالإحباط. لو يلاحظ الرقيب أو أحد الضبّاط شيئاً، سينتهي الأمر لا محالة. والأدهى من ذلك هو أنّنا لا نعرف كم سنبقى في القرية. قد نبقى أسبوعاً، وقد نؤمر بإعادة تنظيم الصفوف والتقدّم. ونحن لا نملك شيئاً من عدّة الصيد، ولا دبّوس أو قطعة خيط. كان علينا أن ننطلق من الصفر. أوّل ما يلزمنا قصبة صيد، قصبة صيد متينة من شجر الصفصاف، لكن لا يظهر في الأفق أثر للصفصاف. تسلّق النوبي شجرة حور، وقطع فرعاً صغيراً. ليس مناسباً تماماً، لكنّه أفضل من لا شيء. أزال عنه الأغصان بسكّين الجيب إلى أن صار أشبه بقصبة صيد، ثمّ خبّأه في العشب الموجود عند حافة البركة. وعدنا إلى المعسكر دون أن نثير الانتباه إلينا.

تلزمنا الآن إبرة نصنع منها صنارة. كان لدى أحد الجنود إبر للرتق، لكنّها غليظة ومدبّبة الرأس. حرصنا على إخفاء نوايانا خشية

أن تصل إلى الرقيب. وفي الأخير تذكّرنا العاهرتَين اللتين تقطنان في الطرف الآخر من القرية. لا بدّ أن تكون لديهما إبرة. وعندما وصلنا، كان علينا أن نقطع الساحة الموحلة. طفنا إلى أن عثرنا على المنزل، فوجدنا العاهرتَين تغطان في نوم عميق. طرقنا الباب بأيدينا وأرجلنا، ونادينا بملء أصواتنا لعشر دقائق، إلى أن أطلّت امرأة بدينة ذميمة ترتدي لباس البيت، وصرخت بكلام بالفرنسية، فردّ النوبي بالإنجليزية صائحاً: «نريد إبرة! إبرة! هل عندكم إبرة؟» لكنّها، وكما كان متوقّعاً، لم تفهم شيئاً. عندئذ حاول النوبي أن يشرح لها المراد بمزيج من الفرنسية والإنجليزية وهو يحاكي بيديه فعل الخياطة. لم تفهم المرأة، فواربت الباب قليلاً سامحة لنا بالدخول. وقد نجح النوبي أخيراً في أن يشرح لها ما نطلب، وبذلك حصلنا على الإبرة، وقفلنا راجعين لأنّ وقت العشاء كان قد حلّ.

بعد العشاء، زار الرقيب الإصطبل بحثاً عن جنود للسخرة. كاد يصادفنا لولا أنّنا اختبأنا في كومة قشّ. وبعد انصرافه، أشعلنا شمعة، وسخّنا الإبرة حتى ابيضّت، ونجحنا في تقويسها لنصنع منها ما يشبه الشصّ. لم نكن نملك أدوات باستثناء سكاكيننا، لذلك حرقنا أصابعنا. وبقي علينا أن نبحث عن خيط. الخيوط التي عثرنا عليها غير صالحة لأنّها غليظة. وفي الأخير وقعنا على شخص معه بكارة من الخيط المستعمل في الخياطة، على أنّه رفض التنازل عنها، وكان علينا أن نسلّمه علبة سجائر كاملة. كان هذا الخيط رفيعاً جدّاً، لكنّ النوبي ضاعفه ثلاث مرات، ثمّ شدّه إلى مسمار في الجدار، وفتله بعناية. وبينما كان هو يفعل ذلك، جُبت أنا القرية بكاملها بحثاً عن قطعة فلين، فعثرت عليها. ثقبتها من الوسط، وحشرت فيها عود ثقاب لأصنع منها عوامة.

نجحنا حتّى الآن في تدبّر الضروريات، لكن ما زالت تنقصنا الأوتار. لو حصلنا عليها سيكون الأمر أفضل. لم نكن نعرف كيف سنتدبّرها إلى أن خطر على بالنا الممرّض. ومع أنّ الأوتار لا تدخل ضمن معدّاته، فقد يحالفنا الحظّ ونعثر عليها عنده. وفعلاً كانت حقيبته تحوي لفّة كاملة منها، فقايضنا علبة أخرى من السجائر بعشر قطع من الأوتار، مع أنّها سريعة التمزّق وفي حالة سيّئة، يبلغ طول كلّ منها خمسة عشر سنتيمتراً تقريباً. وعند حلول الليل، بلّلها النوبي لكي تلين، ثمّ ألصق بعضها ببعض. وهكذا وفّرنا كلّ ما نحتاج إليه: صنارة وقصبة صيد وعوامة وأوتار. أمّا الديدان، فيمكن أن نحفر عليها في أيّ مكان. آه من تلك البركة العاجّة بالسمك! أسماك شبوط مخطّطة لا تنتظر سوى الطعم! استلقينا للنوم وقد استبدّ بنا الفرح حتّى أنّنا نسينا نزع أحذيتنا. متّى سيحلّ الغد؟ ليته يحلّ الآن! آه لو تنسانا الحرب ولو للحظة! قرّرنا أن نتسلّل بعد التفقّد، ونقضي النهار هنالك حتّى المساء مهما كلّفنا ذلك من ثمن.

أعتقد أنّكم خمّنتم البقيّة. فبعد التفقّد أمرونا بحزم أمتعتنا، والتأهّب للمغادرة بعد عشرين دقيقة. وبعد قطع خمسة عشر كيلومتراً مشياً على الأقدام، أركبونا في شاحنات لينقلونا إلى منطقة أخرى. أمّا البركة الواقعة بين أشجار الحور، فلم أرَها ولم أسمع عنها ثانية قط. أظنّها سُمّمت بغاز الخردل.

منذئذ لم تواتني الفرصة أبداً لكي أصطاد. بعد أن وضعت الحرب أوزارها، بحثت، على غرار جميع الناس، عن عمل. عثرت عليه، وشغل كلّ وقتي. اشتغلت كشابٍّ واثق بالمستقبل في شركة تأمين -شأن أولئك الشباب رجال الأعمال الواثقين من النجاح الذين تقرأ عنهم في إعلانات معاهد التجارة-، ثمّ صرت واحداً من أولئك

المساكين الذين يرضون بأن يُستغلّوا من أجل خمسة أو ستّة جنيهات في الأسبوع، يقطنون بيتاً في الضاحية. فأمثالنا لا يذهبون للصيد مثلما لا يذهب سماسرة البورصة لجمع أزهار الربيع. فهذا لا يليق بهم، إذ توجد تسليات أخرى تناسبهم.

أستفيد كلّ صيف من أسبوعَي عطلة طبعاً، أقضيها في مارغات أو يارموث أو إيستبورن أو هاستينغز أو بورنموث أو برايتون مع تغيير طفيف من سنة إلى أخرى بحسب وضع مدّخراتنا. فمع امرأة كهيلدا، تتلخّص العطلة في تمرين لا ينتهي من الحساب الذهني لمعرفة كم سيختلس منّا صاحب النُّزُل، والأشياء التي يمكن الاستغناء عنها كأن تقول للأطفال: كلا، لن أشتري سطلاً آخر. ما عليكم إلّا أن تملؤوا بالرمل ذاك الذي عندكم! قبل سنوات استأجرنا بيتاً في بورنموث وكنّا نتنزّه على الرصيف الممتدّ على كيلومتر تقريباً، ورأيت أشخاصاً يصطادون بقصبات صيد ذات بكرة وخيوط بطول خمسين متراً، تنتهي بأجراس صغيرة، ومع ذلك لا يمسكون شيئاً. ورغم أنّها طريقة بليدة للصيد، فحسبهم أنّهم يصطادون. ولم يلبث الأطفال أن شعروا بالملل، فطالبوا بالعودة إلى الشاطئ. رأت هيلدا أحدهم يسلك دوداً في الشصّ، فقالت إنّ ذلك يصيبها بالاشمئزاز. واصلنا المشي على الرصيف وإذا بجرس صغير يجلجل بشدّة، فأبصرت صاحبه يلفّ الخيط بسرعة فائقة، وجميع الأنظار مشدودة إليه. ظهر طرف الخيط وقد علقت به سمكة ضخمة مفلطحة (أظنّها سمكة ضوري) تتخبّط بعنف، فرفعها الرجل في الهواء ورماها على الرصيف مبلّلة متلألئة. استمرّت تتخبّط مظهرة ظهرها الرمادي المنقط تارة، وبطنها الأبيض تارة أخرى، تنبعث منها رائحة البحر الطرية المالحة، فشعرت بشيء يختلج بداخلي.

وبينما كنا نبتعد، قلت صدفة لكي أختبر ردّ فعل هيلدا:

«وددت لو أغتنم فرصة وجودنا هنا وأمارس الصيد أنا أيضاً».

«ماذا؟ أأنت تصطاد يا جورج؟ كيف وأنت لا تعرف عن الصيد شيئاً؟»

فأجبت:

«كلا يا هيلدا، لطالما اصطدت في الماضي».

واعترضت كعادتها، لكنّها لم تجد حجّة تواجهني بها سوى أنّها لن ترافقني ولن تراني أسلك تلك الأشياء اللزجة المقزّزة في الشصّ. ثمّ أضافت أنّ عُدّة الصيد، من قصبة وبكرة وما إلى ذلك، ستكلّف جنيهاً تقريباً. فالقصبة وحدها ستكلف عشرة شلنات. وسرعان ما استشاطت غضباً. أنتم لم تروا كيف تصير هيلدا لمّا يتعلق الأمر بتبديد عشر شلنات. تفقد صوابها وتقول:

«يا لها من فكرة مجنونة! أنبدّد كلّ هذا المبلغ من أجل شيء كهذا؟ هذا حمق! أعجب ممن يملكون الوقاحة لكي يطلبوا إنفاق عشر شلنات من أجل تفاهات كقصبة صيد؟ أيعقل أن يضيّع رجل ناضج مثلك وقته في الصيد؟ شيء مخجل! صدّقني يا جورج، أنت تتصرّف كطفل!».

انضمّ الأطفال إلى أمّهم. التصقت بي لورنا، وقالت بنبرة لا تخلو من صفاقة: «أأنت طفل يا بابا؟»، وهتف بيلي، وكان لا يزال يتعلّم الكلام: «بابا طفل»، ولم يلبثا أن راحا يرقصان وهما يردّدان: «بابا طفل! بابا طفل!».

يا لهما من طفلَين ممسوخَين!

6

فضلاً عن الصيد، كنت أهوى القراءة. لعلّني بالغت حين أعطيت الانطباع بأنّ الصيد هو الشيء الوحيد الذي يستأثر باهتمامي. ربّما لأنّه كان يحتلّ المقام الأوّل، لكنّ القراءة تأتي في المقام الثاني. لقد بدأ شغفي بها منذ كنت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري، أقصد المطالعة. كان الأمر بالنسبة إليّ في هذا السنّ كما لو أنّني اكتشفت عالماً جديداً. وما زال ولعي بالمطالعة مستمرّاً إلى اليوم. وبذلك لا تمرّ بضعة أسابيع دون أن أقرأ روايتين أو ثلاثاً. ويمكن أن أزعم أنّني من الرواد الأكثر تردّداً على مكتبة بوتس. وقد كنت حريصاً على قراءة كلّ الأعمال الناجحة التي تظهر (من قبيل: **الرفاق الطيّبون ورماح البنغال** وما إلى ذلك. وكان افتتاني بالقراءة يزيد في كلّ مرّة). وخلال سنة أو يزيد، اشتركت في نادي كتاب اليسار. وفي سنة 1918، أيّ حين أقفلت الخامسة والعشرين من عمري، تعاطيت نوعاً من القراءة المارقة بدّلت نظرتي إلى الأشياء. لكنّ لا شيء يضاهي السنوات التي شغفنا فيها فجأة بقراءة مجلّة أسبوعية رخيصة، جعلتنا نكتشف تباعاً عالم اللصوص، والأوكار التي يدخّن فيها الصينيون الأفيون، وجزر بولينيزيا، وغابات البرازيل.

على أنّ الفترة التي استمتعت فيها بالقراءة أكثر هي الممتدّة بين الحادية عشرة والسادسة عشرة من عمري. شرعت في البداية بقراءة المجلات الأسبوعية الموجّهة للأطفال من سنّي -سيّئة الطباعة، وذات أغلفة بثلاثة ألون-، ثمّ انتقلت لاحقاً إلى قراءة الكتب: **شيرلوك هولمز ودكتور نيكولا والقرصان الحديدي ودراكولا ورافلز.** هذا فضلاً على ما كان يكتبه نات غولد ورانجر غول وكاتب آخر نسيت اسمه كان يحكي قصصاً عن الملاكمة بسرعة تضاهي السرعة التي يسرد بها نات غولد مغامرات سباق الخيل. أقول في نفسي الآن لو أن والدَيّ كانا مثقّفَين، لكانا أغرقاني منذ الطفولة بكتب «قيّمة» ككتب ديكنز وثاكري وأمثالهما. أمّا في المدرسة، فدرّسونا **كونتين دوروارد.** وقد دفعني العمّ إيزيكل إلى قراءة روسكين وكارليل أحياناً. على أنّ الكتب لم يكن لها وجود البتّة في منزلنا. فأبي لم يقرأ كتاباً في حياته باستثناء الإنجيل وساعد نفسك بنفسك لصامويل سمايلز. ولم أقرأ كتاباً راقياً فيما أذكر إلّا بعد ذلك بكثير، اهتديت إليه بنفسي. وأنا غير آسف على كون الأمور اتّخذت ذلك المنحى. فقد كنت أقرأ الكتب التي تستهويني، واستفدت منها أكثر بكثير ممّا استفدته من ذلك الهراء الذي كنا نلقنه في المدرسة.

كانت الروايات المصوّرة المسلسلة الرخيصة قد بدأت تندثر وأنا لا أزال طفلاً، لذلك فأنا بالكاد أذكرها. لكنّ المجلات الأسبوعية المخصّصة للأولاد كانت كثيرة، ما زال بعضها يصدر إلى اليوم. وإذا كانت روايات بوفالو بيل قد فقدت جاذبيتها، ونات غولد تفرّق عنه قرّاؤه، فإن نيك كارتر وسيكستون بلايك ما زالا يحافظان على ألقهما. وإذا لم تخنّي الذاكرة فإنّ **جيم وماغنت** بدأتا تصدران حوالي سنة 1905. كما أنّ مجلة **بوب** كانت لا تزال في هذا الإبّان

خجولة بينما كانت **تشُمس**، التي شرعت في الصدور حوالي سنة 1903 على الأرجح، في أوج تألّقها. وكانت تصدر في هذه الفترة أيضاً موسوعة -لم أعد أذكر اسمها على وجه الدقة- في أجزاء صغيرة. والواقع أنّنا لم نتحمّس للاشتراك فيها، على أنّ بعض الزملاء في المدرسة كانوا يعيرونني بعض أعدادها القديمة. وأنا إن كنت اليوم أعرف طول المسيسيبي أو الفرق بين الحبّار والأخطبوط، أو التركيب الدقيق للنحاس الذي تصنع منه الأجراس، فالفضل يعود لتلك الموسوعة.

أمّا جو، فلم يكن يقرأ أبداً. كان من أولئك الأطفال الذين يقضون عشر سنوات في المدرسة، وحين يغادرونها يجدون أنفسهم عاجزين عن قراءة عشرة أسطر متتابعة. فمجرّد النظر إلى الحروف يصيبه بالمرض. ولقد رأيته ذات يوم يفتح أحد أعداد مجلّة **تشُمس**، ويقرأ فقرة أو اثنتين، ثمّ يعرض عنها متقزّزاً كفرس تشمّم تبناً فاسداً. وقد حاول أن يصرفني عن القراءة، على أنّ إطراء الوالدين، وثناءهما على ذكائي، شجّعني على الاستمرار. كانا فخورَين بميلي إلى القراءة و«تثقيف نفسي من الكتب» على حدّ تعبيرهما، لكنّهما كان يتضايقان -على نحو غير مفهوم- من رؤيتي أقرأ مجلات مصوّرة مثل **تشُمس** **ويونين جاك**، ويعتقدان أنّ عليّ أنّ أقرأ كتباً «تحسّن مستواي الدراسي» مع أنّهما لا يعرفان أيّ نوع من الكتب مفيد لتحسين هذا المستوى. وفي الأخير، عثرت أمّي على نسخة قديمة من **كتاب الشهداء** لفوكس، على أنّني لم أقرأه رغم رسومه الأخّاذة.

وخلال شتاء 1905، كنت أنفق قرشاً كلّ أسبوع لشراء **تشُمس**. أتابع فيها سلسلة **دونوفان الجسور**. وقد كان دونوفان مستكشفاً يبعثه ملياردير أميركي إلى كلّ أصقاع العالم لكي يأتيه منها بأشياء عجيبة

قد تكون قطع ألماس بحجم كرة غولف، عليه أن يجلبها من براكين أفريقيا، أو أنياب ماموث متحجّرة في غابات سيبيريا المتجمّدة، وقد تكون كنوز الأنكا المخبوءة في مدن بائدة في البيرو. فهو يقوم بمغامرة كلّ أسبوع يخرج منها ظافراً. وقد كان لديّ مكان مفضّل آوي إليه للقراءة: المخزن الموجود في أقصى الساحة. كان هذا هو أهدأ مكان في البيت إلا حين يُخرج منه أبي أكياس الحبوب. كان بإمكاني أن أستلقي على الأكياس المكدّسة في ذلك المكان حيث تفوح رائحة الجبس الممزوجة برائحة العنبريس، وتنتشر بيوت العناكب. وتحت الحيّز الذي اعتدت الجلوس فيه، كان ثمّة ثقب في السقف وعارضة خشبية ناتئة من الجبس. يتراءى لي كلّ ذلك كما لو أنّني جالس هناك. أرى نفسي في يوم شتوي غير بارد، مستلقياً على بطني وعدد من مجلّة **تشُمس** مفتوح أمامي. وإذا بفأر يتسلّق كيساً مثل لعبة ميكانيكية، ثمّ يتوقّف بلا حراك ويروح يحدّق فيّ بعينيه الصغيرتين السوداوين اللامعتين. عمري اثنتا عشرة سنة وأنا دونوفان الجسور. أنصب خيمتي قرب منبع الأمازون على بعد ألفي كيلومتر، وجذور السحلب العجيب الذي لا يزهر إلّا مرّة كل قرن ترقد في أمان داخل صندوق حديدي تحت سريري. وفي الغابة المحيطة بي يوجد هنود هوبي الذين يصبغون أسنانهم بالأحمر ويسلخون ذوي البشرة البيضاء أحياء. أحدّق في الفأر وهو يحدّق فيّ بدوره وسط رائحة العنبريس والجبس البارد، وأنا في خيمتي على ضفاف الأمازون، في نعيم حقيقي.

7

هذا كلّ ما في الأمر، في الحقيقة.

لقد حاولت أن أحدّثكم قليلاً عن عالم ما قبل الحرب. هذا العالم الذي خطر ببالي حين رأيت اسم الملك زوغ على واجهة الجريدة. وأنا لم أقل سوى النزر القليل، لأنّكم بلا شكّ إمّا تذكرون فترة ما قبل الحرب، ومن ثمّة لستم بحاجة إلى من يحدّثكم عنها، وإمّا أنّكم لا تذكرونها، وحينئذ ما الفائدة من أن أحدّثكم عنها؟ كلّ ما ذكرته لا يتجاوز ما وقع لي قبل بلوغي السادسة عشرة. فإلى حدود هذا السنّ، كانت كلّ أمور الأسرة تسير على نحو جيّد تقريباً. وأنا لم أشرع في اكتشاف ما يسمّيه الناس «الحياة الواقعية» إلّا قبيل عيد ميلادي السادس عشر، أو بعبارة أخرى الجانب السيّئ من الحياة.

ثلاثة أيّام بعد اكتشافي أسماك الشبوط الضخمة في القصر، عاد أبي إلى البيت في وقت الشاي مهموماً وأشدّ شحوباً من المعتاد. راح يأكل بوقار وهو بالكاد يكلّمنا. وقد كان في تلك الفترة يأكل دائماً وهو ساهم، وشنبه يعلو وينزل في حركة جانبية بسبب أسنانه المنزوعة. وبينما هممت بمغادرة المائدة، بادرني:

«اجلس لحظة يا بني، أريد أن أكلّمك في أمر أمُّك تعرفه».

كانت أمّي جالسة خلف إبريق الشاي وقد شبكت يديها على ركبتيها بوقار. واستأنف الكلام ببطء وهو يحاول أن يتخلّص من فتات خبز علق بضرس ما زال في فمه.

«لقد فكرت مليّاً يا بني. أظنّ أنّ الوقت حان لتترك الدراسة وتبحث عن عمل تكسب منه قوتك وتساعد أمّك قليلاً. لقد راسلت بالأمس السيّد ويكسي لأخبره بأنّني سأسحبك من المدرسة».

لقد تصرّف أبي بالطبع على غرار الآباء في ذلك العهد. كانوا يرتّبون كلّ شيء دون أن يطلبوا رأي أبنائهم. كان ذلك بديهياً.

واستطرد وهو يغمغم مفسّراً الوضع بارتباك. قال إنّه يجتاز «فترة عصيبة» وإنّه يواجه «صعوبات كثيرة» هذه الأيام، وبناء عليه يتعيّن عليّ أنا وجو أن نبحث عن عمل نكسب منه قوتنا. لم أكن حينئذ أعرف كيف كانت تسير أحوال المتجر، ولم أكن أبالي بذلك، إذ لم أكن من النضج بحيث أتصوّر تلك «الصعوبات». كان أبي ببساطة ضحيّة من ضحايا المنافسة. فقد مدّت إحدى سلاسل محلات بيع الحبوب بالتقسيط، تدعى سارازينز، وهي تملك فروعاً في كلّ مقاطعات لندن، إحدى أذرعها إلى بينفيلد. استأجروا محلاً في ساحة السوق قبل ستة أشهر من ذلك، وجدّدوه بأن وضعوا على جدرانه طلاء أخضر برّاقاً، وكتبوا على واجهته بحروف مذهّبة اسم الشركة. كما رسموا عليها أدوات بستنة بالأخضر والأحمر، ووضعوا إعلاناً ضخماً للبازيلاء الحلوة يشدّ الأنظار من على بعد مئتي متر. وفضلاً عن بذور الورد، أعلنوا أنهم يبيعون «كلّ ما يتعلق بالدواجن والماشية». فإلى جانب القمح والشوفان، يعرضون خلطات مرخّصة تخصّ الدجاج، وحبوباً للطيور محفوظة في أكياس أخّاذة، وبسكويت للكلاب بمختلف الأشكال والألوان، وأدوية حيوانات، ومراهم ومساحيق

مقوّية. بل يبيعون أيضاً مصائد الفئران وأطواق الكلاب والبيض المضمون وأعشاش الطيور ومبيدات الحشرات. وفي بعض الفروع يبيعون حتّى صغار الأرانب وفراخ الدجاج. أمّا متجرنا، فكان قديماً يعلوه الغبار، فضلاً عن أنّ أبي كان يرفض تنويع سلعه، ممّا جعله غير قادر على مواجهة المنافسة. وإذا كان أصحاب الضيعات الذين يأتون بعرباتهم، ويتعاملون مع تجّار التقسيط الصغار، لم يأبهوا بفرع الشركة الجديدة، إلّا أنّ أبناء الطبقة الميسورة في المنطقة، الذين كانوا يملكون العربات الكبيرة، ولديهم عدد كبير من الخيول يعتنون بها، ما كادت تمضي ستة أشهر حتّى بدأوا ينجذبون إلى متجر الشركة. وهو ما سبّب لأبي، وكذا لتاجر الحبوب الآخر، وينكل، خسائر كبيرة. لم أفهم شيئاً ممّا كان يحدث حينذاك. فقد كانت رؤيتي للأمور رؤية طفل صغير، إذ لم تكن قدمي تطأ المتجر إلّا لماماً. ولما كان أبي يطلب منّي، في أحايين متباعدة، أن أؤدّي له خدمة، كأن أساعده في نقل بعض الأكياس إلى المخزن مثلاً، كنت أتملّص ما وسعني من ذلك. ولم يكن الأولاد في مدرستي مدلّلين شأن أطفال مدارس النخبة. فهم يعرفون معنى العمل، ويقدّرون القرش حقّ قدره، لكنّهم لم يكونوا يولّون أعمال آبائهم أيّ اهتمام. فإلى حدود هذه اللحظة كانت قصبات الصيد والدرّاجات الهوائية ومشروبات الصودا تبدو لي أشدّ واقعية ممّا يجري في عالم الكبار.

كان والدي قد كلّم العجوز غريميت البقّال بشأني. كان بحاجة إلى صبيّ ذكيّ، فوافق على أن أشتغل معه على الفور. وفي الآن نفسه، قرّر أبي التخلّص من مساعده، على أن يعوّضه جو بانتظار أن يعثر على عمل قار. كان جو قد غادر المدرسة منذ مدّة، وهو يقضي وقته في التسكّع. وقد كان أبي يقول أحياناً إنّه سيشغّله في قسم

الحسابات بمعمل الجعة. بل فكّر قبل ذلك في أن يوجّهه ليصبح دلّالاً. على أنّ كل ذلك لم يتحقّق، لأنّ خط جو، وهو في السابعة عشرة من عمره، كخطّ طفل صغير. كما أنّه لا يحفظ جدول الضرب. وقد كان في هذه الفترة يعمل لدى متجر لبيع الدراجات في والتون، حيث كان من المفترض أن «يتعلّم الحرفة». فقد كانت هذه الحرفة تناسبه، بما أنّه، شأن كثير من ضعاف العقول، يملك موهبة في مجال الميكانيك. على أنه لم يكن قادراً على المواظبة على العمل وهو يرتدي تلك الوزرة الزرقاء الملطّخة بالشحم. راح يدخّن السجائر الرخيصة، ويتعارك ويشرب الخمر (وكان قد شرع في ذلك)، ويتنقّل من فتاة إلى أخرى، ويطالب أبي بالمال. كلّ هذا بينما كان أبي قلقاً مذهولاً، بل مغتمّاً. ما زال يتراءى لي برأسه الأصلع المعفّر بالطحين، وبعض الشعيرات الرمادية فوق أذنيه، بنظارته وشنبه الأشيب. لم يكن يفهم ما يحدث له. كانت أرباحه تنمو على مدى سنوات، بوتيرة بطيئة، لكن واثقة. عشر جنيهات هذه السنة، وعشرين في سنة أخرى، وفجأة، ها هي تجارته تنهار بطريقة لا تصدّق. لم يعد يفهم. لقد ورث التجارة عن أبيه. اشتغل بجدّ وصدق. تاجَر في مواد موثوقة بلا غشّ، ومع ذلك بدأت أرباحه تتناقص. لطالما ردّد وهو يحاول أن ينزع فُتاتاً عالقاً بأحد أضراسه أنّ الوضع عصيب، وأنّ التجارة تكسد. وكان يتساءل عمّا أصاب الناس. ماذا جرى؟ فالخيل لا تزال بحاجة إلى علف! وينتهي به الأمر إلى أن يقول: «قد تكون السيارات هي السبب!»، فتردّ أمّي: «تلك الآلات النتنة». كانت تشعر بالقلق، وتنبّهت إلى أن الوضع يدعو إلى أكثر من ذلك. وبينما يروح أبي يتحدّث، يظهر عليها السهوم وهي تحرّك شفتيها. كان عليها أن تقرّر: هل تطبخ يوم غد

لحم بقر مشوي مرفق بالجزَر أم فخذ ضأن؟ وباستثناء الحالات التي يكون عليها أن تشتري أشياء تدخل في اختصاصها -كأن تقتني أواني المطبخ أو ملابس-، فإنّها لم تكن تنظر أبعد من وجبة غداء اليوم الموالي. وبمقدار ما كانت أمور المتجر تسوء، كان قلق أبي يتزايد. أمّا نحن، فلم يكن أحد منّا يفهم ما كان يحدث حقّاً. كانت السنة سيّئة بالنسبة إلى أبي، إذ خسر فيها مالاً كثيراً. لكن، أكان خائفاً من المستقبل حقّاً؟ لا أظن. لا تنسوا أنّنا كنّا في سنة 1909. لم يكن يفهم ما يحدث له، ولم يكن قادراً على تخمين أنّ أصحاب سارازينز سيبيعون السلعة بثمن أقلّ ممّا يبيعها هو، وأنّهم سيتسببون في إفلاسه، وسيبتلعونه. كيف له أن يفهم ذلك؟ فالأمور لم تكن تجري بهذا النحو في شبابه. كلّ ما كان يعرف هو أنّ الوضع «عصيب»، وأنّ التجارة تكسد (وكانت هذه العبارة تدور كثيراً على الألسنة)، لكن الأمور ستتحسّن عاجلاً أم آجلاً.

لست أدري أأقول إنّني شعرت بالسرور لأنّني كنت خير عون لأبي في محنته، وأثبتّ فجأة بأنّني رجل، أتوفّر على قدرات لم تكن متوقّعة وهلمّ جرّاً، على غرار ما كانت تورد الروايات الأخلاقية قبل ثلاثين سنة، أم أقول، بخلاف ذلك، إنّني شعرت بخيبة عميقة لكوني لم أستطع إتمام دراستي، وأنّ عقلي الشاب المتعطّش للمعرفة والثقافة كان متمرّداً على العمل الآلي الخالي من الروح الذي سيفرضونه عليه، مثلما هو الشأن في روايات اليوم؟ في الحالتين معاً، سيكون الأمر مجرّد هراء. الحقيقة أنّني كنت سعيداً ومتحمّساً لفكرة أن يكون لديّ عمل، لا سيما بعد أن علمت أنّ العجوز غريميت سيدفع لي راتباً حقيقياً، اثني عشر شلناً في الأسبوع سأحتفظ منها بأربعة لمصروف الجيب. وبذلك نسيت تماماً أسماك

الشبوط الضخمة في البركة التي كانت تشغل بالي منذ ثلاثة أيام، ولم أعد أرى أيّ ضير في مغادرة المدرسة قبل الأوان، لا سيما أنّ معظم تلاميذ مدرستنا كان هذا حالهم. فقد كان بينهم دائماً من «يريد» الالتحاق بجامعة ريدينغ أو يتابع دراسته في الهندسة، أو يحلم بـ «السفر إلى لندن ليدخل عالم الأعمال»، أو بركوب البحر، ثمّ يختفي من المدرسة من دون سابق إنذار. ولا يكاد يمضي أسبوعان حتى نعثر عليه راكباً على دراجة، يوزّع الخضر.

لم تكد تمضي خمس دقائق على إخباري بأنّني سأترك المدرسة حتّى بدأتُ أتساءل عن اللباس الذي سأرتديه في العمل. ألححت فوراً على أن أحصل على «بذلة شخص راشد» مع معطف يجاري موضة ذلك الوقت. بطبيعة الحال اعترض والداي معاً قائلين «إنّهما لم يسمعا قطّ بمثل هذا الشيء». ولسبب لم أفهمه، كان آباء ذلك العهد يؤخّرون أقصى ما يمكن الاعتراف بأنّ أبناءهم صاروا راشدين. كان على الأولاد في كلّ العائلات أن يخوضوا معارك قبل أن يحصلوا على الحقّ في ارتداء طوق عالٍ، والفتيات على الحقّ في تمشيط شعورهنّ إلى الأعلى.

وهكذا ابتعد الحديث عن هموم المتجر ليتحوّل إلى مشادّة كلامية لا تنتهي. وشيئاً فشيئاً بدأ الغضب يستبدّ بأبي، وصار كلامه أقلّ اتّساقاً كما يحدث له دائماً في مثل هذه اللحظات.

«كلا، لن تحصل عليه. لن تحصل عليه أبداً. هذا أمر مفروغ منه».

هكذا لم أحصل على المعطف، وذهبت إلى العمل لأوّل مرّة مرتدياً بذلة سوداء ذات طوق كبير، بدوت فيها كفتى أخرق كبر قبل الأوان. وكان ذلك هو مصدر تذمّري الوحيد.

كان جو أشدّ أنانية منّي. كان غاضباً من كونه اضطرّ إلى مغادرة متجر الدراجات. وطوال المدّة القصيرة التي قضاها في البيت، اكتفى بالتسكّع دون أن يفكّر في مساعدة والدي الذي انزعج من ذلك.

اشتغلت لدى غريميت لمدّة ستّة أعوام. رغم شيخوخته، كان لا يزال رجلاً وسيماً، منتصب القامة، بشعر أبيض، يظنّ من يراه أنّه نسخة من العمّ إيزيكل، وإن كان أسمن منه. وهو ليبرالي أيضاً، لكن أقل حدّة. ويحظى بالاحترام في كلّ البلدة. وقد عرف كيف يعدّل مواقفه خلال حرب البوير، وصار عدوّاً لدوداً للنقابات العمالية. طرد ذات يوم صبيّاً من العمل لأنّه عثر لديه على صورة لكير هاردي، داعي الاشتراكية. وكان أيضاً عضواً في جوقة الكنيسة، وله تأثير كبير بين أفراد طائفته. أمّا عائلتي فكانت تنتمي إلى كنيسة إنجلترا التي يكفر بها العمّ إيزيكل. وقد كان العجوز غريميت عضواً بالمجلس البلدي أيضاً، ويضطلع ببعض المسؤوليات في الحزب الليبرالي. كان دور البقال المستقل الذي يلعبه يتّسم بطابع خرافي، بلحيته البيضاء وكلامه المنمّق حول حرّية المعتقد، وإعجابه العلني بوليم غلادستون، ورصيده البنكي السمين وصلواته المرتجلة التي كان يسمعها من يمرّ بجانب الكنيسة المعمدانية. بإمكانكم أن تتصوّروا كيف كان يتصرّف:

«جيمس!».

«نعم سيّدي».

«هل أضفت الرمل للسكّر؟».

«نعم سيدي».

«وهل أضفت الماء للدبس؟».

«نعم سيدي».

«تعال لتصلّي إذاً».

الله وحده يعلم كم مرّة سمعته يهمس بهذا الكلام في المتجر. وقد كنّا في الواقع نبدأ نهارنا بالصلاة حتّى قبل أن نبدأ العمل. لا أريدكم أن تتخيّلوا أنّ العجوز غريميت كان يضيف الرمل إلى السكّر. كان يعلم أنّ مثل هذا التصرّف قد ينقلب عليه. لكنّه كان يفهم في الأعمال، وكان بين زبائنه نخبة بينفيلد وضواحيها. وكان لديه ثلاثة مساعدين: الصبي المكلّف بالسخرة، وسائق العربة الذي ينقل السلع إلى البيوت، وابنته -الأرملة- المكلّفة بالمحاسبة. اشتغلت في السخرة للأشهر الستّة الأولى، ثمّ غادر أحد المساعدين ليستقرّ في ريدينغ فحللت محلّه في المتجر، وارتديت الوزرة البيضاء. تعلّمت كيف أحزم العلب، وأملأ الأكياس بزبيب كورينثوس، وأطحن البنّ، وأقطّع لحم الخنزير المدخّن وأشحذ السكاكين وأكنس الأرضية وأنفض الغبار عن البيض من دون كسره، وأبيع وجبة رديئة على أنّها جيّدة، وأمسح زجاج النوافذ، وأقدّر وزن قطعة جبنة بمجرّد النظر، وأفتح صناديق التلفيف، وأقطّع الزبدة إلى قطع جذابة. ولعلّ الأصعب من ذلك هو تذكّر مكان كلّ سلعة.

لا أذكر البقالة بالدقة نفسها التي أذكر بها صيد السمك، لكنّ ذاكرتي لا تزال تحتفظ بقدر لا بأس به من الأشياء. ما زلت أذكر كيف أعالج الخيط بمهارة بأصابعي حتّى أنّك لو وضعتني أمام آلة لتقطيع قدّيد الخنزير، لتدبّرت أمري بشكل أفضل ممّا لو تضعني أمام آلة كاتبة. وأستطيع أن أحدّثك بتفصيل عن مختلف أنواع الشاي الصيني، وعن مكوّنات الزبدة النباتية، وعن متوسّط وزن البيض، وعن ثمن أكياس الورق إن اشتريتها بالألف.

قضيت خمس سنوات على هذه الحال: شابّ رشيق، بوجه مستدير أحمر وشعر أشقر (مدهون وممشّط إلى الخلف)، يتحرّك بنشاط وخفّة خلف المنضدة في وزرته البيضاء والقلم فوق أذنه. يحزم أكياس البنّ بسرعة البرق، ويسارع لتلبية طلبات الزبائن: «حاضر سيّدتي! بكلّ تأكيد سيّدتي. ماذا أيضاً سيّدتي؟» بنبرة لا أثر فيها للهجة السوقية. ولم يكن العجوز غريميت يدّخر جهداً في استغلالنا، إذ كنّا نشتغل إحدى عشرة ساعة في اليوم باستثناء الخميس والأحد. أمّا أسبوع أعياد الميلاد، فكان كابوساً حقيقياً بالنسبة إلينا. ومع ذلك فأنا أتذكّره بنوع من الحنين. لا تحسبوا أنّني كنت شابّاً بلا طموح. كنت أعلم أنّني لن أقضي بقيّة حياتي مساعد بقّال. كلّ ما في الأمر هو أنّني كنت «أتعلّم الحرفة». ففي يوم من الأيام، لمّا يتوفر لي المال، «سأشتغل لحسابي الخاص». هكذا كان الناس يفكّرون في تلك الفترة. لا تنسوا أنّ ذلك كان قبل الحرب، قبل الأزمة والبطالة. كان العالم يتّسع للجميع، وبإمكان كلّ واحد «أن يشتغل لحسابه الخاص»، ويفتح متجراً جديداً. وتوالت السنوات: 1909، 1910، 1911. مات الملك إدوارد، وصدرت الجرائد متّشحة بالسواد. وفتحت قاعتا سينما أبوابهما بوالتون. وبدأت تظهر أعداد كبيرة من السيارات على الطرقات، والحافلات تجوب الأرياف. وذات يوم حلّقت فوق بينفيلد طائرة يجلس داخلها شخص على شيء أشبه بالكرسي، فخرج الناس قاطبة من منازلهم مهلّلين لها. وبدأوا يتهامسون إنّ إمبراطور ألمانيا بدأ يسعى للظهور بحجم أكبر من حجمه، وأنّ الحرب آتية لا محالة. وقد كان راتبي يزيد باطّراد ليصل قبيل الحرب إلى ثمانية وعشرين شلناً في الأسبوع. كنت أدفع لأمّي منها في البداية عشرة شلنات مقابل

المأوى والطعام، ثمّ لمّا صار وضع الأسرة أشدّ سوءاً، أخذت أدفع خمسة عشر شلناً. ومع ذلك لم أشعر يوماً بأنّني غني مثلما كنت أشعر آنذاك. زاد طولي ثلاثة سنتيمترات، ونبت شنبي، وصرت أنتعل حذاء بأزرار، وألبس أطواقاً بطول سبعة سنتيمترات، وأحضر قداس الأحد ببدلة رمادية داكنة وقبّعة مدوّرة وقفّازات جلديّة أضعها بجانبي على المقعد. كنت أبدو كسيّد حقيقي، ولم تكن أمّي تخفي فخرها بي. وبين العمل وخرجات يوم الخميس والعناية بمظهري والجري وراء الفتيات، كانت تخالجني نوبات من الطموح، فأرى نفسي رجل أعمال كبيراً مثل لوفير أو وليم وايتلي. وبين السادسة عشرة والثامنة عشرة، بذلت جهوداً كبيرة من أجل «تثقيف نفسي» وتحضيرها لمسيرة مهنية في مجال التجارة. درّبت نفسي على التخلّص من اللهجة المحليّة (ذلك أن اللكنة الريفية كانت قد اختفت تقريباً من وادي التمز، ولم يعد يتحدّث بها سوى صبيان الضيعات بينما يتحدّث معظم من ولدوا بعد سنة 1890 اللهجة المحليّة). تابعت دروس التجارة بالمراسلة، وتعلّمت المحاسبة وإنجليزية المعاملات التجارية، وأتممت قراءة كتاب كلّه هراء، بعنوان **فن البيع**، وحسّنت مستواي في الحساب بل حتّى الخط. في سنّ السابعة عشرة بدأت أحرص على التفنّن في الخط، وأسهر إلى وقت متأخّر من الليل على ضوء فانوس صغير موضوع على طاولة سريري. وفي بعض الأحيان كانت تنتابني رغبة محمومة في المطالعة، فأقوم بقراءات مطوّلة، تتعلّق في الغالب بروايات بوليسية أو قصص مغامرات. وبين الفينة والأخرى كنت أقرأ من كُتب كانت تنعت بأنّها «ساخنة»، كنّا نتداولها سرّاً في المتجر (وهي في معظم الأحيان ترجمات لأعمال موباسان وبول كوك). ولمّا بلغت الثامنة عشرة،

صرت شاباً مثقّفاً. تسجّلت في مكتبة البلدة، وصمّمت على اكتشاف روايات شعبية لكتّاب أمثال ماري كوريلي وهال كاين وأنطوني هوب. وفي هذه الفترة صرت عضواً في دائرة بينفيلد للمطالعة التي كان يترأّسها القسّ، وكانت تجتمع خلال فصل الشتاء مرّة في الأسبوع من أجل مناقشة «مواضيع أدبيّة». وهكذا شرعت أقرأ، بتشجيع من القسّ، **السمسم والسوسن** لراسكن، بل تجرّأت على قراءة أشعار براونغ.

ومرّت السنوات: 1910، 1911، 1912. واستمرّت تجارة أبي في التردّي. لم تفلس تماماً، لكنّها واصلت انهيارها. وتغيّر حال والديّ تماماً بعد أن ترك جو البيت. وقع ذلك بعد وقت قصير من التحاقي بالعمل لدى غريميت.

صار جو، وهو في سنّ الثامنة عشرة، فتى فظّاً. كان عظيم الجثة، أضخم من كلّ أفراد العائلة، بكتفين عظيمتين، ورأس ضخم، ووجه عبوس، وطبع عنيد، وشنب يظهره أكبر من سنّه. حين لا يكون في الحانة، فإنّه يتسكّع قرب باب المتجر، وقد حشر يديه في جيبيه، ينظر إلى المارّة شزراً (باستثناء الفتيات بالطبع)، حتّى ليتهيّأ لهم أنّه يهمّ بالاعتداء عليهم. وإذا أراد أحد الدخول إلى المتجر، بالكاد يتململ ليفسح له الطريق دون أن يخرج يديه من جيبيه، ويهمس له خلسة: «أهذا متجر أبيك؟» هذه هي المعونة التي يقدّمها للوالد. ولمّا كان الناس يشكونه إلى أبي وأمّي، كانا يقولان بيأس: «لا نعرف كيف سنتصرّف معه». وقد كان يكلّفهما كثيراً بسبب الخمر والسيجارة التي لا تبرح فمه.

وفي وقت متأخّر من إحدى الليالي، غادر البيت، وانقطعت أخباره. كسر درج النقود، واستولى على ما بداخله. لم يكن مبلغاً

كبيراً، لكنّه يقارب ثمانية جنيهات. كان كافياً لكي يشتري بطاقة سفر رخيصة إلى أميركا. لطالما كان يحلم بالسفر إلى هناك، وأظنّه تمكّن من تحقيق حلمه. لكنّنا لم نتأكّد قطّ من ذلك. أثار الخبر ضجّة في البلدة. وكانت الرواية الأشيع هي أنّ سبب هربه هو أنّ فتاة حملت منه. كان ثمّة فتاة حبلى تدعى سالي شيفرز، تقطن في الشارع نفسه الذي يقطنه آل سيمونس، ولا شكّ في أنّ جو عاشرها، لكنّه لم يكن الوحيد. فقد عاشرت اثنا عشر نفراً من أمثاله على الأقل. ولا أحد يعرف من هو الأب من بينهم. وقد رضي الوالدان بهذه الرواية، وكثيراً ما كان يحدث لهما، أثناء أحاديثهما الخاصة، أن يلتمسا العذر لـ«الولد المسكين» الذي سرق ثمانية جنيهات، ولاذ بالفرار. كانا عاجزَين عن إدراك أنّ جو غادر البيت لأنّه لم يجد سبيلاً للعيش الكريم في بلدة ريفية، وكان عليه أن يعيش حياة خاملة، لا يفعل فيها شيئاً سوى التسكّع والعراك ومطاردة الفتيات. وانقطعت أخباره. قد تكون حياته تدهورت، وقد يكون لقي حتفه في الحرب، أو لعلّه بخير، لكنّه قرّر عدم مراسلتنا. ومن حسن الحظّ مات الوليد بعد الوضع مباشرة، وهو ما جنّب الكثير من التعقيدات. أمّا عن الجنيهات التي سُرقت، فتكتّم عنها الوالدان إلى أن طواهما التراب. فقد كان هذا في نظرهما أشنع من حكاية حمل سالي شيفرز.

لقد أهرمت مشاكل جو والدي. صحيح أنّ اختفاءه خفّف نفقاته، لكنّ فراقه شقّ عليه وجعله يشعر بالخزي. منذئذ بدأ شنبه يبيضّ، وظهره يحدودب. ولعلّ الذكرى التي احتفظت بها ذاكرتي عنه -رجل ضئيل مطموس الملامح، مجعّد الوجه، بادي القلق، بنظارته المغبرّة- تعود إلى هذه الفترة. وشيئاً فشيئاً بدأت المشاكل

المادية تحجب ما سواها. وقلّ اهتمامه بالسياسة وصحف يوم الأحد الأسبوعية، وصار يتحدّث بالخصوص عن حال التجارة التي تتدهور. وبدت أمّي كما لو أنّها تنكمش أيضاً. ما زلت أذكر كيف أنّها كانت امرأة متألّقة في طفولتي، بصدرها الضخم، وشعرها الأشقر ووجهها المشرق. أمّا الآن فتبدو أميَل إلى النحول، وأشدّ قلقاً، وأكبر من سنّها. ولم تعد بالمهابة نفسها في المطبخ، تقدّم لنا في الغالب لحم ضأن، وتستعمل الزبدة النباتية -التي ما كانت تحتمل رؤيتها في البيت سابقاً- وتبدي قلقها على ثمن الفحم.

بعد انصراف جو، اضطرّ أبي إلى تشغيل صبيان سخرة، لكنّهم كانوا صغار السنّ، بحيث لم يكن يحتفظ بهم سوى سنة أو سنتين، ولم يكونوا قادرين على حمل الأشياء الثقيلة. وقد كنت أساعده أحياناً حين أوجد في البيت، على أنّني -لأنانيّتي- لم أكن أفعل ذلك بانتظام. ما زال يتراءى لي وهو يتقدّم بمشقّة في الفناء مقوّس الظهر، لا يكاد يظهر تحت كيس ضخم، كحلزون يحمل قوقعته. يزن الكيس الهائل فيما يخيّل إليّ حوالي ستين كيلوغراماً، بحيث تنوء رقبته وكتفاه تحته حتّى أنّ وجهه يكاد يلامس الأرض. وفي سنة 1911 أصيب بفتق اضطرّه إلى قضاء عدّة أسابيع بالمستشفى، وإلى الاستعانة بشخص آخر في تسيير المتجر. وهو ما زاد من إرهاق ماليته، وأضاف ثغرة أخرى إلى رأس المال.

إنّ إفلاس تاجر صغير أمر رهيب، لكنّه يختلف عن الإفلاس الموجع للعامل الذي يطرد من عمله، ويصير عاطلاً بين عشية وضحاها. يتعلّق الأمر بتدهور تدريجي متذبذب، تخسر بضعة شلنات هنا، وتكسب بضعة قروش هناك، ويتركك فجأة زبون ظلّ وفيّاً للمتجر لسنوات، ليتحوّل إلى سارازينز بينما يشتري منك آخر بضع

دجاجات وحبوباً كلّ أسبوع. وبذلك تستمرّ في المقاومة، محافظاً على استقلالك وسيادتك، لكن، وبينما يتآكل رأس مالك، تتكالب عليك الهموم شيئاً فشيئاً، وتشتدّ ضائقتك باطّراد. يمكن أن تستمرّ على هذه الحال طوال حياتك إن حالفك الحظ. مات العمّ إيزيكل سنة 1911، مخلّفاً مئة وعشرين جنيهاً، لا بدّ أنّها مثّلت بالنسبة إلى أبي طوق نجاة. ولم يرهن تأمين حياته إلّا سنة 1913، وهو أمر لو علمت به في حينه، لكنت أدركت خطورة الوضع. كلّ ما كان يتهيّأ لي هو أنّ «تجارة أبي تعاني شيئاً من الكساد»، وأنّ الوضع «صعب»، وأنّ عليّ أن أتريّث قليلاً قبل أن أترك البيت. كنت أظنّ، على غرار أبي نفسه، أنّ المتجر سيستمرّ إلى الأبد. وكنت ألومه على فشله في إدارة تجارته. لم أكن -مثلما لم يكن هو، وجميع الآخرين- قادراً على إدراك أنّه يتّجه ببطء إلى الإفلاس، وأنّ تجارته لن تتعافى، وأنّه لو عاش حتى السبعين، لانتهى به الأمر في أحد الملاجئ.

كثيراً ما كنت أمرّ أمام متجر سارازينز، فأقول في نفسي إنّ واجهاتهم الأنيقة أفضل بكثير من واجهة متجر أبي المغبرّة، وما يعرضه من أكياس حبوب للطيور غيّرت الشمس لونها، واللافتة التي تقشرت حروفها، بالكاد يُقرأ عليها «س. بولينغ». لم يخطر ببالي أنّ شركة سارازينز كانت كدودة شريطية تلتهمه حيّاً.

كنت أزوّده أحياناً بمعلومات أستمدّها من دروس التسويق الحديث التي كنت أتابعها بالمراسلة، لكنّه لم يكن يعيرها اهتماماً. فهو قد ورث أسلوباً قديماً في التجارة، يشتغل بجدّ واجتهاد واستقامة، يبيع سلعة جيّدة، ومن ثمّة فإنّ تجارته «لن تبور»، وأنّ الحال «ستتحسن». وإذا كان قليل من التجّار من انتهى بهم المطاف

في الملاجئ في تلك الفترة، فلأنه كان ثمّة سباق بين الإفلاس والموت. وفي حالة أبي، كان السبق -ولله الحمد- للموت. وما لبثت أمّي أن لحقت به.

كانت الحياة طيّبة بالنسبة إلى من ظلّوا على قيد الحياة خلال سنوات 1911، 1912، 1913. وقد تعرّفت إلى إيلسي ووترز أواخر سنة 1912 في حلقة المطالعة التي يتعهّدها القس. وعلى الرغم من أنّني كنت أسعى، شأن بقيّة أولاد البلدة، إلى التعرّف إلى فتيات، ونجحت في معاشرة بعضهنّ، والخروج معهنّ أيام الآحاد، إلّا أنّني لم أتوفّق في إقامة علاقة قارّة مع إحداهنّ. إنّك لتجد مطاردة الفتيات، وأنت في السادسة عشرة من العمر، شيئاً غريباً؛ ذلك أنّ في كل بلدة أو مدينة يوجد مكان يذرعه الأولاد مثنى جيئة وذهاباً، وهم ينظرون إلى الفتيات، بينما يمشين هنّ أيضاً مثنى مثنى، متظاهرات بعدم الاكتراث بنظراتهم. ولا يلبث الاتّصال أن يقع بينهم، فتراهم يتابعون التنزّه رباعاً من دون تبادل الكلام. وإذا كانت أكبر صعوبة يواجهونها هي العثور على موضوع للحديث، فإنّ تلك الصعوبة تتضاعف عندما يجد الولد نفسه وحيداً مع الفتاة. لكن مع إيلسي ووترز بدا الأمر مختلفاً وإن كانت الحقيقة هي أنّني بدأت أصير راشداً.

لن أسرد عليكم قصّتنا، إن جاز الحديث عن قصّة. كلّ ما في الأمر أنّ إيلسي تشكّل جزءاً من اللوحة، لوحة «ما قبل الحرب». فقبل الحرب، كانت الأيام كلّها صيفاً. ورغم أنّني أذكر تلك السنوات هكذا، فذلك مجرّد وهم كما أسلفت. لمّا أغمض عينَيّ وأحاول أن أتذكّر فترة «ما قبل الحرب»، فإنّ ما يتراءى لي هو الطريق الأبيض المغبرّ الممتدّ تحت أشجار الكستناء، وعبق الأزهار

البريّة، والبركة الخضراء تحت الصفصاف، وصخب سد بورفورد. هنا تدخل إيلسي ووترز لتصبح جزءاً من اللوحة.

لست أدري ما إذا كانت ستعتبر جميلة بحسب معايير اليوم. فتاة طويلة القامة، بطول قامتي، بشعر ذهبي كثيف باهت، تضفره وتلويه على رأسها، ووجه دقيق الملامح، يظهر عليه لطف غريب. كانت من أولئك الفتيات اللواتي يناسبهنّ اللون الأسود، لا سيما سواد تلك الفساتين البسيطة التي يفرضون عليهنّ ارتدائها في المتجر. ورغم أنّها لندنية الأصل، فهي تشتغل لدى ليلي-وايت، البزّاز. وكانت تكبرني بسنتين تقريباً.

أنا مدين لإيلسي بأنّها علّمتني كيف أهتمّ بالمرأة، ليس المرأة إطلاقاً، بل أقصد امرأة بعينها. لمّا رأيتها لأوّل مرة في حلقة القراءة، بالكاد لاحظتها، ولكنني اضطررت ذات يوم إلى الذهاب إلى ليلي-وايت، لأنّ متجر غريميت كان بحاجة إلى ورق تلفيف الزبدة. ولعلّكم تعرفون متاجر السلع الجديدة وما تسودها من أجواء نسائية وصمت مكتوم وإنارة خافتة ورائحة الثوب الباردة وهسهسة كرات العداد وهي تتحرّك على القضيب لتحدّد الثمن. كانت إيلسي عاكفة على المنضدة تفصّل قطعة ثوب بمقصّ ضخم، ينبعث من لباسها الأسود وصدرها الناتئ شيء لا أستطيع وصفه، لكنّه موغل في الأنوثة والنعومة. من يراها يخال أنّ بإمكانه أن يضمّها ويفعل بها ما يشاء. كانت بالغة الأنوثة والنعومة، في منتهى الإذعان، من طينة أولئك النساء المطيعات اللواتي ينفّذن كلّ ما يطلبه منهنّ الرجل، رغم أنّها لم تكن ضئيلة ولا ضعيفة ولا غبيّة. كلّ ما في الأمر هو أنّها صموتة، وقادرة على إبداء قدر كبير من الرقّة والتهذيب، مثلما كنت أنا أيضاً في ذلك العهد.

قضينا معاً سنة تقريباً. وبطبيعة الحال لم يكن بإمكاننا أن نعيش معاً في بلدة مثل بينفيلد إلّا مجازاً. رسمياً، «كنا نخرج معاً» حسب التعبير الشائع حينئذ، وهو ما لم يكن يعني تماماً أنّنا خطيبَين. كان ثمّة طريق متفرّع عن طريق بينفيلد العليا، يمرّ بمحاذاة التلال، به مقطع يمتدّ مسافة كيلومتر تقريباً، مستقيم، تحفّ به أشجار كستناء عظيمة، وفي جانبه ممرّ معشوشب كانوا يسمّونه «ممشى العشاق»، كنا نذهب إليه في مساءات شهر مايو، لمّا تزهر أشجار الكستناء. ثمّ تأتي المساءات الطويلة، يمتدّ النهار لساعات بعد إنهاء العمل. لا بدّ أنكم تعرفون المشاعر التي تنتاب المرء في هذه اللحظات: شفق أزرق وهواء ناعم كالحرير يداعب الوجه. وفي بعض الأحيان، بعد ظهر أيام الآحاد، كنّا نتسلّق تلال شامفورد لننزل إلى المروج المحاذية للتمز. يا إلهي ما كان أعذب تلك السنة، سنة 1913! ما كان أجمل الهدوء والصمت والسدّ والمياه الخضراء التي تتدفق منه! أمور لن تتكرّر أبداً. أقصد ما كان يشعر به الناس حينئذ: الإحساس بأنّ الزمن ما زال ممتدّاً أمامهم، وانعدام الخوف، ذلك الشعور الذي لا بدّ أنكم عرفتموه أنتم أيضاً، ومن ثمّة لا داعي لأن أصفه لكم، أو أنّكم لم تعرفوه، ومن ثمّة لن تعرفوه إذاً أبداً حتّى لو وصفته لكم.

كان قد مضى جزء من الصيف لمّا بدأنا «نعيش معاً» حسب العبارة الشائعة. كنت في البداية أخرق وشديد الخجل لكي أدرك أنّ رجالاً آخرين سبقوني. ذهبنا بعد ظهر ذات يوم أحد إلى غابة الزان المحيطة ببينفيلد العليا. هناك لم نكن نخشى أن يرانا أحد. كانت رغبتي فيها شديدة، وكنت أدرك أنّها لم تكن تنتظر سوى أن أبادر. وخطرت ببالي فكرة: أن أذهب إلى القصر. صحيح أنّ مزاج العجوز

هودجز، بعد أن جاوز السبعين، ازداد حدّة، وأنه لن يتوانى عن طردنا، لكن بما أن اليوم يوم أحد، فلا بدّ أنه في قيلولة. تسلّلنا من فجوة في السياج، وسرنا في الطريق الضيّق بين الأشجار الذي يقود إلى البركة الكبيرة. كانت قد مرّت أربع سنوات على الأقلّ على آخر مرّة زرت فيها المكان. لم يتغيّر منه شيء: العزلة المطلقة نفسها، والأشجار الضخمة الصامتة نفسها، ومرفأ القوارب القديم المتعفّن بين الأعشاب المائية. استلقينا في منخفض بين العشب بجانب النعناع البرّي، وشعرنا بعزلة كما لو كنّا في قلب أدغال أفريقيا. لم أعد أذكر كم قبّلتها، ثمّ قمت ورحت أتجوّل هنا وهناك. كانت شهوتي فيها شديدة، لكن التوجّس منعني. على أنّ -وهو أمر غريب- فكرة أخرى خطرت ببالي. قلت في نفسي فجأة إنّ سنوات مضت وأنا أتوق للعودة إلى هنا دون أن يتأتّى لي ذلك. الآن وقد سنحت الفرصة، سيكون من الغباء عدم الذهاب إلى البركة الأخرى وإلقاء نظرة على أسماك الشبوط الضخمة. إن أنا لم أغتنمها، سأندم عليها طوال حياتي. نعم، لماذا تأخّرت كلّ هذه المدّة في العودة إلى هنا؟ لم أنسَ أسماك الشبوط، بل أزحتها وأخفيتها في زاوية من ذاكرتي بحيث لا يعلم بوجودها أحد، لكنّني سأعود وأمسك بها ذات يوم. فهي في متناول يدي. اتّجهت إذاً إلى البركة، لكنّني ما كدت أخطو بضع خطوات حتّى قفلت راجعاً. كان عليّ أن أخترق دغلاً من العليق والأعشاب الطويلة المتعفّنة وأنا أرتدي لباس يوم الأحد: البدلة الرمادية الداكنة والقبعة المدوّرة والحذاء المزرّر والطوق الذي يكاد يخفي أذني. هكذا كان الناس يلبسون بعد ظهر يوم الأحد حين يخرجون للنزهة. وشعرت من جديد برغبة لا تقاوم في إيلسي، فعدت أدراجي، وجلست بجانبها لحظة. كانت مستلقية على العشب

وقد وضعت ذراعها على وجهها، ورغم أنها شعرت بعودتي، لم تتحرّك. كانت في ثوبها الأسود. . . ماذا أقول لكم؟ هادئة ومنقادة، كما لو أنّ جسدها صنع من مادة لدنة، تستطيع أن تفعل بها ما تشاء. وفجأة تغلّبتُ على خوفي، فرميت قبّعتي على العشب، وجثوت على ركبتي وضممتها إليّ. ما زلت أذكر رائحة النعناع البرّي. وإذا كانت تلك هي أوّل مرّة أعاشر فيها امرأة، فإنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إليها. ومع ذلك لم أفوّت الفرصة كما قد تتخيّلون. هكذا جرت الأمور. ونسيت تماماً أسماك الشبوط، وبالكاد تذكّرتها في السنوات الموالية.

وبعد سنة 1913 حلّت سنة 1914، وتحديداً ربيع سنة 1914. أزهرت أشجار البرقوق أوّلاً، ثمّ الزعرور ثمّ أشجار الكستناء. وبعد ظهر أيام الآحاد، على طول الطريق المفضية إلى القصر، يهبّ الريح على الأعشاب البرية الطويلة، فتتماوج وتجتمع في كتل كثيفة أشبه بشعر امرأة. وأمسيات يونيو التي تبدو من طولها كما لو أنّها لا تنتهي، وممشى العشاق، ونعيق البوم، وجسد إيلسي الملتصق بي. وقد كان شهر يوليو هذه السنة بالغ الحرارة. كانت أيام العمل في المتجر خانقة، وكم كانت رائحة الجبن والبنّ المطحون قويّة! لكن ما إن يحلّ المساء، حتّى ينتعش الجو، وتفوح رائحة الأزهار البريّة ممزوجة برائحة تبغ الغليون في الممشى الموجود خلف المساكن، ونعومة الغبار تحت الأقدام، وطيور السبد المتأهّبة للانقضاض على الخنافس.

لماذا، يا إلهي، لا يحقّ لنا التعبير عن مشاعرنا اتّجاه ما «قبل الحرب»؟ أنا شديد التعلّق بهذه الفترة، وأنتم أيضاً، إن أنتم تذكرتموها. من المؤكّد أنّنا حين نغوص في الماضي، لا نتذكّر منه

إلّا اللحظات الطيبة. وهو أمر يصدق حتّى على الحرب. لكن من المؤكد أيضاً أنّ الناس كان لديهم آنذاك شيء يفتقدونه الآن.

ما هو هذا الشيء يا ترى؟ هو ببساطة أنّ المستقبل لم يكن يبدو لهم مرعباً، ليس لأن حياتهم كانت أفضل ممّا هي عليه اليوم، بل كانت في الواقع أقسى. كان الناس يكدحون أكثر، وكان عيشهم أضنك، ونهايتهم أدعى للحزن. كان عمّال الفلاحة يشتغلون ساعات طوالاً من أجل أربعة عشر شلناً في الأسبوع، وكانوا ينهون حياتهم منهكين، مصابين بشتّى العلل، يعتاشون على تقاعد لا يتجاوز خمسة شلنات، وبضعة قروش تتصدق بها الكنيسة عليهم من حين إلى آخر. وقد كان ما يسمّونه الفقر «المحترم» أفظع من ذلك. لمّا أفلس واتسون، وهو بزّاز كان يملك متجراً في طرف الشارع، بعد سنوات من المقاومة، لم يتبقَّ له سوى جنيهين وتسعة شلنات وستّة قروش، ولا شيء غيرها، فمات على الفور بسبب ما كانوا يسمونه «اضطراباً هضمياً». لكنّ الطبيب لم يتستّر على أنّه من الجوع، مع أنّه ظلّ يلبس معطفاً طويلاً حتّى آخر أيامه. والعجوز كريمب الذي اشتغل لمدّة خمسين سنة لدى الساعاتي -وكان خبيراً بدقائق المهنة- حتّى أصابه العمى. أخذوه إلى الملجأ بينما مضى أحفاده يصرخون وينتحبون. وظلّت زوجته تشتغل في البيوت، وتجاهد من أجل أن ترسل له مصروف الجيب، شلنّاً فضّياً واحداً كلّ أسبوع. كان المرء يرى أشياء مروعة تحدث من حوله. تجّار على حافة الإفلاس، أناس يموتون بالتدريج بسبب أورام خبيثة أو أمراض كبد عضال، أزواج مدمنون على الكحول يقسمون كل اثنين على أنهم لن يعودوا إلى الشرب ثانية، لكنّهم يعودون في السبت الموالي، بنات يرين حياتهنّ تتحطّم إلى الأبد بسبب طفل أنجبنه سِفاحاً. ولم تكن في المنازل

حمّامات، وفي صباحات الشتاء، على المرء أن يكسر الجليد في الأحواض. أمّا في أيّام الصيف الحارة، فتفوح أزقة الأحياء الفقيرة برائحة تثير الغثيان. وكانت المقبرة تحتلّ وسط المدينة، بحيث لا يكاد يمضي يوم دون أن يذكّروك بمثواك الأخير. فعلامَ كان يعتمد الناس إذاً لكي يستمرّوا في الحياة؟ على شعورهم بالأمان، رغم هشاشته، أو بعبارة أدقّ على شعور بالاستمرار. كانوا يدركون جميعاً أنّهم سيموتون ذات يوم، وأعتقد أن قلّة منهم كانوا يحسّون بأنّهم سيفلسون. لكن ما لم يكونوا يعرفونه هو أنّ نظام الأشياء يمكن أن يتغيّر. مهما يقع، فالحياة ستستمرّ كما هي. لا أظنّ أنّ ما يسمّى بالإيمان الديني، الذي كان لا يزال شائعاً حينئذ، كانت له يد في ذلك. صحيح أنّ معظم الناس يتردّدون على الكنيسة، على الأقلّ في الأرياف. وقد دأبت أنا وإيلسي على حضور القداس رغم أنّنا نعيش في الرذيلة على حدّ تعبير القس. إن سألت الناس ما إذا كانوا يؤمنون بوجود حياة بعد الموت، سيجيبونك في عمومهم بالإيجاب، لكنّني لم ألتقِ أحداً قط أعطاني الانطباع بأنّه يؤمن حقّاً بحياة أخرويّة. كان الناس بالنسبة إليّ يؤمنون بهذه الأشياء مثلما يؤمن الأطفال بـ«بابا نويل». لكن في الفترات التي تبدو فيها الحضارة مستقرّة وهادئة، حين تبدو قائمة على أُسُس مكينة، كما يقف الفيل على قوائمه، عندئذ تفقد أشياء، من قبيل الحياة الأخرويّة، أهميتها. فالناس يسترخصون حياتهم إن علموا أنّهم يموتون لتحيا الأشياء التي يقدّرونها. يقولون في هذه اللحظات: لقد تركت حياتي خلفي، وبدأ ينال منّي التعب، وحان الأوان لأعانق الثرى. وإذا كانت حياتهم الفردية قد انتهت، فإنّ أسلوب حياتهم يستمرّ بخيره وشرّه. لن يشعروا بالأرض تنخسف تحت أقدامهم.

كان أبي يتّجه إلى الإفلاس ببطء دون أن ينتبه إلى ذلك. بالنسبة إليه التجارة كاسدة، والوضع عسير، والوفاء بالنفقات صار أصعب فأصعب. هذا كلّ ما كان يظهر له. أحمد الله أنّه لم يعرف قط أنّه أفلس، ومن ثمّة لم يعرف قطّ خزي العوز. فقد مات في بداية سنة 1915 بسبب زكام تحوّل إلى التهاب رئوي. ظلّ يؤمن إلى آخر أيّامه أنّ الإنسان بالكدّ وحسن التدبير والاستقامة لا يمكن أن يخيب. ولا بدّ أن ثمّة كثيراً من التجّار الصغار الذين عاشوا على هذا الاقتناع، حملوه معهم إلى الملاجئ، ورافقهم إلى مثواهم الأخير. حتّى لوفغروف صانع السروج لم ينتبه إلى أنّه صار مثل الخرتيت، كائناً من كائنات العهود الغابرة، بعد ظهور السيارات والشاحنات. وأمّي نفسها لم تعش طويلاً لكي تعرف أنّ الحياة التي رسموها لها -حياة الفتاة المحتشمة، بنت التاجر الورع، وحياة زوجة التاجر الصغير الذي عاش حياة تقيّة في ظلّ حكم الملكة فيكتوريا الطيّبة- حياة انتهت إلى الأبد. رغم أنّ الوضع كان صعباً، والتجارة كاسدة، وأبي قلق، إلّا أنّ الحياة كانت تتّبع مجراها كالمعتاد. كان نمط العيش الإنجليزي بمنأى عن التغيير. ستستمرّ نساء نشأن على التقوى في طبخ فطائر تصاحب لحم البقر المشوي المسمّى يوركشاير بودينغ على مواقد فحم ضخمة، ويواصلن ارتداء ملابس داخلية صوفية، والنوم على الريش، وصنع مربّى البرقوق في يوليو، وتحضير المصبّرات المخلّلة في أكتوبر، وتقرأن بعد الظهر مجلات نسائية بينما يتردّد طنين الذباب. كلّ ذلك في وسط عائلي دافئ، وحياة ناعمة تجري على إيقاع الشاي والدوالي والقصص ذات النهايات السعيدة. لا أقصد أنّ والديّ لم يعرفا أيّ تغيُّر حتّى نهاية حياتهما. عاشا صدمات قادتهما أحياناً إلى الإحباط. لكنّهما لم يعيشا طويلاً

لكي يكتشفا أنّ كلّ ما عاشا من أجله لم يعد يصلح إلّا للقمامة. كان الأمر يتعلّق بنهاية عهد، يذوب كلّ شيء من أشيائه في دوّامة رهيبة، وهما لا يعيان ذلك. كانا يعتقدان أنّ نمط حياتهما سيستمرّ إلى الأبد، ولا يمكن أن يلاما على ذلك. فالأمور كانت تجري على هذا النحو.

ثمّ أوشك يوليو على النهاية، وأدرك الناس، حتّى في بينفيلد، أنّ شيئاً ما يجري، وأنّ حالة من الإثارة الغامضة تخيّم منذ أيام، والصحف تنشر مقالات لا نهاية لها، كان أبي يحضرها إلى البيت ليقرأها على أمّي. ثمّ ظهرت فجأة ملصقات في كل مكان كتب عليها:

ألمانيا تصدر إنذارها الأخير
وفرنسا تستعدّ وتتعبّأ

وعلى امتداد أيّام (لعلّها أربعة، لم أعد أذكر على وجه التحديد)، ساد جوّ غريب خانق، أشبه بذاك الذي يسبق العاصفة. لزم الناس الصمت، وراحوا ينتظرون، كما لو أنّ إنجلترا قاطبة ترهف السمع وتحبس أنفاسها. ما زلت أذكر أن الحرّ كان خانقاً حتّى أنّنا بالكاد كنّا نستطيع العمل في المتجر، مع أنّ كلّ من كان يملك قرشاً من الجيران، هرع لكي يتزوّد بالمصبّرات والطحين ورقائق الشوفان. أمّا نحن، فكنّا نتصبّب عرقاً وننتظر، بحيث أنّ من يرانا يعتقد أنّ الحمّى صرفتنا عن الاهتمام بالزبائن. وفي المساء، كان الناس يذهبون إلى محطة القطار لكي يتخاطفوا على آخر الجرائد القادمة من لندن. في عصر يوم من الأيّام، جاب طفل الشارع الرئيس باندفاع محمّلاً بالصحف، فوقف الناس عند عتبات بيوتهم

يتصايحون من رصيف إلى آخر: «دخلنا الحرب! دخلنا الحرب!»، وأخرجَ الفتى ملصقاً من جرابه وألصقه على واجهة متجر غريميت، كتب عليه:

إنجلترا تعلن الحرب على ألمانيا!

اندفعنا إلى الرصيف، ومضى المساعدون الثلاثة يهتفون ويصفّقون، وهتف معهم الجميع وصفّقوا بينما ظلّ العجوز غريميت، الذي استفادت تجارته كثيراً من الذعر السائد منذ أيام، يعارض الحرب انسجاماً مع مبادئه الليبرالية. وأعلن أنّها صفقة قذرة.

بعد ذلك بشهرين، وجدت نفسي مجنّداً، وبعد سبعة شهور، حللت بفرنسا.

8

لم أُصب إلّا في أواخر سنة 1916.

خرجنا من الخنادق، وسرنا إلى الخلف في طريق بطول كيلومتر ونصف تقريباً، يفترض أنّه آمن. لكنّ الألمان كانوا قد صوّبوا فوهات مدافعهم عليه قبل ذلك بلحظات. ومن دون سابق إنذار، شرعوا يقذفوننا بقنابل من العيار الثقيل، لكنّهم لم يكونوا يطلقون سوى طلقة كلّ دقيقة. كنّا نسمع الصفير المعتاد يعقبه انفجار في مكان ما من الحقل الموجود على اليمين. وأظنّ أنّ القذيفة الثالثة هي التي أصابتني. علمت أنّ اسمي منقوش عليها بمجرّد سماع صفيرها. كانت كما لو أنّها تقول لي: «أنا لك أيها الوغد!». لم يستغرق ذلك سوى ثلاث ثوانٍ تقريباً، ثمّ سمعت الانفجار.

شعرت كما لو أنّ يداً ضخمة من الهواء جرفتني، ورمت بي في خندق فانفجرت بدوري وسط كومة من علب المصبّرات والنفايات والأسلاك الشائكة الصدئة وعبوات القنابل الفارغة وقذارات أخرى. ولمّا سحبوني من هناك وأزالوا عنّي الأوساخ، وجدوا أنّ إصابتي لم تكن بليغة: بعض الشظايا الصغيرة انغرزت في أسفل ظهري وبطتَي ساقَيّ. لكن من حسن حظّي أنّ ضلعاً من أضلاعي انكسر عند

سقوطي، وهو سبب كافٍ لإعادتي إلى إنجلترا. وهكذا قضيت ذلك الشتاء في مستشفى ميداني قرب إيستبورن.

لعلّكم ما زلتم تذكرون تلك المستشفيات الميدانية أيّام الحرب؟ صفوف طويلة من الأكواخ أشبه بخِمَمَة دجاج على تلك التلال المتربة الباردة -كان الناس يسمّونها «الساحل الجنوبي»- حيث ينفخ الريح باستمرار من كلّ الاتجاهات في الآن نفسه، بينما تتجوّل جماعات من الأشخاص بلباسهم القطني الأزرق، وربطات أعناقهم الحمراء باحثين عبثاً عن مكان يقيهم من الريح. ومن وقت إلى آخر، كان تلاميذ مدرسة إيستبورن يأتون في طوابير مثنى مثنى لكي يقدّموا للجنود الجرحى حلوى بالنعناع وسجائر. اقترب صبيّ في حوالي الثامنة من جماعة من جرحى كانوا جالسين على العشب، وفتح علبة سجائر، ومضى يناول كلاً منهم سيجارة باحترام تماماً كما كان سيتصرّف مع قردة في حديقة حيوان. وكان كلّ من يلمسون في أنفسهم القدرة على المشي، يقضون معظم وقتهم يتسكّعون على التلال بأمل العثور على فتيات. ولم يكن عددهنّ كافياً. ومع ذلك لم تكن شجرة من أشجار أجَمة موجودة أسفل المعسكر لا يجلس تحتها، بين العصر والمغرب، عشيقان أو أكثر، لا سيما إذا كانت شجرة عظيمة. ما أذكره على وجه الخصوص من هذا العهد، الريح القارص وأنا جالس على نبات الجولق، أصابعي مخدّرة من البرد بحيث لا أستطيع ثنيها، وكذا مذاق النعناع في فمي. هذه هي الذكريات التي يعود بها الجندي من الحرب. لكن مهما يكن، فقد جنّبني ذلك حياة الجبهة. قبل إصابتي، كان العقيد قد اقترحني لأترقّى إلى رتبة ضابط، إذ كانوا في تلك الفترة بحاجة ماسة إلى الضبّاط، وكلّ أولئك الذين لم يكونوا أميين، كان

بوسعهم أن يترقّوا. هكذا بعثت من المستشفى إلى معسكر تدريب في كولشستر.

إنّ أثر الحرب على الناس لشيء غريب. قبل أقلّ من ثلاث سنوات، كنت مساعد بقّال، نشيطاً، مستنداً على المنضدة في وزرتي البيضاء، وأنا أردّد: «حاضر سيّدتي! بكل تأكيد سيّدتي. ماذا أيضاً سيّدتي؟»، تنتظرني حياة بقّال، بحيث ما كان بالإمكان أن تخطر على بالي حتّى في الخيال فكرة أن أصير ضابطاً. وإذا بي أجد نفسي ضابط صفّ هناك، بقبّعة وطوق أصفر وسط حشد من الضبّاط الاحتياطيين فضلاً عن الآخرين. وهذا هو ما كنت أودّ الوصول إليه في الواقع: لم يعد شيء يثير الاستغراب في تلك الأيام.

كان الناس يشعرون كما لو أنّهم في قبضة آلة ضخمة، ويحسّون بأنّهم مسلوبو الإرادة فيما يفعلون، لكنّهم لا يملكون، في الآن نفسه، أيّ رغبة في المقاومة. ولولا هذا الشعور، لما دامت الحرب أكثر من ثلاثة أشهر. ستتفرّق الجيوش، ويعود الجنود إلى ديارهم. لماذا تطوّعت؟ ولماذا تطوّع مليون من الأغبياء الآخرين؟ فعلنا ذلك مازحين إلى حدّ ما، ثمّ من أجل البلد، من أجل ألّا يتحوّل البريطانيون إلى عبيد وما إلى ذلك من هراء. لكن، كم دام كلّ ذلك؟ معظم من عرفتهم نسوا كلّ هذا الكلام الفارغ حتّى قبل أن يصلوا إلى فرنسا. ففي الخنادق، لم يكن الرجال وطنيين، ولا يرغبون في إذلال الإمبراطور الألماني، ولم تكن تعنيهم بلجيكا الباسلة، ولا الألمان الذين يغتصبون راهبات طيّبات في بروكسل على الطاولات (يتمُّ الاغتصاب دائماً «على الطاولات»، كما لو أن ذلك يجعله أفظع). على أنّه لا يخطر ببالك قط أن تلوذ بالفرار، وتنجو بجلدتك. لقد استحوذت عليك الآلة، وصارت قادرة على أن تفعل

بك ما تشاء. ترفعك وتضعك في أمكنة لم تحلم بها أبداً، وحتّى لو أنّها وضعتك على سطح القمر، لما استغربت ذلك.

لقد انقطعت صلتي بحياتي الماضية يوم انخرطت في الجندية، كما لو أنّني قطعت كلّ الحبال التي كانت تشدّني إليها. أظنّكم لن تصدقوا إذا قلت لكم إنّني لم أعد، منذ ذلك اليوم، إلى بينفيلد إلّا مرّة واحدة. وكان ذلك لحضور جنازة أمّي. يبدو الأمر لا يصدّق الآن، لكنّه كان في ذلك العهد عادياً. وهو أمر مردّه، في جانب، إلى إيلسي التي توقّفتُ عن مراسلتها بعد شهرين أو ثلاثة. لا شكّ في أنّها تعرّفت إلى شخص آخر. ولولا أنّني لم أعد أرغب في لقائها، لكنت طلبت إجازة، وذهبت لزيارة أمّي التي كانت متذمّرة من التحاقي بالجيش، رغم فخرها بكون ابنها لبس البزّة العسكرية.

لمّا توفي والدي سنة 1915، كنت في فرنسا. ولن أبالغ إذا قلت إنّ موته يؤلمني الآن أكثر ممّا آلمني حينئذ. حين تلقّيت الخبر آنذاك، لم أعره اهتماماً. فقد كنت في تلك الحال من الفتور واللامبالاة التي ينتهي إليها كلّ من يعيش في الخنادق. أذكر أنّني زحفت إلى أن بلغت مدخل المخبأ لكي أقرأ الرسالة. لن أنسى آثار دمع أمي على الورق والألم في ركبتَيّ ورائحة الوحل. كان الجزء الأعظم من تأمين أبي على الحياة مرهوناً، لكنّه ترك قليلاً من المال في البنك، وأصحاب شركة سارازينز سيشترون المتجر، وسيتكرّمون بدفع قليل من المال لأمّي، وبذلك يتوفّر لها مئتا جنيه تقريباً، فضلاً عن الأثاث. ستقطن مؤقتاً في دوكسلي على بعد بضعة كيلومترات من والتون مع ابنة عمّها، زوجة مالك صغير استفاد من الحرب، وحقّق بعض النجاح. كان ذلك «مؤقّتاً»، بحكم أنّ كلّ شيء صار مؤقّتاً في تلك الأيام. في العهد السابق -وهو عهد لم تمضِ عليه

في الواقع سوى سنة- كان سيبدو ذلك كارثة حقيقية. يموت الأب، ويُباع المحل، وتجد الأمّ أنّ كل ما تملك لا يتعدّى مئتي جنيه. كان الأمر سيعدّ مأساة من خمسة عشر فصلاً تنتهي بقبر جماعي. لكنّ الحرب، وكذا الشعور بأنّ الإنسان صار مسيّراً، حجبا كلّ شيء. وبالكاد يذكر الناس أشياء من قبيل الإفلاس والملجأ. وهذا الوضع ينطبق على أمّي التي لم تكن لديها عن الحرب إلّا فكرة غامضة.

بعد أن تغيّبت عنها سنتين، جاءت لزيارتي بمستشفى إيستبورن، فراعني مقدار ما تغيّرت. بدت ذابلة ومتغضّنة. قد يكون ذلك تهيّأ لي لأنني كبرت وسافرت كثيراً بحيث غدا كلّ شيء يبدو لي أصغر من حجمه. لكنّ الراجح أنّها هزلت وشحب لونها. راحت تتحدّث بطريقتها القديمة عن الخالة مارتا (ابنة عمّها التي تأويها)، والتحوّلات التي طرأت على بينفيلد منذ بداية الحرب، وعن كلّ الأولاد الذين «غادروا» (تقصد تجنّدوا)، وعن آلام المعدة التي تتفاقم، وعن قبر أبي، وقالت إنّه بدا مهيباً على سرير الموت. كانت تلك هي طريقتها في الحديث، طريقة عرفتها لسنوات، ومع ذلك بدت لي أشبه بكلام الأشباح. لم أحفل بذلك لأنّني عرفتها امرأة عظيمة حامية، أشبه بصدر سفينة، ورحيمة كدجاجة تحضن فراخها. أمّا الآن فلم تعد سوى عجوز ضئيلة تتدثّر بالسواد. كلّ شيء تغيّر وفقد رونقه. كانت تلك هي آخر مرّة أراها على قيد الحياة. تلقّيت وأنا في معسكر التدريب بكلوشستر برقية أخبرتني أن المرض اشتدّ بها، فتقدّمت في اليوم نفسه بطلب إجازة لمدّة أسبوع. لكنّ الأوان فات. حين وصلت إلى دوكسلي، كانت قد فارقت الحياة. ظنّ الجميع أنّها مصابة بتقرّح في المعدة بينما كانت تعاني من ورم. وقد

أودت بها ضربة برد مفاجئة. حاول الطبيب أن يواسيني بأن قال لي إنّ ورمها كان «حميداً»، وهي صفة بدت لي غريبة.

دُفنت بجوار أبي، وكانت تلك هي آخر مرّة أرى فيها بينفيلد. كانت البلدة قد تغيّرت كثيراً خلال السنوات الثلاث التي غبت عنها. بعض المتاجر أغلقت أبوابها، بينما غيّرت أخرى أسماءها ومُلّاكها. معظم رفاقي القدامى غادروا، وبعضهم وافته المنية. فسيد لوفغروف قُتل في منطقة السوم، وجانجر واتسون، عامل المزرعة وأحد أفراد عصابة اليد السوداء، مات في مصر. وأحد المساعدَين اللذين اشتغلت معهما في متجر غريميت فقد ساقَيه. والعجوز لوفغروف أغلق متجره، واستقرّ في بيت ريفي معتمداً على مدخول تأمينه الهزيل قرب واتسون. أمّا غريميت، فكسب مالاً كثيراً، وتحوّل إلى وطني، وأصبح عضواً في اللجنة المحلية التي كانت تحقّق مع من يرفضون التجنيد. ولعلّ ما كان يثير الانتباه في المدينة، وجعلها تبدو كئيبة مهجورة، هو خلوّها تماماً من الخيل. فكلّ الأحصنة الجيّدة صودرت منذ زمن بعيد، ولم يبقَ سوى عربة المحطة، والدابة التي تجرّها ما كانت تستطيع الوقوف لولا وجود العريش.

تجوّلت قبل الدفن بساعة في البلدة مرتدياً الزي العسكري، أحيّي الناس. ومن حسن حظّي أنّني لم أصادف إيلسي. رأيت كلّ التغيُّرات التي حصلت، وفي الآن نفسه لم أكن أرى شيئاً. كان بالي مشغولاً بأشياء أخرى، لا سيما متعة أن يراني الناس في بزّة الضبّاط، وشارة الحداد السوداء التي بدت جميلة على اللون الكاكي والطماق. ما زلت أذكر جيّداً أنّني ظللت أفكر، وأنا واقف بجانب القبر، في قماطي. وبينما شرعوا في إهالة التراب على النعش، انتبهت فجأة إلى معنى أن ترقد أمّي تحت مترين من التراب.

وشعرت بغتة بشيء ينقبض بداخلي، وبوخز في أنفي وعيني، لكن رغم ذلك لم يخرج القماط من بالي.

لا تظنّوا أنّني لم أحزن على وفاة أمي. لقد حزنت. لم تكن مشاعري متبلّدة كما هو الأمر في الخندق. لكن ما لم أعبأ به، ولم أفهمه إطلاقاً، هي نهاية الحياة كما عرفتها، الحياة القديمة. بعد مراسم الدفن، ركبت الخالة مارتا، التي كانت فخورة بابن أختها «الضابط»، الحافلة إلى دوكسلي بينما استقللت أنا العربة لألحق بقطار لندن، ومنها أعود إلى كولشستر. مررنا أمام متجر أبي. كان مغلقاً وواجهته مسودّة من الغبار، وقد أحرقوا اللافتة ليزيلوا منها اسم «س. بولينغ». أجل، ها هنا عشت طفولتي ثمّ مراهقتي. هنا حبوت على أرضية المطبخ وعرفت رائحة العنبريس، وقرأت **دونوفان الجسور**، وأنجزت واجباتي المدرسية، وخلطت عجينة الصيد، وأصلحت ثقوب إطارات الدراجة وارتديت أوّل طوق عالٍ. كان مكاناً راسخاً وأبدياً كأهرامات الفراعنة، أمّا الآن فمن المحال أن تطأه قدمي. لقد اختفى كلّ شيء: أبي وأمّي وجو والصبيان المساعدان والكلب العجوز نيلر وسبوت الذي جاء بعده، والعصفور المغرّد، والقطط وفئران المخزن، ولم يبقَ غير الغبار. وكلّ ذلك لم يكن يعنيني. صحيح أنّني كنت حزيناً على موت أمّي، بل على أبي أيضاً، لكن فكري كان مشغولاً بأشياء أخرى. كنت فخوراً بأن يراني الناس في العربة، وهو أمر لم أعتد عليه، فخوراً بقماطي وبزّة الضابط البعيدة كلّ البُعد عن بذلة الجنود. وكنت أفكر في الرجال الآخرين في كولشستر وفي الستين جنيهاً التي تركتها لي أمي، وحمدت الله على أنّني لم أصادف إيلسي.

تحدُث للناس خلال الحرب أمور عجيبة، والأعجب هو أنّها

مثلما يمكن أن تقتلك، تستطيع أن تنجيك من الموت. تشعر بطوفان جارف تحسبه سيقودك إلى حتفك، لكنّه يتوقّف فجأة لتجد نفسك حيّاً، تقوم بأعمال تافهة لم تخطر لك يوماً على بال مقابل راتب أفضل. كانت ثمّة فيالق من العمال يشقّون طرقاً في الصحراء لا تفضي إلى أيّ مكان، وأشخاص نُسوا في جزيرة من الجزر وسط المحيط، مهمّتهم الوحيدة هي تحديد مواقع سفن ألمانية أغرقت منذ سنوات، ووزارات تشغّل جيوشاً من النسّاخ والكتّاب يبقون فترة طويلة بعد انتهاء مهامّهم، لا لشيء إلّا لجمود الإدارة. وكان الناس يُحشرون في وظائف لا معنى لها، ويُنسى أمرهم لسنوات طويلة. وهذا ما وقع لي، ولولا ذلك لما كنت بين الأحياء. لكن ما حدث بعد ذلك جدير بالاهتمام.

بعد وقت قصير على تعييني في رتبة ضابط صفّ، أعلنت مصلحة المحاسبة أنّها في حاجة إلى ضبّاط. فلمّا علمَ عقيد معسكر التدريب أنّني اشتغلت في متجر بقالة سابقاً (وكنت حريصاً على توضيح أنّني كنت مكلّفاً بالبيع)، قال إنّه سيأخذ ذلك بعين الاعتبار. بعثت طلبي فقُبِل. وبينما كنت أتأهّب للذهاب إلى ميدلانس، حيث كان يوجد مركز تدريب في المحاسبة، إذا بالإدارة تعبّر عن حاجتها إلى ضابط شابّ له دراية بالبقالة لكي يساعد السير جوزيف تشيم، أحد كبار المسؤولين في مجال المحاسبة. الله وحده يعلم لماذا وقع اختيارهم عليّ. قلت في نفسي لعلّ الأمر التبسَ عليهم فحسبوني شخصاً آخر. وبعد ثلاثة أيام، تقدّمت إلى مكتب السير جوزيف، وأدّيت التحيّة. وجدت نفسي أمام رجل نحيل، معتدل القامة، وسيم الطلعة، بشعر خطّه الشيب، وأنف بارز، وقد ترك في نفسي أثراً بالغاً على الفور. كان يبدو ضابطاً محترفاً مثالياً، موشّحاً بالأوسمة،

ومن ثمة فهو يشبه الشخص الذي ظهر في إشهار سجائر دو ريزكي، حتّى ليَخالُه الناظر توأمه، وأنّه لو لم يكن في الجيش، لكان يتربّع على رأس شركة من شركات التغذية ذات الفروع العديدة. وعندما دخلت عليه، توقّف عن الكتابة، وتفحّصني من رأسي إلى قدمي، وسألني إذا كنت «من طبقة النبلاء»، فأجبته:

«كلا».

فقال:

«حسناً. بإمكاننا أن نبدأ العمل إذاً».

وفي أقل من ثلاث دقائق عجم عودي. سألني عمّا إذا كانت لديّ تجربة في مجال السكرتارية، وما إذا كنت أعرف الضرب على الآلة الكاتبة، فأجبت بالنفي. ثمّ سألني عن العمل في البقالة، فقلت إنّي اشتغلت في متجر بقالة مقابل ثمانية وعشرين شلناً في الأسبوع. ثمّ أعلن أنني أصلح للمنصب، وقال إنّ هذا الجيش اللعين مليء بـ«أبناء النبلاء»، وأنّ كل ما هم بحاجة إليه هو أن يعثروا على شخص يستطيع العدّ إلى العشرة. أعجبت بهذا الرجل، وتشوّقت للعمل معه، لكن في تلك اللحظة بالذات تدخّلت من جديد تلك القوة العجيبة التي يبدو أنها توجِّه الحرب. كانوا بصدد تشكيل قوات للدفاع عن الساحل الغربي، أو بالأحرى يعتزمون تشكيلها، وخلق مخازن للمؤن وأشياء أخرى في مواقع متعدّدة من الساحل. وقد عهدوا للسير جوزيف مسؤولية إنشاء هذه المخازن في جنوب غرب إنجلترا. وفي اليوم الموالي لالتحاقي بالخدمة كلّفني بتفتيش المؤن الموجودة في مخزن يُدعى مخزن المايل الثاني عشر، شمال ساحل كورنيش كوست. والحقيقة أنّ مهمتي كانت تتمثل في التأكّد ممّا إذا كان المخزن موجوداً فعلاً، إذ لا أحد كان يعلم شيئاً عنه. وحين

وصلت اكتشفت أنّ المخزن لا يحتوي إلّا على إحدى عشرة علبة من لحم البقر. وما لبثت أن تلقّيت برقيّة من وزارة الحربية تأمرني بالسهر على ذلك المخزن إلى إشعار آخر. أجبت على الفور ببرقية أنّ المخزن لا يحتوي على أي مؤونة، لكن الأوان كان قد فات، إذ تلقّيت صباح اليوم الموالي رسالة رسمية تخبرني أنّهم عينوني ضابطاً مكلّفاً بالسهر على مخزن المايل الثاني عشر، وبذلك انتهت هذه القصة، وبقيت هناك إلى نهاية الحرب.

لا تسألوني عن حقيقة قوّات الدفاع عن الساحل الغربي وعن مهمّتها. فذلك لا يعلمه إلّا الله. والظاهر أنّ لا أحد كان على علم بذلك. لا بدّ أنّ الفكرة خطرت ببال أحدهم على نحو غامض بعد إشاعة راجت عن غزو مرتقب للقوات الألمانية عبر إيرلندا. وحتّى مخازن المؤن المقامة على طول الساحل كانت وهمية. هكذا عاش ذلك المشروع ثلاثة أيّام مثل فقاعة، ثمّ نُسي، ونُسيتُ معه. أمّا العلب الإحدى عشرة التي عثرت عليها، فلا شكّ أنّها من مخلّفات ضبّاط جاؤوا لإنجاز مهمّة غريبة هناك. وقد تركوا وراءهم أيضاً جندياً مصاباً بصمم بالغ يُدعى ليدجبورد، لم أعرف أبداً طبيعة مهمّته. لست أدري ما إذا كنتم ستصدّقون أنّني مكثت من أجل حراسة إحدى عشرة علبة لحم بقر مصبّر من يوليو سنة 1917 إلى بداية سنة 1919. لن تصدقوا على الأرجح، ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. وهو أمر لم يكن غريباً في ذلك العهد. فابتداءً من سنة 1918 فقدَ الناس ببساطة حسّ السير الطبيعي للأشياء.

كانوا يبعثون لي مرّة في الشهر استمارة عليّ أن أملأها بالإجابة عن أسئلة حول عدد المجارف وحالتها، وبكرات الأسلاك الشائكة والأغطية والمشمعات ومعدّات الإسعافات الأولية، وصفائح

القصدير، وكذا علب مربّى البرقوق والتفاح التي تحت حراستي. وكنت أكتب عبارة «لا شيء» تحت كلّ سؤال، وأعيد الاستمارة. ومع ذلك لم يحدث شيء. لا شكّ في أنّ الشخص المكلّف بهذه الاستمارات كان يرتّبها بهدوء ويبعث بأخرى، ثمّ يفعل بها مثل الأولى وهكذا ودواليك. واستمرّت الأمور على هذه الحال. الضبّاط الكبار الذين كانوا مسؤولين عن إدارة الحرب نسوا وجودي، وأنا لم أبذل جهداً لتذكيرهم. فقد رمَت بي أقدار الحرب إلى هذا المكان المقفر، ولم أسْعَ إلى مغادرته بعدما فترت وطنيتي إثر سنتين في فرنسا.

هذا الجزء المقفر من الساحل لا أثر للبشر باستثناء بعض الفلاحين الذين بالكاد يعرفون أنّ البلد في حرب. كان هدير البحر يفنى على الشاطئ الرملي على بعد أربعمئة متر أسفل تلّ صغير، والجوّ ممطر على امتداد تسعة أشهر من السنة. وخلال الثلاثة أشهر الأخرى، تهبّ رياح عاتية من المحيط. ولم يكن يوجد شيء في ذلك المكان سواي والجندي ليدجبورد إضافة إلى كوخَين عسكريَّين، أحدهما لا بأس به، يتألّف من غرفتين، استقررت فيه مع العلب الإحدى عشرة. وقد كان ليدجبورد شخصاً متجّهماً صموتاً، لم أستطع الظفر منه بشيء سوى أنّه كان بستانياً قبل التحاقه بالجيش. وبما أنّ الإنسان يعود دائماً إلى أصله، شرع يزرع البطاطس حول أحد الكوخَين قبل مجيئي، وفي الخريف ينهمك في العمل بحيث استصلح نصف هكتار تقريباً. وفي بداية سنة 1918، أخذ يربّي الدجاج، وعند حلول الصيف صار عنده عدد كبير منها. وما كادت السنة تشارف على نهايتها حتّى جلب خنزيراً لا أعرف من أين. ولا أظنّه تساءل يوماً عمّا كنا نفعل هناك، ولا عن مآل قوات الدفاع عن

الساحل الغربي، ولا حتّى عمّا إذا كان لها وجود حقّاً. ولن أستغرب إن بلغني أنّه لا يزال مستقرّاً هناك إلى اليوم، يربّي الخنازير ويزرع البطاطس. أتمنّى له ذلك، وأدعو له بالتوفيق.

أمّا أنا، فملأت وقتي بالقراءة، وهو أمر لم تسمح لي الظروف بالتفرّغ له قبلئذ. ذلك أنّ الضبّاط الذين سبقوني إلى هناك تركوا بعض الكتب، تافهة في معظمها، وفي طبعات رخيصة، ألّفها أشخاص أمثال: يان هاي، سابّر أو غريدج كينيدي. لكنّ أحدهم، في فترة ما، استقرّ في المكان، يبدو أنّه كان عارفاً أي الكتب تستحق القراءة وأيّها لا يستحق. وهي أمور كنت أجهلها في ذلك العهد. فالكتب الوحيدة التي كنت أقبل عليها هي الروايات البوليسية إضافة إلى كتاب جنسي مبتذل. والله يعلم أنّني إلى يومنا هذا لا أعتبر نفسي مثقّفاً. لكن في تلك الفترة لو سألوني عن عنوان كتاب «جيّد» لأجبت على سبيل المثال: **السمسم والسوسن** (وهو كتاب يذكرني بالقس). الكتاب الجيّد هو الكتاب الذي لا نيّة لك في قراءته. لكن معظم وقتي هناك كان فارغاً. لا شيء غير هدير البحر على الشاطئ وقطرات المطر التي تسيل على زجاج النافذة، وقبالتي، على أحد الرفوف، صفّ من الكتب المرتّبة. وبذلك شرعت في قراءتها حسب الترتيب الذي وجدتها عليه، من الأوّل إلى الآخر، من دون تمييز مثل خنزير يشقُّ طريقه في كومة من القمامة.

وقد وجدت بينها ثلاثة كتب أو أربعة تختلف عن الأخرى. لكن لا تظنوا أنني اكتشفت بينها كتباً لمارسيل بروست أو هنري جيمس أو مؤلفين من هذا القبيل. وما كنت لأقرأها حتّى لو عثرت عليها. ما عثرت عليه من كتب لم تكن موجَّهة للمثقّفين. لكن من وقت إلى آخر قد يحالف القارئ الحظّ فيقع على كتاب يناسب مزاجه، حتّى

ليعتقد أنه كتب له خصّيصاً. وهذا ما حدث لي مع **قصّة السيد بولي** لـ هـ. ج. ويلز، المنشورة في طبعة رخيصة متآكلة. أتساءل ما إذا كنتم قادرين على تخيّل وقعها عليّ، أنا ابن التاجر الصغير القادم من بلدة صغيرة. هناك أيضاً رواية **الطريق المسدود** لكومبتون ماكينزي، التي كانت قد أثارت ضجّة قبل ذلك بسنوات، حيث وصل صداها حتّى بينفيلد. وعثرت كذلك على رواية لجوزيف كونراد بعنوان **النصر**، أصابتني بعض مقاطعها بالملل، لكنّها تظلّ من الكتب التي تدعوك إلى التفكير. وممّا صادفته أيضاً عدد قديم من مجلّة ذات غلاف أزرق تضمّ قصة قصيرة لـ د. هـ. لورنس نسيت عنوانها. وهي تتحدّث عن مجنّد في الجيش الألماني ألقى برئيسه الرقيب من أعلى أحد الحصون ثمّ تسلّل ولاذَ بالفرار، لكن ألقي عليه القبض أخيراً في غرفة عشيقته. وهي قصة أصابتني بالحيرة، إذ لم أستطع الوصول إلى مقصد الكاتب منها، لكنّها فتحت شهيّتي لقراءة قصص أخرى من النوع نفسه.

وقد استمرّ نهمي للقراءة طوال شهور. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أكببت فيها على القراءة منذ **دونوفان الجسور**. في البداية لم أكن أعرف كيف يمكن للمرء أن يحصل على كتب. كنت أظنّ أنّ الطريقة الوحيدة لذلك هي شراؤها، وهذا أمر مهمّ لأنه يبيّن الهوة التي يمكن أن تحدثها التربية بين الناس. أقول في نفسي إنّ أبناء الطبقة الوسطى، أيّ أولئك الذين يولدون في أُسر يبلغ دخلها السنوي حوالي خمسمئة جنيه، يعرفون منذ طفولتهم المبكّرة بوجود نوادٍ من قبيل «نادي تايمز للكتاب». بعد ذلك بمدّة قصيرة اكتشفت المكتبات التي تعير الكتب، فاشتركت في مكتبة موديز وكذا في مكتبة أخرى في بريستول. هكذا قرأت في السنة الموالية لويلز وكونراد

وكيبليغ وغالسوورثي وباري بان وجاكوبس وبيت ريدج وأوليفر أونيون وكومبتون ماكينزي وسيتون ميريمان وموريس بارينغ وستيفان ماكينا وماي سانكلير وآرنولد بينيت وأنطوني هوب وإيلينور غلين وستيفان ليكوك، بل حتّى سيلاس هوكينغ وجان ستراتون بورتر. لا أدري كم عدد الأسماء التي تعرفونها من هذه القائمة، فنصف الكتب التي كانت تحظى بالاهتمام في تلك الأيّام، طواها النسيان الآن. في البداية كنت ألتهمها بنهم حوت يبتلع سرباً من الروبيان، وكان ذلك يمتعني. لكن بعد مدّة بدأت أميّز بين الغثّ والسمين. هكذا قرأت **أبناء وعشاق** للورنس، وإن كان لم يمتعني كثيراً بخلاف **دوريان غراي** لأوسكار وايلد، **والليالي العربية الجديدة** لستيفنسن. على أنّ من أثّر فيّ بالغ الأثر هو ويلز. فقد استمتعت بقراءة **إيستر ووترز** لجورج مور، وانطلقت في قراءة روايات توماس هاردي، لكنّني سرعان ما كنت أهجرها قبل إتمامها. بل حاولت قراءة إبسن الذي ترك في نفسي انطباعاً غامضاً بأنّ النرويج بلد لا يتوقّف فيه المطر عن الهطول.

كلّ هذا كان غريباً في الواقع. كنت أستغرب كيف صرت ضابطاً، وتخلّصت تقريباً من لهجتي المحليّة، وصرت أميّز بين آرنولد بينيت وإيلينور غلين، أنا من كنت، قبل أربع سنوات من ذلك، أقطّع الجبن خلف المنضدة، وأقصى أحلامي هو أن أفتح متجري ذات يوم. ومهما يكن، فعليّ أن أعترف بأنّ الحرب إن كانت أساءت إليّ، فهي قد أحسنت إليّ أيضاً. وعلى كلّ حال، فهذه السنة التي أمضيتها في قراءة الروايات كانت هي التعليم الأهمّ -أقصد التعلُّم من الكتب- الذي تلقيته في حياتي. فقد غيّرني بمعنى من المعاني. ثقّفَ عقلي، وأكسبَني القدرة على طرح أسئلة ما كنت

لأطرحها لو أن حياتي اتّبعت منحاها العادي. لكن -وأتساءل ما إذا كنتم قادرين على فهم هذا الأمر- الشيء الذي غيّرني حقّاً، وترك بصمته عليّ، ليست قراءة هذا الكمّ من الكتب، بل الحياة العبثية التي كنت أعيشها حينذاك.

لقد كانت الحياة سنة 1918 عبثية ومقزّزة حقّاً. كنت أجلس هناك، بجانب المدفأة، داخل كوخ تابع للجيش أقرأ الروايات، بينما كانت المدافع تدوي في فرنسا، على بعد بضع مئات من الكيلومترات، وحشود من الفتيان يُجبرون على التقدُّم تحت وابل من الرصاص والقذائف. أمّا أنا فكنت من المحظوظين. نستني القيادة، فمكثت في ذلك الكوخ على نحو مريح، أتلقّى راتبي من أجل عمل وهمي. وقد كان الخوف يتملّكني أحياناً، وأقول في نفسي لعلّهم سيتذكرونني، ويأمرونني بمغادرة وكري. لكن ذلك لم يحدث. كانت الاستمارات الرسمية تصلني كلّ شهر، فأملؤها وأعيدها، واستمرّ الوضع على تلك الحال. كان الأمر من العبثية كما لو أنّه يقع في حلم أحد المجانين. كلّ هذا، إضافة إلى ما كنت أقرؤه من كتب، زرع في نفسي نزوعاً إلى الريبة في كلّ شيء.

لم أكن الوحيد الذي ساوره هذا الشعور. فخلال هذه الحرب كان ثمّة العديد من الناس الذين لا تعرف القيادات ماذا ستصنع بهم بعد أنّ نسوهم في أماكن غريبة. جيوش بكاملها كانت تقبع في جبهات نسي الناس حتّى أسماءها. هناك إدارات وزارية ضخمة، تشغّل فيالق من الموظفين والكتبة، يكسبون جنيهَين أو أكثر في الأسبوع ولا يفعلون شيئاً سوى تكديس الأوراق. ولم يعد أحد يصدّق ما كان يروج عن «الأعمال الوحشية الألمانية» و«بلجيكا الصغيرة الباسلة» وما إلى ذلك. كان الجنود يعتبرون الألمان رفاقاً

طيّبين بينما يكرهون الفرنسيين كالسمّ. وكان صغار الضبّاط ينظرون إلى قادة الجيش كمجموعة من المعتوهين. واجتاحت إنجلترا موجة من الخيبة بلغ مداها حتّى مخزن المايل الثاني عشر. قد يكون من باب المغالاة القول إنّ الحرب حوّلت الناس إلى مثقفين، لكن الأكيد هي أنّها حولتهم إلى عدميين. أين كانت الأقدار ستقذف بي حينئذ لولا الحرب؟ لست أدري. لكنّ الأكيد هو أنّني كنت سأكون مختلفاً بلا شكّ. إذا لم تقتلك الحرب، فهي تدفعك إلى التفكير. فبعد تلك الفوضى المريعة، لم يعد بالإمكان أن ترى في المجتمع شيئاً أبدياً ثابتاً مثل الأهرامات، لا يلحقه التغيير.

9

لقد انتشلتني الحرب فجأة من حياتي السابقة، غير أنّ الفترة الغريبة التي أعقبتها، أنستني كلّ شيء عنها تقريباً. أنا واثق من أنّ الإنسان -بمعنى من المعاني- لا ينسى شيئاً، قد يذكر قشرة برتقال رآها في جدول قبل ثلاثين سنة، أو ملصقاً ملوّناً أبصره ذات مرّة في قاعة انتظار بإحدى محطات القطار. لكنّني أقصد نوعاً مختلفاً من الذاكرة، أيّ أنّني أذكر حياتي السابقة في بينفيلد، وقصبة الصيد، ورائحة العنبريس، وأمّي خلف إبريق الشاي البنّي، وجاكي العصفور المغرّد والحوض الذي تشرب منه الدواب في ساحة السوق. لكن لا شيء من كلّ هذا ظلّ حيّاً بداخلي. فقد انتهى وابتعد غاية البُعد. وما كان ليخطر ببالي قطّ أنّني سأشتاق إلى استرجاعه في يوم من الأيّام.

كم كانت السنوات التي أعقبت الحرب غريبة، ربما أغرب من أيام الحرب ذاتها، رغم أنّها لم تترك انطباعاً قويّاً في الناس. صار الشعور بالريبة في كلّ شيء أقوى من أيّ وقت مضى. سُرِّح ملايين الناس فجأة من الجيش، واكتشفوا أنّ البلد الذي قاتلوا من أجله لم يعد بحاجة إليهم، وأنّ لويد جورج تكفّل هو ورفاقه بإعداد الأوهام لأولئك الذين ما زالوا يؤمنون بها. حشود من قدماء المقاتلين يجوبون الشوارع حاملين صحوناً يقعقعونها، ونساء مقنّعات يطفن

وهنّ يغنين بينما يعزف رجال يلبسون زيّ الضبّاط على الأرغن اليدوي. كلّ الناس في إنجلترا يبحثون بيأس عن شغل، بما فيهم أنا، وإن كنت أتدبّر أمري أفضل من أغلبيتهم. كنت أتلقّى تعويضاً صغيراً عن إصابتي، أضيفه إلى المال الذي ادّخرته خلال السنة الأخيرة من الحرب (إذ لم تتح لي الفرصة لكي أنفقه). فقد غادرت الجيش بمبلغ لا يقلّ عن ثلاثمئة وخمسين جنيهاً، وهو مبلغ مهمّ حينئذ. ولا بدّ أنّكم خمّنتم ما كان بإمكاني أن أصنع به. كنت أملك من المال ما يسمح لي بتحقيق حلمي، الحلم الذي تربّيت عليه، وهو فتح متجري الخاص. بشيء من التريُّث واليقظة، بوسعي أن أعثر بهذا المبلغ على أصل تجاري في موقع جيّد. لكن، صدّقوني، لم تخطر هذه الفكرة ببالي. فأنا لم أكلّف نفسي البحث عن محلّ تجاري فحسب، بل لم يَدُر بخلدي سلك هذا السبيل إلّا بعد سنوات عديدة، أيّ سنة 1925. والحقيقة أنّ فكرة فتح متجر صغير لم تعد تستهويني. هذا ما يصنعه بك الجيش! يحوّلك إلى نبيل مزيّف، ويرسّخ في ذهنك أنّ المال سيسقط عليك من مكان ما. لو اقترحتم عليّ آنذاك، سنة 1919، أن أشتغل لحسابي الخاص، وأفتح محلّ بقالة وسجائر، أو بازاراً لضحكت منكم. فقد كنت ضابطاً في الجيش، ومن ثمّة ينبغي أن أرتقي اجتماعياً. لكنّني لم أكن، في الآن نفسه، أعيش في الأوهام التي كان يعيش فيها كثير من الضبّاط المسرّحين، وأقضي بقيّة حياتي جالساً أمام قدح نبيذ لا أفعل شيئاً.
كنت أدرك أنّ عليّ أن أبحث عن عمل، وهذا العمل ينبغي أن يكون في مجال «الأعمال» بالطبع. على أنّني لم أكن أعلم حينئذ طبيعة هذا العمل. كلّ ما كنت أعلمه هو أن يُكسبني قيمة، ويسمح لي بأن أملك سيّارة وهاتفاً، وإن أمكن أن تكون لي سكرتيرة وحياة حافلة

بالأسفار. عندما أوشكت الحرب على النهاية، كنت من بين أناس كثيرين يعيشون على مثل هذه الأحلام. وبذلك صار هذا الذي كان مساعد بقّال، يرى نفسه مندوب مبيعات ثمّ مدير شركة كبيرة. إنّه من تأثير الحرب وارتداء الشارات العسكرية وحيازة دفتر شيكات، وإطلاق اسم العشاء على وجبة المساء. ومن الأفكار التي كانت سائدة أيضاً، سواء بين الجنود أو بين الضبّاط، أنّهم حين سيعودون إلى الحياة المدنيّة، سيجدون الوظائف في انتظارهم. وظائف يكسبون منها مرتّبات لا تقلّ عمّا كانوا يتلقّونه في الجيش. وبطبيعة الحال، لولا وجود مثل هذه الأفكار، لما نشبت الحرب البتة.

والواقع أنّني لم أعثر على هذا العمل، ولم يكن أحد يتحرّق، فيما يظهر، لكي يمنحني ألفي جنيه في السنة وأنا جالس إلى مكتب أنيق مجهّز بأحدث التجهيزات، أملي رسائل على سكرتيرة شقراء. اكتشفت ذلك على غرار ثلاثة أرباع من كانوا ضبّاطاً خلال الحرب، علماً أنّنا كنّا حينئذ أغنى ممّا سنصير عليه بقية حياتنا لاحقاً. وبذلك هوينا من وضع ضبّاط محترمين إلى أشخاص لا يرغب فيهم أحد. وتراجع بذلك طموحي من كسب ألفي جنيه في السنة إلى كسب ثلاثة إلى أربعة جنيهات في الأسبوع. لكن حتّى الأعمال التي تسمح بكسب هذا المبلغ بدت غير موجودة. فهي إمّا أُسندت إلى رجال لم يجنَّدوا بسبب تقدّمهم في السن، وإمّا إلى شباب كانت تنقصهم بضعة أشهر لكي يبلغوا سنّ التجنيد. أمّا المعتوهون الذين ولدوا بين سنتَي 1880 و1910، فتُركوا في العراء. على أنّ العودة إلى البقالة لم تخطر على بالي أبداً. كان بإمكاني، بلا شكّ، أن أعثر على عمل كمساعد بقّال لدى العجوز غريميت إن كان ما زال على قيد الحياة، وما زال يمتهن البقالة (كنت أجهل مصيره لأنّ صلتي ببينفيلد كانت

منقطعة)، وكنت سأستفيد من توجيهاته. لكنّني انتقلت إلى عالم آخر. فرغم أنّني لم أكن واهماً بخصوص وضعي الاجتماعي، ما كان ليقع في خلدي أن أعود إلى البقالة وأعيش حياة بسيطة هادئة بعد كل ما رأيت وعايشت. كنت أتوق إلى السفر وإلى كسب كثير من المال، وأحلم بأن أصير مندوب مبيعات. هذا هو العمل الذي يناسبني.

لكنّ هذا العمل لم يكن متوفّراً، أو على الأقلّ متوفّراً بمرتّب ثابت مضمون. ما كان موجوداً هو العمل على أساس العمولة. وقد كان هذا الضرب من النصب قد بدأ ينتشر على نطاق واسع. وهو يقوم على أسلوب في منتهى السهولة: تعمل على تنمية مبيعاتك والتعريف بمنتجاتك من دون أدنى مخاطرة. إنّها ممارسة تجارية تزدهر دائماً أوقات الأزمات. يوهمونك بأنّك قد تحصل بعد ثلاثة أشهر على عمل قارّ براتب ثابت، وحين تحتجّ بعد طول انتظار، هناك دائماً شخص بئيس مستعدّ ليحلّ محلّك. بطبيعة الحال عثرت على عمل بالعمولة في وقت وجيز، وحمدت الله على أنّ الأقدار لم تُزْرِ بي وتضطرّني إلى الاشتغال في كناسة الشوارع وجمع القمامة. وهكذا صرت أتجوّل حاملاً سلعاً متباينة: لوازم المائدة من سكاكين وشوك وغيرها، مسحوق الصابون، فتّاحات القناني والعلب، لوازم المكتب من مسّاكات الأوراق وورق الكاربون وأشرطة الآلات الكاتبة وما إلى ذلك. كنت ناجحاً في هذا العمل، لا سيما أنّني أملك الطبع والأسلوب المناسبَين، لكنّني لم أنجح قطّ في كسب ما يكفي من المال لأعيش حياة كريمة. فهذا شيء مستحيل في مثل هذه الأعمال، وهو أمر لا يخفى على مشغّليك بطبيعة الحال.

بقيت على هذه الحال لما يقارب السنة. كم كانت فترة غريبة!

ظللت أجوب أصقاع البلد، وأتجوّل في أمكنة بلا اسم، وأحياء هامشية لا يسمع بها أحد. أبيتُ في فنادق قذرة، تفوح أفرشتها بماء الغسيل، وأصفر البيض في مطاعمها أشدّ شحوباً من حبّة ليمون. وكنت ألتقي بأعداد غفيرة من الباعة المتجوّلين المساكين. ما زلت أذكر أرباب أُسر تقدّم بهم السنّ، في معاطفهم المتآكلة، وقبّعاتهم المستديرة، واثقين كلّ الوثوق من أنّ أوضاعهم ستتحسّن ذات يوم، ويرتفع دخلهم إلى خمسة جنيهات في الأسبوع. كما أذكر الطواف على البيوت ومحاولة إقناع أصحاب المتاجر الذين يستثقلون حضورك، وما أن يدخل عليهم زبون حتّى تتنحّى وتتضاءل. لا تظنّوا أنّ ذلك كان يؤذيني، لكنّ باعة آخرين كانت هذه الحياة تعذبهم. ناهيك عن أولئك الذين يشعرون، حين يهمّون بالدخول إلى متجر وعرض سلعتهم، كما لو أنّهم ذاهبون إلى حتفهم. أمّا أنا فلم أكن كذلك. كنت أنجح في إقناع الناس بشراء أشياء ليسوا بحاجة إليها. وحتّى حين يصفقون الباب في وجهي، لم أكن أنزعج. فالبيع بالعمولة كان يستهويني بما أنّني أكسب منه قوتي. لست أدري ما إذا كنت قد تعلّمت أشياء كثيرة من هذه السنة، لكن الأكيد هو أنّني تخلّصت من أفكار كثيرة، لعلّ أوّلها ما تعلّمته من تفاهات في الحياة العسكرية، وكذا الأفكار التي أفدتها من قراءة الروايات خلال فترة العطالة التي قضيتها في ذلك المكان المنعزل. ولا أذكر أنّني قرأت كتاباً واحداً خلال طوافي في البلد، باستثناء بعض الروايات البوليسية. انتهت مسرحية المثقّف، وعدت إلى واقع الحياة المعاصرة. لكن أيّ واقع هو؟ هو أوّلاً وقبل كلّ شيء الرغبة المحمومة الدائمة في البيع. فبالنسبة إلى كثير من الناس، يتعلّق الأمر ببيع أنفسهم. بعبارة أخرى أن يعثروا على عمل، ويحافظوا عليه.

أقول في نفسي إنّه لم يمضِ شهر منذ نهاية الحرب، وفي أيّ مهنة قد تخطر ببالك، لم يكن عدد الرجال أكبر بكثير من عدد الوظائف. الأمر أشبه بأن تجد نفسك بجانب مركب يغرق وعلى متنه تسعة عشر راكباً مقابل أربعة عشر طوق نجاة. قد تسألوني: وما الجديد في هذا الوضع؟ وما صلته بالحرب؟ إنّه الشعور بأنّك في صراع مستمرّ وتدافُع، وأنّك لن تكسب شيئاً إلّا على حساب غيرك، وأنّ هناك من يسعى إلى احتلال مكانك، والظفر بوظيفتك، وأنّ مشغّليك سينتبهون، بعد شهر أو شهرين، إلى أنّ هناك عمّالاً زائدين، فيطردونك. وأنا مستعدّ لأقسم على أنّ هذا لم يكن موجوداً قبل الحرب.

وعلى الرغم من كلّ ذلك، وفي انتظار أن يتحسّن الوضع، لم يكن حالي سيّئاً تماماً. كنت أكسب قليلاً من المال، وأحافظ على مدّخراتيَ في البنك، حوالي مئتي جنيه، وبذلك لم أكن خائفاً من المستقبل. كنت أعلم أنّني سأعثر على عمل قارّ طال الزمن أم قصر. وقد حالفني الحظ، بعد تلك السنة، في العثور عليه. ورغم قولي حالفني الحظ، كنت واثقاً من أنّ حالي ستتحسّن وأقف على رجلَيّ في يوم من الأيّام. فأنا لست من النوع الذي يرضى بالبؤس أو يفقد الأمل. لم أكن أرى نهايتي في ملجأ بل في مجلس اللوردات. فأنا من تلك الطبقة الوسطى من الناس الذين نذرتهم الطبيعة ليكسبوا حوالي خمسة جنيهات في الأسبوع. طالما أنّ ثمّة وظائف، أنا مستعدّ على المراهنة بأنّني سأحظى بواحدة.

حدث ذلك بينما كنت أعرض ممّاكات الأوراق وأشرطة الآلات الكاتبة. دخلت دون أن يلحظني أحد إلى بناية واسعة تضمّ مكاتب في شارع فليت كُتبَ على بابها طبعاً: «يمنع الدخول على

الباعة المتجولين». ولجتها بخطى واثقة من دون ارتباك حتّى أنّ العامل المكلّف بالمصعد ظنّ الجراب الذي أحمل فيه عيّنات من السلعة، حقيبة وثائق. وبينما كنت أذرع ممرّاً بحثاً عن شركة معجون أسنان سمعت عنها، أبصرت شخصاً قادماً في الاتّجاه المعاكس، وأدركت على الفور أنّه مسؤول كبير. أظنّكم تعرفون هيئة رجال الأعمال الكبار. يُخيّل لك حين تراهم وكأنّهم يشغلون مساحة أكبر، وحين يمشون، يثيرون الانتباه أكثر من سائر الناس، وتبدو عليهم آثار النعمة. وما إن اقترب منّي حتّى عرفته. إنّه السير جوزيف تشيم. رغم زيّه المدني، لم أجد صعوبة في التعرّف إليه. أظنّه جاء إلى هناك من أجل اجتماع أعمال. وكان مرفوقاً بمساعدَين أو كاتبَين أو شيئاً من هذا القبيل. سمّوهما كما شئتم. لا أقول إنّهما يحملان ذيل ثوبه، إذ لم يكن له ذيل، لكنّ هذا ما يخيّل لمن يراهما خلفه. تنحّيت على الفور، لكنّ الغريب في الأمر هو أنّه عرفني رغم مرور سنوات على لقائنا. ولدهشتي توقّف وكلّمني.

«مرحباً يا هذا! أظنّني رأيتك في مكان ما؟ ذكّرني باسمك، إنّه على طرف لساني».

«بولينغ، سيّدي. كنت أشتغل في القوّات الاحتياطية».

«آه، أنت من قلت إنّك لست من «النبلاء». ماذا تفعل هنا يا ترى؟».

كان بإمكاني أن أقول له إنّني أبيع ورق الكربون الخاص بالآلات الكاتبة، وينتهي الأمر عند ذلك الحدّ. لكن خطرت لي فجأة فكرة -مثلما يحدث لي أحياناً-، وقلت في نفسي قد أجني منفعة من هذا اللقاء إن أنا تصرّفت بذكاء. وقلت له:

«الحقيقة يا سيّدي أنّني جئت إلى هنا بحثاً عن العمل».

«عمل؟! العثور على عمل ليس سهلاً هذه الأيام».

وراح يتفحّصني لحظة من رأسي حتّى قدميّ بينما وقف المساعدان على مسافة غير بعيدة. رأيته يحدّق فيّ بوجهه الوسيم رغم سنّه المتقدّم، بحاجبَيه الكثَّين الرماديَّين، وأنفه الذي يشي بالذكاء، ففهمت على الفور أنّه صمّم على مساعدتي. ما أغرب السلطة التي يملكها هؤلاء الرجال الأغنياء! كان مارّاً بجانبي مجلّلاً بمجده، ومحاطاً بمساعدَيه غير عابئ بوجودي، لكنّه التفت إليّ فجأة، تماماً كإمبراطور انتابته نزوة فقرّر أن يرمي بقطعة نقدية لمتسوّل.

«حسناً، أنت إذاً تبحث عن عمل. ما العمل الذي تتقنه؟».

وتنبّهت من جديد إلى أنّ المبالغة في استعراض القدرات قد لا تجدي نفعاً مع مثل هذا الرجل، وأنّه حريّ بي أن أقول الحقيقة. فقلت:

«لا أتقن عملاً محدّداً يا سيّدي، لكنّني أرغب في أن أعمل مندوب مبيعات».

«مندوب مبيعات؟ لا أظنّ لدي منصب كهذا في الوقت الراهن، لكن دعنا نرى».

عضّ على شفتيه وراح يفكر مليّاً لثلاثين ثانية تقريباً. وبدا لي الأمر غريباً. فهذا العجوز عظيم الشأن الذي يساوي نصف مليون جنيه على الأقل، كان مستغرقاً يفكّر في وضعيّتي. لقد صرفته عن مقصده، وضيّعت ثلاث دقائق على الأقل من وقته، وكلّ هذا بسبب كلام نطقت به صدفة قبل بضع سنوات. رسختُ في ذاكرته، لذلك

كلّف نفسه شيئاً من العناء لكي يساعدني على العثور على عمل. وأنا لا أشكّ في أنّه طرد في نفس ذلك اليوم عشرين عاملاً على الأقلّ. وانتهى به المطاف أن قال:

«ما رأيك في أن تشتغل في مجال التأمينات؟ أنت تعلم أنّ العمل فيه متوفّر دائماً. فالناس يحتاجون إلى التأمين حاجتهم إلى الطعام».

وبطبيعة الحال قبلت العرض فوراً. وكان السير جوزيف مساهماً في السمندل الطائر شأن العديد من الشركات. ولم يلبث أحد المساعدَين أن قدّم للسير جوزيف ورقاً، فأخرج قلماً ذهبياً، وخطّ كلمة لشخص يحتلّ منصباً مرموقاً في السمندل الطائر. شكرته، وتابع طريقه مثلما تابعت طريقي. وكانت تلك هي آخر مرّة ألقاه.

هكذا ظفرت بالوظيفة، أو بالأحرى هي التي ظفرت بي كما أسلفت. وها قد مرّت ثماني عشرة سنة وأنا أشتغل لحساب السمندل الطائر. في البداية اشتغلت في المكاتب، لكنّني الآن أشغل وظيفة ما يسمّونه مفتشاً، أو عندما يقصدون التفخيم، يطلقون عليها مندوب إدارة. أعمل يومين في المقرّ المركزي بينما أسافر بقيّة الأسبوع: ألتقي الزبائن الذين أبلغَنا الوكلاء المحليّون بأسمائهم، وأقدّر قيمة الأصول التجارية وما إلى ذلك. وبين الفنية والأخرى، أقوم ببعض الأعمال لحسابي الخاص. أمّا عن دخلي، فأكسب حوالي سبعة جنيهات في الأسبوع. باختصار، هذه هي حكايتي.

حين أنظر إلى الماضي، أتنبّه إلى أن حياتي النشيطة انتهت في سنّ السادسة عشرة. فكلّ ما هو مهمّ في حياتي حدث في تلك السنوات الست عشرة. على أنّه وقعت مع ذلك أشياء -كالحرب على سبيل المثال- بين تلك الحقبة واللحظة التي عثرت فيها على

عمل لدى السمندل الطائر. بعد ذلك لم يحدث شيء ذو بال في حياتي، وصدق من قال: الناس السعداء لا تاريخ لهم، وهو أمر ينطبق أيضاً على أولئك الذين يشتغلون في مكاتب شركات التأمين. منذ ذلك اليوم، لم يقع حدث جدير بالذكر، اللهم أنني تزوجت بعد ذلك بسنتين ونصف، أيّ في بداية سنة 1923.

مكتبة
t.me/t_pdf

10

نزلت في نُزُل موجود في حيّ إيلينغ. كانت السنوات تمرّ ببطء، وكدت أنسى بينفيلد. كنت من أولئك الموظفين الذين يركبون قطار الثامنة والربع، وينصبون المقالب لزملائهم في العمل. وكنت محترماً في الشركة، وراضياً إلى حدّ ما على وضعي. وقد أسرّني وهم النجاح الذي كان سائداً في تلك السنوات. أتذكرون الكلام الذي كان يروج؟ النشاط والإقدام والعزم والشجاعة. تقدّمْ أو تنحَّ عن الطريق! القمّة تَسَعُ الجميع! ولعلّكم تذكرون أيضاً ما كانت تروِّج له الإعلانات الإشهارية؟ الرئيس الذي يشجّع الشابّ ويربت على كتفه، الإطار المعتدّ بنفسه الذي لا يخشى المال، ويعزو نجاحه إلى الدروس التي تلقّاها بالمراسلة. وما يدعو للغرابة هي الكيفية التي كان الناس يبتلعون بها كلّ تلك الترّهات، بما فيهم أمثالي غير الحافلين بالسباق. وبما أنّني لم أكن أتّقد حماساً ولا معدماً، فقد كنت عاجزاً، بطبعي، عن مجاراة هذه الموجة، لكنها كانت روح العصر. لا بدّ من أن تتقدّم! وأن تنجح! إذا رأيت أحداً ساقطاً، اقفز عليه! ابذل ما تستطيع لكي لا ينهض ثانية! هذه الأشياء كانت تحدث بالطبع في بداية العشرينيات، بعد أن كانت بعض آثار الحرب قد بدأت تمّحي، والأزمة لم تكن قد حلّت بعد لتحطّم كلّ هذا الهراء.

اشتركت في مكتبة بوتس وكنت أحضر الحفلات الراقصة الرخيصة، وأشجّع أحد نوادي التّنس المحلّية. لعلّكم تعرفون نوادي التنس التي كانت موجودة في أحياء الضواحي السكنيّة، بسُرادِقاتها الخشبية، وسياجاتها العالية، وروّادها من الشباب بثيابهم البيضاء القصيرة الذين يتقافزون وهم يصيحون: «أربعين - خمسة عشر»، أو «تعادل!» بنبرة تحاكي نبرة النخبة.

تعلّمت لعبة التنس، ولم يكن رقصي سيئاً. أمّا مع النساء، فلم أكن أعدم الحظوة. وحين شارفت على الثلاثين، لم يكن مظهري قبيحاً، ببشرتي الحمراء وشعري الأشقر. هذا فضلاً عن أنّني شاركت في الحرب. وهو أمر كان يعدّ ميزة في تلك الفترة. لم أنجح قطّ، سواء في تلك الفترة أو بعدها، في أن أتّخذ مظهر النبيل، لكن قد لا يخطر ببال من يراني بالمقابل أنّني ابن تاجر صغير في بلدة ريفية. كنت قادراً على احتلال موقعي الاجتماعي وسط مجتمع إيلينغ الهجين، حيث يخالط موظّفو المكاتب رجالَ المهن الحرّة. وقد التقيت بهيلدا لأوّل مرّة في ملعب التنس.

كان عمرها حينئذ أربعاً وعشرين سنة. شابّة ضئيلة ونحيفة، أميَل إلى الخجل، بشعر أسود وحركات رشيقة. تذكّرك عيناها الواسعتان بأرنب برّي. كانت من أولئك الناس الذين لا يتكلمون كثيراً، ولا يشاركون فيما يدور حولهم من أحاديث. وهي إن فتحت فمها للكلام، فلكي تقول ببساطة: «أجل، هذا ما أراه أنا أيضاً»، مجارية آخر من تحدّث. وفي التنس، كانت تقفز على نحو بديع، وتحسن اللعب إلى حدّ ما، لكن على نحو طفولي. وقد كان اسمها العائلي فانسنت.

إن كنت من المتزوّجين، فلا بدّ أنّك عشت لحظات سألت نفسك فيها: «تبّاً! لماذا تزوجتها؟» والله يشهد أنّني طرحت هذا

السؤال على نفسي مرّات ومرّات. وحين أعيد النظر في الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياتي، أتساءل عن السبب الذي دعاني للزواج من هيلدا.

يعود ذلك فيما يعود إلى أنّها كانت شابّة جميلة. وعدا ذلك، كان من الصعب عليّ تشكيل فكرة واضحة عنها بسبب أصولها المختلفة كثيراً عن أصولي. كان يلزم أن أتزوّجها لأعرف حقيقتها بينما لو تزوّجت إيلسي ووترز مثلاً، لكانت لديّ فكرة واضحة عنها منذ البداية. أمّا هيلدا فتنتمي إلى وسط لم أكن أعرفه إلّا من خلال ما كنت أسمع عنه، أيّ الطبقة الليبرالية المفلسة. كان أفراد عائلتها على مدى أجيال ضبّاطاً في الجيش وبحّارة ورجال دين وموظفين في الهند. لم يمتلكوا ثروة يوماً، لكنّهم لم يمارسوا أيّ نشاط يطابق التصوّر الذي أحمله عن العمل. قد تتخيّلون أنّني إنّما انجذبت إليها حبّاً في التباهي والمفاخرة، وهذا صحيح، لا سيما أنّني أنحدر من طبقة التجّار الصغار الذين يتربّون على خشية الله وعلى شعائر الكنيسة الأنجليكانية، والذين يحتسون الشاي على الساعة السادسة، ويعتبرونه عشاء. وإذا كانت هذه الأشياء تصيبني بالقرف اليوم، فإنّني اغتررت بها حينئذ. لا أقصد أنّني تزوّجت هيلدا طمعاً في الارتقاء الاجتماعي بسبب انتمائها إلى طبقة خدَمْتُها حين عملت في متجر البقالة. كلّ ما في الأمر هو أنّني هُمت بحبّها. والشيء الذي فاتني حينذاك هو أنّ بنات الطبقة المتوسطة المفلسة مستعدّات للزواج من أيّ رجل، مهما كان، رغبة في مغادرة بيت الأسرة.

وما لبثت هيلدا أن قدّمتني إلى أُسرتها. كنت أجهل إلى حدود تلك اللحظة وجود جالية مهمة من الإنجليز الهنود في إيلينغ. وكانت تلك بداية اكتشاف عالم جديد.

هل تعرفون عائلات هؤلاء الإنجليز الهنود؟ حين تدخل بيوتهم، من المستحيل أن تتذكّر أنك في إنجلترا، وأنّك تعيش في القرن العشرين. ما إن تتخطّى عتبة الباب حتّى تجد نفسك في أجواء الهند في ثمانينيات القرن التاسع عشر. لكم أن تتخيّلوا هذه الأجواء! أثاث من خشب الساج المنقوش، وصَوانٍ نحاسية وجماجم نمور علاها الغبار معلّقة على الجدران، وسيجار تشيناي ومعاول حمراء وصور صفراء لرجال يلبسون قبّعات شمسيّة وكلمات هندوستانية مبهمة، وحكايات صيد النمور، وما قاله سميث لجونز في بونا سنة 1887. إنّه عالم صغير خلقوه كحويصلة واقية. أمّا بالنسبة إليّ، فقد كان كلّ ذلك جديداً، ولا يخلو من أهمية في بعض الجوانب. فأب هيلدا، العجوز فانسنت، لم يزر الهند فحسب، بل وصل إلى مناطق أغرب مثل بورنيو أو سرواق، لم أعد أذكر. كان يمثّل نموذج الموظّف الاستعماري، برأسه الأصلع، وشنبه الكثّ الذي يكاد يخفي وجهه، وحكاياته التي لا تنتهي عن أفاعي الكوبرا وما قاله أحد جباة المقاطعة سنة 1893. أمّا أمّ هيلدا، فكانت باهتة مثل الصور المعلّقة على الجدران. وهناك أيضاً ابنهما هارولد الذي يشغل منصباً رسمياً في سيريلانكا، وكان في إجازة في الوطن عند تعرّفي إلى هيلدا. وقد كانت الأسرة تقطن منزلاً يقع في شارع خلفي، ضيّقاً ومعتّماً، يفوح دائماً برائحة سيجار تشيناي، تزدحم أرجاؤه بالرماح والديكورات النحاسية ورؤوس الحيوانات البرّية.

أحيل الأب فانسنت على المعاش سنة 1910. ومنذ ذلك التاريخ وهو يكدح مع زوجته كدحاً. لكنّ عائلةً ضمّت بين أعضائها رواداً في الجيش وكولونيلات بل حتّى أمير بحر، ما كان بالإمكان إلّا أن تثير إعجابي. كان تعامل أسرة فانسنت معي، وتعاملي معهم

يُظهر بوضوح مقدار الغباء الذي يمكن أن يبلغه المرء حين ينزاح عن الوسط الذي نشأ فيه. لو وضعتموني بين أناس يشتغلون بالأعمال، مدراء شركات أو مجرّد مناديب صغار، لعرفت بالتقريب قيمة كلّ واحد منهم. بالمقابل لم أكن أعرف شيئاً عن طبقة الضبّاط تلك، وعن الموظّفين ورجال الدين، لذلك لم يكن تعاملي مع هؤلاء الحثالة الآيلة إلى الانقراض يخلو من خضوع وتذلّل. كنت أراهم أرقى منّي ثقافياً واجتماعياً بينما كانوا هم يرون فيّ رجل أعمال شابّ سائر في درب النجاح والثروة. فـ«الأعمال»، سواء تعلّق الأمر بالتأمينات البحرية أو ببيع الفول السوداني، تشكّل لغزاً مستغلقاً بالنسبة إلى أناس من هذه الطينة. كلّ ما يعرفونه هو أنّ الأمر يتعلّق بشيء تافه يدرّ المال. وكان فانسنت الأب يقدّمني بكثير من التبجّح باعتباري «رجل أعمال». وقد زلّ لسانه مرّة فحشرني مع من يشتغلون بـ«التجارة». فهو يجهل بطبيعة الحال الفرق بين مستخدم ومن يشتغل لحسابه، إذ كان يظنّ على نحو غامض أنّني ما دمت أشتغل في السمندل الطائر، فإنّني سأتسلّق الدرجات إلى أن أبلغ القمّة. ولعلّه كان يقول في نفسه إنّه سيأتي يوم سأنفحه فيه بعشرة جنيهات بين الفينة والأخرى. أمّا هارولد، فلم يكن يساوره شكّ في ذلك، وهو أمر كنت أقرؤه في عينيه. ومن ثمّة لو أنّه ظلّ على قيد الحياة، لظنّ بلا شكّ، رغم دخلي المتواضع، أنّني قادر على إقراضه. ومن حسن الحظّ أنّه مات بحمّى المستنقعات أو بمرض آخر لم أعد أذكره بعد مضيّ بضع سنوات على زواجي من هيلدا، ثمّ ما لبث أن لحق به العجوزان.

باختصار، تزوّجنا أنا وهيلدا، ومنذ البداية تبيّن أنّه زواج فاشل. قد تسألون: ولماذا تزوّجتها؟ ولكن، لماذا تزوجتم أنتم

نساءكم؟ إنّها أمور تحدث في الحياة. لست أدري ما إذا كنتم ستصدّقوني، فقد فكرت جدّياً في قتلها خلال السنتين أو السنوات الثلاث الأولى. هذه بطبيعة الحال أمور لا تنفّذ قط. فهي من تلك الأفكار الغامضة التي يعلّل بها المرء نفسه من وقت إلى آخر. ثمّ إنّ الرجال الذين يقتلون نساءهم يلقى عليهم القبض دائماً. مهما كانت خطّتك متقنة، فالشرطة تنجح دائماً في اكتشاف أمرك. ذلك أنّه عند مقتل الزوجة، يكون الزوج دائماً هو المشتبه به الأول، وهو ما يعطيك فكرة عن تصوّر الناس للزواج.

وبمرور الزمن، يتعوّد الإنسان. فبعد عام أو عامين، عدلت عن فكرة القتل، وعكفت على التفكير في هيلدا. واكتفيت بالتفكير فقط. لمّا كنت أعود من العمل مساء، أو بعد ظهر أيّام الآحاد، أستلقي على السرير بملابسي، بحيث لا أنزع سوى حذائي، وأروح أفكّر لساعات في النساء بصفة عامة. لماذا هنّ هكذا؟ ولماذا يَصِرْن هكذا؟ أيفعلن ذلك عمداً؟ وتبدو الكيفية المفاجئة التي تنهار بها بعض النساء جسدياً بعد الزواج شيئاً مريعاً. يتهيّأ لك كما لو أنّهنّ كنّ يسعين إلى هدف واحد وحيد، ما إن يحقّقنه حتّى يعلوهنّ الذبول مثل زهرة طرحت بذرتها. وما يُحبطني حقّاً هو الموقف الكئيب من الحياة الذي ينطوي عليه كلّ هذا. لو أنّ الزواج عملية نصب على المكشوف -بحيث تقول لك المرأة حين تسقطك في شباكها: الآن وقد أحكمت قبضتي عليك أيّها النذل، ليس أمامك إلّا أن تخدمني بينما أتفرّغ أنا للمتعة!- لاستسغت ذلك. لكنّ الأمور لا تجري على هذا النحو إطلاقاً. هنّ لا يرغبن في المتعة بل كلّ ما يتُقْنَ إليه هو التوغّل بأسرع ما يمكن في سنّ النضج. فبعد المعركة الضروس التي تخوضها المرأة لكي تقود الرجل إلى المذبح، تهمل نفسها، فيخبو

شبابها ويذبل جمالها وتفتر حيويتها وبهجتها بين عشية وضحاها. وهذا بالضبط ما حدث لهيلدا. تحوّلت من فتاة جميلة مرهفة كما عرفتها خلال السنوات الثلاث الأولى، إلى امرأة كئيبة، رثّة الثياب. وأنا لا أنفي تحمّلي جانباً من المسؤولية. لكن حتّى لو أنّها تزوّجت شخصاً آخر، كانت ستنتهي إلى الحال نفسه.

ما ينقص هيلدا، وهو أمر تنبّهت له منذ الأسبوع الأوّل من زواجنا، هي بهجة الحياة والاهتمام بما يدور حولها. هي لا تؤمن إطلاقاً بأنّ المرء يمكن أن يفعل أشياء لمجرّد أنه يجد فيها متعة. إنّ هيلدا هي التي مكّنتني من فهم حقيقة حياة أسر الطبقة الوسطى، التي كان وضعها يتضعضع شيئاً فشيئاً. الأمر الجوهري في حالة هذه الأسر هو أنّها فقدت حيويتها بسبب تضاؤل دخلها. فهي تعيش على معاشات هزيلة وإيرادات سنوية أخرى -أيّ على دخل ثابت لا ينمو، بل يتناقص-، وتشعر بالفقر بحيث تفكّر ألف مرّة قبل أن تُقدم على أيّ إنفاق. وهو شعور أشدّ ممّا لدى الأسر العاملة في الفلاحة مثل أسرتي.

حكت لي هيلدا مراراً أنّها لا تزال تذكر من طفولتها المبكّرة ذلك الشعور الرهيب الذي كان ينتابهم عند الإقدام على شراء أيّ شيء. إحساس بأنّهم لا يملكون ما يكفي من المال. وبطبيعة الحال فإنّ الشعور بالعوز الشديد يصل إلى أوجِه حين يلتحق الأطفال بالمدرسة. وهو ما يترتّب عنه أنّهم لا ينشؤون -لا سيما الفتيات- على فكرة قضاء حياتهم كلّها في الضنك فحسب، بل على تأنيب أنفسهم باستمرار على ذلك أيضاً.

سكنّا في البداية في شقة ضيّقة، وكنت أذهب إلى العمل على نفقتي الخاصة. ولمّا نقلت فيما بعد إلى فرع ويست بليتشلي، تحسّن

وضعنا، لكنّ علاقة هيلدا بالمال لم تتغيّر، واستمرّت المشاكل نفسها المتعلقة بالنقود: فاتورة الحليب! فاتورة الفحم! الإيجار! المدرسة! من يسمعها تتحدّث يخال أنّنا على وشك التشرّد. ليس معنى هذا أنّ هيلدا امرأة شحيحة بالمعنى الشائع للكلمة، أو أنانيّة. فحتّى لمّا يكون بحوزتنا فائض من المال، أواجه صعوبة كبيرة في إقناعها بأن تشتري لنفسها ملابس لائقة. هي تعيش بذلك الشعور الدائم بأنّ عليها أن تبقى في كامل اليقظة والحرص حتّى لا تسقط في العوز. وهي تفعل ذلك من باب الواجب. أمّا أنا فلست كذلك. تعاملي مع المال أشبه بتعامل الطبقة الشغّيلة. أؤمن أنّ الحياة وجدت لكي نحياها، وإذا اضطررنا للعيش على الحساء في الأسبوع الموالي، فلا بأس. وما يصدمها حقّاً هو أنّني أرفض الاستسلام للقلق، ممّا يجعلها لا تكفّ عن لومي: «ولكن يا جورج! لقد نفد المال تماماً وأنت تتصرّف كما لو أنّ شيئاً لم يقع! الوضع في منتهى الخطورة!»، ما يروقها كثيراً هو أن تظهر الجزع لأنّ هذا الشيء أو ذاك ليس «جادّاً». وصارت منذ فترة لمّا يغيظها شيء، تهزّ كتفيها، وتشبك ذراعيها على صدرها. ولو أنكم تجْرُدون قائمة اتّهامات ومؤاخذات هيلدا اليومية، لسجّلتم في رأسها، وبحروف بارزة: «إمكاناتنا لا تسمح!»، «سنوفّر مبلغاً مهماً»، «أتساءل من أين سنأتي بالمال!» ومن ثمة فكلّ ما تفعل، تبرّره بأسباب سلبية. حين تهيّئ حلوى، فهي لا تفكّر في الحلوى، بل في الكيفية التي ستقتصد بها الزبدة والبيض. وحين أكون إلى جانبها في السرير، لا تكفّ عن الحديث عن الوسائل التي تجنّب الحمل. وحين تذهب إلى السينما، لا تتوقّف عن التبرّم من ثمن التذكرة. لو رأت أمّي طريقة تدبيرها للمنزل -«استعمال البقايا»، «الاكتفاء بالمتوفّر»- لقامت من قبرها.

من جانب آخر، ليست هيلدا امرأة متكبّرة. لم تنظر إليّ قط نظرة ازدراء باعتباري لست نبيلاً. بالعكس، طبعي وتصرّفاتي في نظرها أقرب إلى طباع النبلاء وتصرّفاتهم. فنحن لا نتناول الشاي في الخارج أبداً دون أن تمعن في تأنيبي لأنّني بالغت في الكرم مع النادلة. والغريب هو أنّها صارت في السنوات الأخيرة أقرب إلى نمط عيش البرجوازية الصغيرة منّي. بطبيعة الحال، لم يُجدِ كلّ ذلك التقتير نفعاً. ذلك أنّنا لم نعش أحسن ولا أسوأ من معظم سكان حي إليسمير. لكنّها مع ذلك استمرّت في التبرّم من فاتورتَي الغاز والحليب، ومن ثمن الزبدة وأحذية الأطفال وما ندفعه للمدرسة وما إلى ذلك. فالأمر بالنسبة إليها أشبه بلعبة.

استقررنا في ويست بليتشلي سنة 1929. وشرعنا في أداء أقساط المنزل في السنة الموالية، قبيل ولادة بيلي. ولمّا ترقيتُ إلى منصب مفتّش، صرت أقضي وقتاً أكثر بعيداً عن البيت، وتوفّرت لي فرص أكثر للقاء نساء أخريات. وبطبيعة الحال كنت أخون هيلدا، ليس بشكل دائم، بل كلّما سنحت الفرصة. والغريب هو أنّ هيلدا كانت غيورة، وهو أمر ما توقّعته منها بالنظر إلى أنّها كانت تعير هذه الأشياء أهميّة. وككلّ النساء الغيورات، تملك من الحيل ما لا يخطر لي على بال. ولولا أنّها تشتبه فيّ أحياناً بالقدر نفسه حتّى لمّا أكون بريئاً، لعزوت الأمر إلى توارد الخواطر. كانت دائمة الشكّ فيّ رغم أنّني -والله يشهد- لم أكن أذنب إلا نادراً خلال السنوات الخمس الأخيرة. أنّى لي فعل ذلك وقد صرت بديناً؟

وفي الأخير أقول في نفسي إنّنا، أنا وهيلدا، لسنا أسوأ من نصف أزواج حي إليسمير. وقد حدث لي أحياناً أن فكّرت في الانفصال أو الطلاق، لولا أنّ ذلك أمر مستهجن في وسطنا. ثمّ

إنّني لم أكن أملك الإمكانات للإقدام عليه. وبمرور الزمن، انتهيت إلى التسليم بالأمر الواقع والإذعان. فحين تقضي مع امرأة خمس عشرة سنة، يصير من الصعب عليك العيش من دونها، وتصبح شيئاً لا مندوحة لك عنه. قد تعترض على الشمس أو القمر، لكن هل يدفعك ذلك إلى الرغبة في تغييرهما؟ وعدا هذا وذاك، هناك الأطفال الذين يقال عنهم «الرباط» أو «الوثاق» حتّى لا أقول العقال أو السلسلة.

خلال السنوات الأخيرة، أقامت هيلدا صداقة وثيقة مع امرأتين اثنيتن: السيدة ويلر والآنسة مينس. أمّا السيدة ويلر، فأرملة، تحمل أفكاراً مريرة عن الرجال فيما يبدو لي. كلّما جازفت بالدخول إلى الغرفة التي يجلسن فيها، إلّا ولاحظتُ عليها ضرباً من الاختلاج العدواني. امرأة ضئيلة ذابلة، من يراها يساوره انطباع غريب بأنّ جسدها كلّه بلون واحد. بشرة شاحبة تميل إلى اللون الرمادي، لكنّها مفعمة بالحيوية. وهي تمارس على هيلدا تأثيراً مؤذياً، لأنّهما مولعتان معاً بـ«استعمال البقايا» و«الاكتفاء بالمتوفّر»، وإن كانتا تختلفان في الأسلوب. فهي ترى أنّ بإمكان المرء أن يتسلّى دون أن يدفع فلساً. وهي دائمة البحث عن الصفقات المربحة والتسليات المجانية. ليس المهمّ، بالنسبة إلى هذا الصنف من الناس، أن تكون لديهم الرغبة فيما يشترون، بل يكفي أن يكون الثمن مخفّضاً. وما إن يحلّ موسم التخفيضات في المحلات الكبرى، حتّى تكون السيدة ويلر من أوائل الواقفين في الطابور. ولا شيء يبهجها أكثر من أن تقضي يومها في التدافع والشجار في المتاجر، ثمّ تعود إلى البيت دون أن تشتري شيئاً. أمّا الآنسة مينس، فمختلفة تماماً. امرأة طويلة ونحيفة، في حوالي الثامنة والثلاثين من العمر، بشعر فاحم، ووجه

يبعث على الثقة. وهي تعيش على دخل ضئيل ثابت، وتمثّل نموذج مجتمع ويست بليتشلي القديم، لمّا كان لا يزال بلدة ريفية. كلّ ما يصدر عنها يشي بأنّ أباها كان قسّاً، وأنّه ربّاها تربية دينية محافظة. إنّها من أولئك النسوة اللواتي يترهّلن حتّى قبل مغادرة البيت العائلي، وهنّ نتاج طبيعي للطبقة الوسطى. ورغم التجاعيد البادية على الآنسة مينس المسكينة، فكلّ شيء فيها يشي بالطفولة. فالانقطاع عن الذهاب إلى الكنسية يمثّل بالنسبة إليها مغامرة باهرة. وهي لا تكفّ عن الحديث بحماس عن «التقدّم الحديث» و«الحركة النسائية»، وتطمح على نحو غامض إلى «تثقيف عقلها»، وإن كانت لا تعرف من أين تبدأ. أظنّها رأت أوّل الأمر أنّ في مرافقة هيلدا والسيدة ويلر مخرجاً من عزلتها، لكنهما راحتا تأخذانها حيثما تذهبان.

ما أشدّ ما استمتعت معاً هذه النسوة! حتّى أنّني كثيراً ما كنت أغبطهنّ. كانت السيدة ويلر هي قائدة المجموعة، ولم تترك حماقة إلّا أوقعتهما فيها، من فلسفة اللاهوت إلى لعبة الخيط، شريطة أن تكون مجانيّة. طوال شهور وهنّ يلهجن بـ«الطعام الطبيعي». كانت السيدة ويلر قد اشترت من الخردوات نسخة من كتاب بعنوان **الطاقة المشرقة** يذهب فيه صاحبه إلى أن الإنسان يمكن أن يعيش على السَلَطة والأطعمة غير المكلفة. وهي فكرة استهوت هيلدا بسرعة، فبادرت إلى اتّباع حمية تقوم على تجويع النفس. ولولا احتجاجي لكانت فرضت علينا، أنا والأطفال، حميتها هذه. ثمّ انتقلن إثر ذلك إلى العلاج بالإيمان، وبعده إلى نظام الدكتور بيلمان القائم على تمارين الذاكرة. لكنّهن سرعان ما تخلّين عنها، إذ اكتشفن، بعد مراسلات طويلة، أنّهن لا يستطعن الحصول على المطبوعات مجّاناً

بخلاف ما كانت تأمل السيدة ويلر. بعد ذلك انتقلن إلى القِدْر النرويجي، ثمّ إلى قذارة تسمّى «نبيذ النحل»، وهو شراب رخيص يُصنع من العسل والماء. لكنّهنّ سرعان ما تخلين عنه بعدما قرأن في إحدى الجرائد أنّه يسبب السرطان. ثمّ التحقن بأحد تلك النوادي التي تنظّم زيارات نسائية إلى المصانع. ولم تمضِ مدّة طويلة حتّى تركنه لأنّ السيدة ويلر استنتجت بعد حسابات معقّدة أنّ الشاي الذي تقدّمه المصانع مجّاناً لا يغطي تكلفة رسوم الاشتراك. ثمّ تعرّفت إلى شخص يحصل على بطاقات مجانية لحضور عروض مسرحية تقدّمها فرق مغمورة. وقد بلغني أنهنّ كنّ يجلسن أحياناً لساعات طويلة وهنّ يتابعن مسرحيات طليعية لا يفهمن منها شيئاً (بل لا يذكرن حتّى عنوانها بعد انتهاء العرض). هنّ مستعدّات لأيّ شيء بشرط أن يكون مجّاناً. وقد بلغ بهنّ الأمر أن جرّبن استحضار الأرواح أيضاً. ذلك أنّ السيدة ويلر تعرّفت إلى محضّر أرواح مفلس يقبل الإشراف على جلسات مقابل ثمانية عشر قرشاً، إذ يكفي أن تدفع كلّ منهنّ ستة قروش ليطّلعن على ما يخبّئ لهنّ المستقبل. وقد رأيت هذا الرجل ذات يوم في البيت بينما كان يحضّر الأرواح. رجل معدم بائس، تبدو عليه أعراض الهذيان الارتعاشي. كان شديد الارتعاد بحيث أنّه حين همّ بنزع معطفه عند مدخل البيت، تشنّجت عضلاته فسقط من جيب سرواله شاش، أعدته له خلسة دون أن تراني النسوة، وهو الشاش الذي يُظهِر به إشعاع جسمه فيما قيل لي. وقد خمّنت من استعجاله أنّ جلسة أخرى تنتظره بمجرّد ما ينتهي.

وإذا كانت السيدة ويلر قد نجحت في الوقوع على من يستحضر لها الأرواح بثمانية عشر قرشاً، فإنّ اكتشافها الأكبر كان هو نادي الكتاب اليساري. وأعتقد أنّ خبر وجود هذا النادي في ويست

بليتشلي لم ينتشر إلّا في سنة 1936. وأذكر أنّني ما إن سمعت به حتّى تسجّلت فيه. وربّما كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي لم تؤنّبني فيها هيلدا على هدر المال، وذلك لسبب بسيط هو أنّ الانتماء إلى النادي يسمح بشراء الكتب بثلث ثمنها. على أنّ تصرّفات تلك النسوة كانت غريبة حقّاً. فإذا كانت الآنسة مينس قد نجحت في قراءة كتاب أو كتابَين، فإنّ صديقتيها لم تخطر لهما قراءة كتاب على بال قطّ. فهنّ لم يشاركن في أنشطة النادي أبداً، بل لا يعرفن البتّة حقيقته على وجد الدقّة -أحسِبُ أنّ السيدة ويلر تخيّلت في البداية أنّ الأمر يتعلّق بكتب يتركها أصحابها في عربات القطار، فتباع بأثمنة بخسة-. لكنهنّ علمن فيما بعد أنّ ثمن الكتاب ستة قروش بدل نصف جنيه، فاعتبرن ذلك «فكرة جيّدة».

وكان الفرع المحلّي للنادي يعقد بين الفينة والأخرى اجتماعات يستدعي إليها محاضرين من مناطق أخرى، فكانت السيدة ويلر تستقدم معها رفيقتيها. وكان لها ولع شديد بالاجتماعات العامة، لكن شريطة أن تنظّم داخل النادي، ولا تكلّف شيئاً. هكذا كنّ يجلسن هناك مثل ثلاث كتل من الصخر، لا يعرفن شيئاً عن موضوع الاجتماع -بل ذلك هو آخر ما يعنيهنّ-، لكن كان لديهنّ، لا سيما الآنسة مينس، إحساس غامض بأنهنّ يثقّفن عقولهنّ دون أن يدفعن فلساً واحداً.

هذه هي هيلدا. ومهما يكن، فهي ليست أسوأ منّي على كلّ حال. في بداية زواجنا، كانت تراودني أحياناً فكرة خنقها. لكن سرعان ما دبّ فيّ الفتور. ثمّ صرت بديناً، فترزّنت. أظنّ ذلك وقع حوالي سنة 1930. حدث دفعة واحدة كما لو أنّ قذيفة مدفع دخلت بطني واستقرّت. لعلّكم تعرفون كيف يجري ذلك. ينام المرء ذات

ليلة وهو يشعر بأنّه لا يزال شاباً، يطمع في الفتيات، لكنّه يستيقظ في صباح اليوم الموالي «بديناً» لا همّ له سوى الكدّ المضني ليشتري أحذية للعيال.

والآن، في سنة 1938، ها هم يبرشمون السفن الحربية في كلّ أحواض بناء السفن بالمعمور استعداداً لحرب جديدة. وقد أيقظ فيّ اسم لمحته بالصدفة على ملصق، أشياء كان حقّها أن تدفن منذ سنين خلت.

الجزء الثالث

1

لـمّا عدت إلى البيت ذلك المساء، كنت لا أزال أتساءل عمّا سأفعل بتلك الجنيهات السبعة عشر.

أعلنت هيلدا أنّها ستذهب إلى اجتماع نادي الكتاب اليساري. الظاهر أنّ شخصاً سيقدم من لندن ليلقي محاضرة. لم أسألها عن الموضوع، لأنّني كنت واثقاً من أنّها لا تعرفه. وقلت لها إنّني سأرافقها رغم عدم ولعي بالمحاضرات. لكن رؤى الحرب التي تملّكتني هذا الصباح بينما كانت الطائرة الحربية تحلّق فوق القطار، شغلت فكري. فبعد المشاحنة المألوفة، بعثنا الأطفال إلى النوم مبكّراً، وانطلقنا إلى النادي لنصل قبل الثامنة مساء، وهو الوقت المقرّر لانطلاق المحاضرة.

كان الضباب كثيفاً في الخارج، والقاعة باردة، وإنارتها غير كافية. قاعة صغيرة مبنيّة بالخشب، ذات سقف من صفائح القصدير، في ملكيّة طائفة غير متشدّدة، وتؤجّرها بعشر شلنات. وجدنا فيها خمسة عشر نفراً أو ستة عشر. لا بدّ أنّهم جمهور النادي المألوف. كانت توجد أمام المصطبة لافتة صفراء تعلن عن موضوع المحاضرة: «خطر الفاشية». لا أستطيع أن أقول إن ذلك فاجأني. فالسيد ويتشيت الذي يترأّس هذه الاجتماعات، والذي يشتغل في مكتب أحد

المهندسين العمرانيين، هو الذي قدّم المحاضر للجمهور، قائلاً: «السيد سميث (أو جونز، الاسم لا أهمية له!)، المعادي للفاشية الشهير»، كما لو أنّه يقول: «العازف الشهير». أمّا المحاضر فرجل ضئيل أصلع، في حوالي الأربعين من العمر، يرتدي بدلة داكنة، يبدو أنّه يتمحّل لإخفاء صلعته ببعض الخصلات المتبقية من شعره.

هذا النوع من الاجتماعات لا يبدأ أبداً في الموعد. هناك دائماً فترة انتظار بدعوى أنّ أفراداً من الجمهور قد يصلون. وقد كانت الساعة تشير إلى حوالي الثامنة وخمس وعشرين دقيقة لمّا ضرب ويتشيت على الطاولة منبّهاً إلى أنّه سيشرع في الكلام. وهو يبدو رجلاً لطيفاً. تخيّلوا وجهاً وردياً كمؤخّرة رضيع، تعلوه الابتسامة. وأنا أظنّه السكرتير المحلي للحزب الليبرالي. كما أنّه عضو في المجلس البلدي ويرأس عروض المصباح الذهبي التي يسهر عليها اتّحاد الأمهات، بحيث يمكن القول إنّه ولد ليرأس الجلسات. ولمّا يقول: «السعادة التي نشعر بها جميعاً باستقبال السيد سميث (أو السيد جونز) هذا المساء»، نشعر بأنّه يقول ذلك صادقاً. بعد ذلك وضع الرجل أمامه رزمة أوراق، معظمها قصاصات جرائد، ثبّتها تحت كأس الماء. وبعد أن بلّل شفتيه، شرع في الحديث.

هل حدث أن ذهبتم إلى محاضرة أو اجتماع عمومي أو شيء من هذا القبيل؟ حين أحضرها، تأتي لحظة دائماً، تستحوذ عليّ الفكرة نفسها: تبّاً! ماذا أفعل هنا؟ ما الذي يدفع الناس إلى مغادرة بيوتهم في ليلة باردة كهذه ليسمعوا مثل هذا الكلام؟ ونظرت حولي. كنت أجلس في الصفوف الخلفية. لا أذكر أنّني حضرت اجتماعاً عمومياً دون أن أجلس في الصف الأخير، إلّا إذا تعذّر ذلك. أمّا هيلدا ورفيقتاها، فانحشرن في الصفّ الأوّل كعادتهنّ. كانت القاعة

صغيرة وكئيبة. ولا بدّ أنّكم تعرفون هذا النوع من القاعات. جدران صنوبرية اللون، وسقف من صفائح القصدير كما ذكرت، وما يكفي من البرودة لكي لا تتخلّص من معطفك. كنّا نجلس في دائرة صغيرة متحلّقين حول المصطبة المضاءة، وخلفنا حوالي ثلاثين صفّاً من الكراسي الفارغة، تعلوها طبقة سميكة من الغبار. وخلف المحاضر يوجد شيء ضخم، مستور بغطاء كامد كنعش تحت قماش جنائزي، هو في الحقيقة آلة بيانو.

لم أكن أنصت لكلام المحاضر أوّل الأمر. رغم أنّه ضئيل لا يملأ العين، بوجهه الشاحب، وحركات فمه السريعة، وصوته الأجش الذي صار كذلك من كثرة الحديث في المحافل، إلّا أنّه يتقن الكلام. كان يتحدّث عن هتلر ويهاجمه، وهو موضوع لم يكن ليشدّ انتباهي لكثرة ما كنت أقرأ عنه كلّ صباح في مجلة **نيوز كرونيكل**، لكن صوته كان يصل إلى مسامعي كبربرة غير مفهومة. عدا أن جملة كانت تخرج من تلك الكتلة الصوتية بين الفينة والأخرى، وتلفت انتباهي، مثل: «الوحشية البهيمية... نوبات سادية بغيضة... العصي... معسكرات الاعتقال... الاضطهاد الجائر لليهود... العودة إلى الظلامية... الحضارة الأوروبية... التصرّف قبل فوات الأوان... كلّ الشعوب التي تحترم نفسها ينبغي أن تعبّر عن الإدانة... تحالف الأمم الديمقراطية... الصمود... الدفاع عن الديمقراطية... الديمقراطية... الفاشية... الديمقراطية... الفاشية... الديمقراطية...».

لا بدّ أنّكم تعرفون اللازمة. فمثل هؤلاء الأشخاص يستطيعون تكرارها على مسامعكم لساعات مثل آلة فونوغراف. ما عليكم إلّا أن تديروا الذراع، وتضغطوا على الزر. ديمقراطية، فاشية، ديمقراطية.

ورغم تفاهته، شعرت بشيء من التشويق في متابعته. رجل ضئيل على قدر من السخافة، أصلع وشديد البياض، واقف على المصطبة يطلق شعاراته. ماذا يفعل هناك؟ إنّه يوغر الصدور ويزرع الكراهية علانية وعلى نحو متعمّد. يبذل قصارى جهده ليجعلك تكره الأجانب الذين ينعتهم بالفاشيين. وقلت في نفسي، ما أغرب أمر هذا الرجل الذي جعل من معاداة الفاشية مهنة! وأظنّه يكسب قوته من تأليف كتب حول هتلر. لكن، ماذا تُراه كان يفعل قبل هتلر يا ترى؟ وماذا سيفعل حين سيختفي هتلر؟ والأمر نفسه ينسحب على الأطباء ورجال الشرطة ومن يشتغلون في إبادة الجرذان، وغيرهم. على أنّ الصوت الأجش لا يكلّ. وراودتني فكرة أخرى. إنّه يعني ما يقول، ويؤمن بكلّ كلمة ينطقها. يحاول إثارة الكراهية لدى أولئك الذين ينصتون إليه، لكنّ ذلك لا يمثّل شيئاً أمام الكراهية التي يمتلئ بها صدره. وكلّ شعار هو حقيقة مستمدة من الإنجيل في نظره. لو شققت صدره لترى ما في داخله، لوجدت الديمقراطية والفاشية والديمقراطية. ولعلّه من المهمّ معرفة الحياة الخاصة لرجل غريب الأطوار كهذا. لكن، ألا يعيش سوى حياة خاصة؟ أم أنّه يتجوّل من منبر إلى منبر محرّضاً على الكراهية؟

حاولت بمقدار ما يسمح به الموقع الذي أحتلّه من القاعة، أن أتفرّس الحاضرين. حين أفكّر في الأمر من جديد، أجد أنّنا جميعاً، نحن من نحضر في قاعة باردة لكي ننصت لمحاضرات نادي كتاب اليسار (وأنا أحشر نفسي في «نحن» هذه، بما أنّ الأقدار قادتني إلى هناك)، نحمل دلالة معيّنة. نحن ثوار ويست بليتشلي. للوهلة الأولى، لا يبدو الأمر مشجّعاً. حين نظرت حولي، خُيّل لي أنّ نصف الحاضرين هم من فهموا المحاضرة حقّاً أو أنّهم يريدون أن

يقولوا للمحاضر شيئاً، رغم أنّه لم يتوقّف عن التحامل على هتلر والنازيين لما يزيد عن نصف ساعة. على هذا النحو تجري الأمور دائماً في مثل هذه الاجتماعات. سينصرف نصف الحاضرين دون أن يفهموا كلمة ممّا قيل.

كان ويتشيت جالساً بجوار المحاضر، ينظر إليه فاغراً فمه فيه، وبدا وجهه مثل زهرة إبرة الراعي. وكان الحاضرون يعرفون سلفاً الكلمة التي سيختم بها الجلسة -وهي نفسها التي يكرّرها في كلّ جلسات المصباح السحري: «نعبّر عن تشكراتنا... تشكراتنا جميعاً... أثيرت أفكار مهمة... من أكثر الأمسيات إثارة...»، وقد كانت الآنسة مينس جالسة باستقامة على مقعدها في الصف الأوّل، وقد أمالت رأسها إلى الجانب قليلاً، كما تفعل الطيور.

تناول المحاضر ورقة من تحت كأس الماء أمامه، ومضى يعرض إحصائيات حول الانتحار في ألمانيا. لو رأيتم عنق الآنسة مينس الطويل المهزول، لخمّنتم أنّها تشعر بالحزن. أكانت تثقّف عقلها؟ آه لو استطاعت أن تفهم مضمون المحاضرة! أمّا رفيقتاها، فجلستا مسلوبتَي الإرادة، وبجانبهما جلست امرأة ضئيلة ذات شعر أحمر تحبك كنزة. كان المحاضر يشرح كيف يضرب النازيون أعناق الناس بتهمة الخيانة، وكيف أنّ السيّاف يخطئ الضربة أحياناً. وكانت بين الحاضرين امرأة أخرى، آنسة مدرسة ذات شعر داكن. كانت تنصت للمحاضرة حقّاً بخلاف الأخريات، تميل برأسها إلى الأمام وتحملق بعينيها المدوّرتين في المحاضر فاغرة الفم، تبتلع كلامه ابتلاعاً.

خلفها مباشرة جلس شخصان من الفرع المحلّي للحزب العمالي، أحدهما ذو شعر قصير أشيب، والآخر أصلع ذو شنب

متدلٍّ. وهما معاً ظلّا بمعطفيهما. ولعلّكم تعرفون هذا النموذج من الناس. التحقا بالحزب منذ بلغا سنّ الالتحاق القانوني، ثمّ نذرا حياتهما للنضال. لمدّة عشرين سنة وهما على لائحة المشغّلين السوداء، وعشر سنوات أخرى قضياها في مشاكسة المجلس البلدي دفاعاً عن الأحياء الفقيرة، وفي رمشة عين، تغيّر كلّ شيء. إلى المزبلة الشعارات القديمة! ما يهمّ الآن هي السياسة الخارجية: هتلر، لينين، قذائف، رشاشات، عصي، محور روما برلين، الجبهة الشعبية، الحلف المعادي للكومنترن، وتفاهات أخرى.

وأمامي مباشرة جلس أعضاء الفرع المحلي للحزب الشيوعي. ثلاثتهم شباب. أوّلهم ميسور الحال إلى حدّ ما، على علاقة بشركة هيسبريدز العقارية، وأظنّه ابن أخت كروم، بينما الثاني موظّف في البنك. هو من يتسلّم منّي الشيكات أحياناً. وهو شابّ لطيف، مستدير الوجه، متّقد، ذو عينين زرقاوين وشعر بالغ الشقرة كأنّه مصبوغ. من يراه يعتقد أنّه في السابعة عشرة من العمر بينما هو في العشرين. كان يلبس في تلك الأمسية بدلة زرقاء رخيصة وربطة عنق زرقاء فاتحة تتناسق مع لون شعره. وبجانب الثلاثة يجلس شيوعي آخر، لكنّه فيما يبدو من طينة أخرى، ينتمي إلى من يسمّون بالتروتسكاويين. لذلك ينظر إليه الآخران نظرة عدائية. وهو أصغر سنّاً منهما، بالغ النحول، شاحب اللون، يبدو سريع الانفعال، يهودي الديانة بالطبع. وكان هؤلاء الأربعة لا ينصتون مثل بقيّة الحضور. كان واضحاً أنهم لا ينتظرون سوى نهاية المحاضرة ليسألوا المحاضر. ويشعر من يراهم بأنّهم يتحرّقون لتلك اللحظة. بل كان الشاب التروتسكاوي يتلوّى على مقعده من شدّة تلهّفه إلى أن يكون أوّل من يتناول الكلمة.

توقّفت لحظة عن الإنصات لكلام المحاضر. على أنّ ثمّة طرائق متعدّدة للإنصات. أغمضت عيني لهنيهة، فوجدت أثر ذلك غريباً. تهيّأ لي أنّني أرى صورة هذا الرجل أوضح ما تكون بالاقتصار على سماع صوته فقط. صوت يجعلك تظنّه قادراً على الاستمرار هكذا على مدى خمسة عشر يوماً. إنّه لمن الغرابة أن يتحوّل رجل إلى آلة أرغن يدوية لا تتعب من ترديد اللازمة نفسها: الكراهية، الكراهية، الكراهية. لنتّحد جميعاً على الكراهية. الكراهية دائماً وأبداً. تحسّ كما لو أنّ شيئاً ينفذ إلى جمجمتك، ويدقّ دماغك. بعد لحظة، قلبت الأدوار وأنا لا أزال مغمض العينين. قرّرت أن أتسلّل إلى جمجمته، وانتابني شعور غريب. وفي رمشة عين تلبّست به حتّى صرت كأنني هو، وصرت أشعر بما يشعر.

تبدّت لي رؤيته، وهي ليست من نوع الرؤى التي يمكن شرحها. لم يكن يقول سوى أنّ هتلر يلاحقنا، ومن ثمّة علينا أن نتّحد ونشحذ كراهيتنا ونترك التفاصيل جانباً، ولا نخرج عن قواعد اللياقة. على أنّ ما يراه شيء مختلف تماماً. يرى صورته الخاصة وهو يحمل مفتاح براغي إنجليزي يضرب به وجوه الناس، الوجوه الفاشية بالطبع. أعرف أنّ هذا ما كان يراه، وهو ما رأيته أنا أيضاً خلال تلك الهنيهة التي كنت فيها بداخله. هيّا اضرب! اضرب في الوسط! تتحطّم العظام كقشور البيض، وتتحوّل إلى كتلة من مربّى الفراولة. اضرب! واضرب هذا أيضاً! هذا هو ما يملأ رأسه، في صحوه ونومه. وكلّما فكّر في هذا الأمر، زادت جاذبيته عنده. كلّ شيء على ما يرام طالما أنّ الوجوه المهشّمة هي وجوه الفاشيين. وهذا ما هو واضح حتّى من خلال نبرة صوته.

ولكن لماذا؟ التفسير الأقرب إلى الاحتمال هو أنّه خائف. ذلك

أنّ كلّ شخص عاقل اليوم، خائف. ولا شكّ أنّ ما يجعل هذا الرجل أشدّ خوفاً من الآخرين، هو أنّه يعرف أكثر ممّا يعرفون. هتلر يتعقّبنا! هيّا اسرعوا! خذوا مفاتيح البراغي، ووحّدوا الصفوف، إن نحن سبقنا إلى تهشيم وجوههم، فقد ننجوا منهم. احتشِدوا، وابحثوا لكم عن قائد. هتلر أسود وستالين أبيض. لكن من الممكن أن يكون العكس، لأنّ هتلر وستالين بالنسبة إلى العقول الصغيرة وجهان لعملة واحدة. كلاهما لا يفكّر إلّا في مفتاح البراغي وتهشيم الوجوه.

الحرب! لقد بدأت تشغلني من جديد. هي قادمة لا محالة. ولكن، من تخيفه الحرب والقنابل والرشاشات؟ قد تقولون: أنت. نعم، أنا خائف منها مثلما يخافها كلّ من عرفوها. على أنّ الأهمّ ليست الحرب، بل ما بعدها. العالم الذي نتّجه إليه، عالم الكراهية والشعارات والقمصان الموحّدة اللون والأسلاك الشائكة والعصي والزنازن المظلمة، والمخبرين الذين يراقبونك حتّى في نومك. عالم الاستعراضات العسكرية والملصقات التي تظهر عليها وجوه ضخمة، والحشود، ملايين البشر يهتفون باسم القائد ثمّ يسكتون في صمت مطبق حتّى ليخيّل إليك أنهم يقدّسونه، لكنّهم في قرارة أنفسهم يكرهونه إلى درجة الغثيان. كلّ هذا سيحدث، إلّا إذا . . . يخيّل إليّ في بعض الأيام أنّ ذلك مستحيل، وفي أيّام أخرى أرى أنّ وقوعه لا مفرّ منه. أمّا هذا المساء فأنا واثق من أنّه آتٍ لا محالة. وهو أمر واضح في صوت المحاضر. كما يمكن أن يُستشفّ من هذا الجمع البئيس الذي أتى لمتابعة محاضرة من هذا النوع في ليلة شتوية باردة، أو على الأقلّ من أولئك الخمسة أو الستة الذين يفهمون مضمونها. فهؤلاء ما هم إلّا طليعة جيش عرمرم، هم من ينظرون بعيداً،

الجرذان الأولى التي تتفطّن إلى أنّ السفينة تغرق. هيّا اسرعوا! اسرعوا! الفاشيون قادمون! هيّئوا مفاتيح البراغي إذا شئتم ألّا يسحقوكم! وها نحن من شدّة خوفنا من المستقبل نلقي بأنفسنا إلى التهلكة كما يرتمي أرنب في فم أَصَلَة عظيمة.

كيف سيكون مصير الناس من أمثالي إذا حلّت الفاشية بإنجلترا؟ الواقع أن ذلك لن يغيّر من الأمر شيئاً. أمّا بالنسبة إلى المحاضر، وكذا إلى الشيوعيين الأربعة الجالسين بين الجمهور، فذلك سيمثّل تغييراً كبيراً. سيهشّم بعضهم وجوه بعض، أو سيهشّمون وجوه أناس آخرين، بينما الناس العاديون أمثالي، الذين لا يثيرون الانتباه، ستسير حياتهم على نسقها المألوف. ومع ذلك فهذا يرعبني، نعم يرعبني. وعندما أنهى المحاضر كلامه وجلس، سألت نفسي عن السبب.

تعالت التصفيقات، وتردّد صداها كما لو أنّ القاعة فارغة. وتناول الكلمة ويتشيت ليردّد كلامه الفارغ. وقبل أن ينهي كلمته، وقف الشيوعيون الأربعة. مضوا يتشاحنون لبضع دقائق، يستعرضون حججاً لم يفهم منها أحد شيئاً: المادية الجدلية، مصير البروليتاريا هو ما قاله لينين سنة 1918. ارتشف المحاضر جرعة ماء، ونهض ليقدّم خلاصة زادت من تشنّج التروتسكاوي، لكنّها راقت للشيوعيين الثلاثة الآخرين. واستمرّت المشادّة الكلامية بعد رفع الجلسة.

لم يطلب الكلمة أحد غير هؤلاء. أمّا هيلدا ورفيقتاها، فانسحبن فور نهاية المحاضرة من دون إثارة الانتباه إليهنّ. لا بدّ أنهنّ خشين من جمع تبرعات لدفع إيجار القاعة، بينما واصلت المرأة ذات الشعر الأحمر الحياكة وهي تردّد بصوت يكاد يكون مسموعاً عدد عقد الخيط.

عاد ويتشيت إلى الجلوس وراح ينصت وقد بدا عليه الانشراح. بطبيعة الحال كان يبدو له كلّ ما يقال بالغ الأهمية. لذلك كان يدوّن بعض الملاحظات بينما كانت الآنسة ذات الشعر الأسود تتابع المتكلّمين بمنتهى الاهتمام، فاغرة الفم. الأمر نفسه بالنسبة إلى الرجل العجوز العمّالي الذي يشبه الفقمة بشنبه المتدلّي ومعطفه الذي يغطي أذنيه. كان ينظر إلى ما يجري في القاعة مشدوهاً. قمت أخيراً، وارتديت معطفي.

واستحال الجدال الغامض الذي انطلق قبل قليل إلى سجال شرس بين الشاب التروتسكاوي وصاحب الشعر الأشقر حول: هل ينبغي الانضمام إلى الجيش في حال نشوب الحرب، أم لا ينبغي؟ وبينما كنت أشقّ طريقي بين المقاعد لأغادر، خاطبني الشاب الأشقر قائلاً: «تعال يا سيد بولينغ! إذا قامت الحرب، وكانت لدينا فرصة لسحق الفاشية تماماً، ألن تحارب؟ أعني لو كنت شاباً».

لعلّه ظنّني في الستين من العمر.

«الأكيد أنّني لن أحارب. يكفي أنني شاركت في الحرب الأولى».

«ولكن إن تعلّق الأمر بسحق الفاشية؟!».

«كلا، لن أشارك. حَسْبُنا ما حدث من دمار. هذا هو رأيي».

ركّز الشاب التروتسكاوي في كلامه على قومية الطبقة العاملة المخذولة، لكن الآخر قاطعه قائلاً:

«إنّك تفكر في حرب 1914 التي كانت حرباً إمبريالية من بين حروب أخرى. أمّا الآن فالأمر مختلف في ألمانيا مع معسكرات الاعتقال والنازيين الذين يضطهدون الناس، ويجبرون اليهود على أن يبصقوا على بعضهم بعضاً. ألا يجعل هذا الدم يغلي في عروقك؟».

ما زالوا يتحدّثون عن هذا «الدم الذي يغلي». ما زلت أذكر أن هذا هو الكلام الذي كان يتردّد خلال الحرب الأولى.

«لقد غليت بما يكفي حتّى سنة 1916. لو أنّك شممت رائحة الخنادق لما غلى دمك الآن».

وتهيّأ لي فجأة كما لو أنّي أراه للمرّة الأولى، كما لو أنّني لم أره إلّا هذه اللحظة. وجه طفولي متّقد حماساً، كان من الممكن أن يكون وجه طالب وديع، بعينين زرقاوين وشعر أشقر. تفرّسني، وما هي إلّا لحظة حتّى ترقرقت عيناه بالدمع. أكلّ هذا التأثر من أجل وضع اليهود الألمان؟! لكنّني كنت أعرف على وجه الدقّة بماذا كان يشعر. إنّه شابّ ضخم كان من المفترض أن يلعب الرغبي مع فريق مؤسسته البنكية. وهو إلى ذلك ذكي. وها هو مستخدم في وكالة بنكية مغمورة بالضاحية، يجلس خلف زجاج ثخين يدوّن أرقاماً في سجلّ، ويحسب رزماً من الأوراق النقدية، ويتملّق رئيسه. يشعر بأنّ حياته تزداد تعفّناً يوماً بعد يوم، وخلال ذلك لا يملك إلّا أن يترقّب الفوضى العارمة التي توشك أن تعمّ أوروبا. القنابل المتفجّرة في الخنادق وأمواج المشاة تهجم عبر سحب الدخان. قد يكون له أصدقاء يحاربون في إسبانيا، وهو يتوق للقتال إلى جانبهم، ولا يمكن أن نلومه على ذلك. وشعرت فجأة وكأنّني أمام ابني، لا سيما أنّني قد أكون في سنّ أبيه. وعادت بي الذاكرة إلى ذلك اليوم من أيام أغسطس، حين علّق بائع الجرائد الملصق: **إنجلترا تعلن الحرب على ألمانيا**، فهرعنا جميعاً إلى الرصيف بوزراتنا البيضاء مهللين. وقلت له:

«اسمع يا بني، أنت لا تعرف حقيقة الأمر. توهّمنا سنة 1914 بأنّ الحرب ستقودنا إلى المجد. لكنّها لم تكن كذلك. لم تكن سوى

فوضى قذرة. إن نشبت من جديد فلا تلقِ بنفسك فيها. لماذا تعرّض نفسك للرصاص؟ صُن نفسك لفتاة تحبّك. لعلّك تتخيّل أنّ الحرب هي البطولة والبسالة في الهجوم على العدو. كلا، هي ليست كذلك. لم يعد ثمّة هجوم بالرماح، وحتّى حين يحدث، فهو مختلف تماماً عمّا تتصوّر. لن تشعر بأنّك بطل. كلّ ما ستشعر به هو أنّك لم تنم طوال ثلاثة أيام، وأنّك تفوح برائحة نتنة، تتبوّل في سروالك من الخوف، ويداك متجمّدتان من البرد بحيث لا تقوى على حمل سلاحك. إلّا أنّ كلّ هذا ليس شيئاً مقارنة بما سيحدث بعد الحرب».

كلام فارغ طبعاً، لا يعدو أن يكون كلام عجوز معتوه.

تفرّق الجمع. دعا ويتشيت المحاضر إلى بيته بينما انطلق الشيوعيون الثلاثة ومعهم اليهودي يمشون في الشارع، واستأنفوا جدالهم حول تضامن الطبقة العاملة، وجدلية الجدلية وما قاله تروتسكي سنة 1917. لا غرابة في ذلك، فهم يتشابهون.

كانت ليلة حالكة، ماطرة وهادئة. بدت مصابيح الإنارة العمومية مثل نجوم خافتة معلّقة في الظلمة. وفي البعيد كان يتردّد صرير الترامواي وهو يذرع الشارع. وشعرت برغبة في الشرب، لكن الوقت كان متأخّراً، وأقرب حانة تبعد نحو كيلومتر، هذا فضلاً عن أنّني بحاجة إلى شخص أتحدّث إليه، لكن ليس الحديث المعهود في الحانات. استغربت كيف أنّني شغلت عقلي طوال ذلك اليوم. من جهة لأنّني لم أعمل، ومن جهة أخرى بسبب الطقم الذي جعل منّي رجلاً جديداً. هكذا أمضيت اليوم ألوك ذكريات الماضي وأفكّر في المستقبل. كنت أرغب في الحديث عن المرحلة القذرة التي تتهيّأ أو لا تتهيّأ، عن الشعارات والقمصان السود أو البنّية، وعن القوة الآلية

لشرق أوروبا التي تتأهّب للانقضاض على إنجلترا العجوز، وهي أمور لا فائدة من الحديث فيها مع هيلدا. وفجأة خطر ببالي صديقي العجوز بورثيوس. فهو لا ينام باكراً.

كان بورثيوس مدرّساً في إحدى مدارس النخبة، وهو الآن متقاعد، يقطن شقّة واقعة في الطابق الأوّل بالمدينة العتيقة، بجوار الكنيسة. وهو عازب طبعاً، إذ لا يمكن تصوّر رجل مثله متزوّجاً. يعيش بمفرده مع كتبه وغليونه، تزوره امرأة مرّة كلّ أسبوع لتنظيف البيت وترتيبه. وهو يتقن اللغتين الإغريقية واللاتينية، ومتضلّع في الشعر وما إلى ذلك. والواقع أنّه إذا كان نادي الكتاب اليساري يمثل التقدّم، فبورثيوس يجسّد الثقافة. وكلاهما خافت في ويست بليتشلي.

كانت الغرفة التي يجلس فيها بورثيوس للقراءة حتّى وقت متأخّر من الليل لا تزال مضاءة. طرقت الباب، فهبّ لفتحه وقد وضع الغليون بين أسنانه والكتاب الذي يقرأ بين أصابعه كالعادة. إنّه رجل جذّاب، بقامته الفارعة، وشعره الأشيب، ووجهه النحيل الحالم، وبشرته الصافية بحيث يخاله الناظر فتى مراهقاً بينما يناهز الستين من العمر. إنّه لمن العجيب كيف يحافظ أساتذة مدارس النخبة والجامعات على شبابهم إلى آخر حياتهم.

تجعلك الكيفية التي يذرع بها العجوز بورثيوس الغرفة، برأسه المائل إلى الخلف قليلاً، وشعره المخرّص الأشيب، تحسِبه يقضي كلّ وقته ينشد القصائد لنفسه غير عابئ بما يجري حوله. وتكفي نظرة واحدة لتدرك أنّه تخرّج من مدرسة راقية ثمّ التحق بأكسفورد، وعاد أستاذاً إلى المدرسة التي درَس بها، وأنّه قضى حياته كاملة بين اللاتينية والإغريقية والكريكت. يرتدي سترة صوفية متآكلة وسروالاً

رمادياً قديماً لا يتحرّج في نعتهما باللباس المخزي. كما أنّه يدخن الغليون، ويشمئزّ من السجائر. ورغم أنّه يسهر معظم الليل، فأنا واثق من أنّه يستحم بالماء البارد كلّ صباح. أقول في نفسي لا بدّ أنّه يعتبرني في قرارة نفسه شخصاً جاهلاً، بما أنّني لم أدرس في مدارس النخبة، ولا أعرف شيئاً من اللاتينية، ولا نيّة لي في تعلّمها. وكثيراً ما يعبّر لي عن أسفه عن «كوني لا أتذوّق الجمال»، وهي طريقة لبقة ليقول إنني غير مهذّب. رغم ذلك، فأنا أحبّ بورثيوس. فهو شخص كريم، دائم الاستعداد لاستقبال الضيوف والتحدّث إليهم لساعات، والتكرّم عليهم بما يلزم من شراب. عندما تسكن في بيت ضيّق مثل بيتي، حيث لا يمكن أن تتحرّك داخله دون أن تدوس قدمك الزوجة أو الأطفال، ستشعر لا محالة بالابتهاج حين تجد نفسك بين الفينة والأخرى في أجواء حياة العزوبية. أجواء يملؤها دخان الغليون والكتب، ونعيم حياة أكسفورد حيث لا توجد غير الكتب والشعر والتماثيل الإغريقية، وتشعر أنّه لم يقع شيء ذو بال منذ أن دمّر الغوطيون روما. وهو أمر يساعدك على تحمّل قساوة الحياة.

أجلسني على المقعد الجلدي القديم قرب المدفأة، وسكب لي كأس ويسكي بالصودا. لم يسبق لي أن رأيت الغرفة غير غارقة في سحب دخان الغليون، بسقفها الأسود، وجدرانها المكسوّة بالكتب بحيث لا يبدو منها غير الباب والنوافذ. ويمكنك أن تجد فوق المدفأة أيّ شيء تتوقّعه: طقماً من الغلايين القذرة لم تعد مستعملة وبعض القطع النقدية الإغريقية، وعلبة تبغ كتب عليها شعار المدرسة التي درس بها بورثيوس، وقنديلاً من الفخار استخرجه من أحد جبال صقلية، حسبما قال لي يوماً. وفوقها عُرضت صور تماثيل إغريقية، أكبرها يوجد في الوسط، ويمثل امرأة بأجنحة ومن دون رأس، تبدو

كما لو أنّها تهمّ بالصعود إلى الحافلة. وما زلت أذكر كم كانت صدمة بورثيوس كبيرة لمّا سألته بسذاجة عندما رأيتها للمرّة الأولى عن السبب الذي جعلهم لا يضعون لها رأساً.

مضى يتناول التبغ من العلبة الموضوعة فوق المدفأة ويملأ غليونه، وقال:

«توجد في الطابق العلوي امرأة اقتنت مذياعاً. شيء لا يطاق! وددت لو أعيش بقيّة حياتي دون أن أسمع أصوات هذه الأشياء، لكن ليس باليد حيلة! هل تعرف أحكام القانون في مثل هذا الأمر؟».

قلت له إنّه لا يستطيع أن يفعل شيئاً. كنت أحبّ الطريقة الأكاديمية التي ينطق بها عبارة «لا يطاق»، وأضحكني أن يوجد في سنة 1938 من ما زال يضايقه المذياع. كان بورثيوس ما زال يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، مستغرقاً في تخيّلاته، حاشراً يديه في جيبيه، والغليون بين أسنانه. وما لبث أن خاض في الحديث عن قانون صدر في عهد بيريكلس بأثينا ضدّ الآلات الموسيقية. هكذا هو حديثه. كلّ المواضيع التي يخوض فيها تعود إلى الماضي وإلى القرون الغابرة. مهما حاولتَ أن تثير مواضيع أخرى، فهو يعود دائماً إلى التماثيل والشعر والإغريق والرومان. وإذا ذكرت باخرة كوين ماري مضى يحدّثك عن المراكب الفينيقية. وهو لا يقرأ أبداً الكتب الحديثة، ويرفض حتّى معرفة عناوينها، ولا يفتح قطّ جريدة باستثناء **ذا تايمز**. ويفخر بأنّ قدمه لم تطأ أبداً قاعة سينما. وعدا بعض الشعراء من أمثال كيتس ووردزوورث، يجد أن العالم الحديث -يقصد الألفي سنة الأخيرة- ما كان له أن يوجد.

أمّا أنا فأنتمي إلى العالم الحديث، ومع ذلك أحبّ الإنصات

إلى كلام بورثيوس. يتقدّم بين الرفوف، يتناول كتاباً من هنا، وآخر من هناك لكي يقرأ فقرة ويترجمها لك فوراً من اللاتينية أو من لغة أخرى مشابهة. كلّ ذلك وهو يذرع الغرفة وينفث الدخان من غليونه. إنّه أشبه بمعلم، لكنّ كلامه يبعث السكينة في النفس. إذ بينما تنصت إليه، لا تشعر بنفسك في عالم الترامواي وفواتير الغاز وشركات التأمين، بل في عالم المعابد وأشجار الزيتون والطواويس والفيلة، ورجال يجوبون الحلبة بشباكهم ورماحهم ذات الرؤوس الثلاثية، والأسود المجنّحة والخصيان والمراكب الحربية والمنجنيقات وقادة الجيش في لباسهم البرونزي يحثّون جيادهم لتخترق متاريس العدو. لذلك أستغرب كيف أنّه يتفاهم مع شخص مثلي. على أنّ إحدى مزايا البدانة هي أنّك تستطيع التأقلم مع كلّ الأجواء، هذا فضلاً عن أنّنا معاً مولعان بالقصص الخليعة، وهي الشيء الحديث الوحيد الذي يروقه، بشرط ألّا تكون راهنة، وهو أمر نبّهني إليه مراراً. وهو حين يحكي لك قصة، عادة ما يستعمل التلميح عوض التصريح، إذ يختار أحياناً شاعراً لاتينياً ويترجم من شعره بيتين أو ثلاثة على نحو يضطرني إلى تشغيل فكري لاستكناه معناها. وقد يعمد إلى تضمين كلامه شيئاً من حياة أباطرة الرومان الخاصة أو ممّا كان يحدث في معبد عشتروت، بحيث يبدو أنّ هؤلاء اليونان والرومان لم تكن حياتهم عفيفة كلّ العفّة. وممّا يؤكد ذلك أيضاً ما يملكه بورثيوس من صور لوحات جدارية مثيرة التقطت في بعض المواقع الأثرية بإيطاليا.

عندما أتعب من العمل ومن حياة البيت، أزور بورثيوس لأروّح عن نفسي قليلاً. على أنّ الأمر لم يجرِ هذه الليلة كالمعتاد، إذ ظلّ ذهني مشغولاً بما كدّر مزاجي طوال ذلك اليوم. وعلى غرار ما

حدث لي مع محاضر نادي الكتاب اليساري، لم أكن أصغي حقّاً لكلام بورثيوس رغم أنّني كنت أسمع صوته. وإذا كان صوت المحاضر وتّر أعصابي، فإن وقع صوت بورثيوس عليّ كان مختلفاً. فهو صوت هادئ تماماً و«أكسفوردي». وفي الأخير، وبينما كان مستغرقاً في الحديث، قاطعته قائلاً:

«قل يا بورثيوس، ما رأيك في هتلر؟».

تركه سؤالي مشدوهاً حتّى أنّه كاد يزيح الغليون من فمه. استند بمرفقه على حافة المدفأة بأناقة، ووضع قدمه على قطعة حطب، وقال:

«ماذا قلت؟ هتلر؟ ذلك الألماني؟ أنا لا أشغل نفسي بمثل هذا الرجل يا صديقي!».

«لكنّ الشيء المزعج هو أنّه سيضطرنا إلى أن ننشغل به ذات يوم».

جعل بورثيوس يذرع الغرفة وهو يرسل سحباً من الدخان، وقال:

«ليس ثمّة ما يدعو إلى إيلاء هذا الشخص أيّ اهتمام. فهو لا يعدو أن يكون مغامراً تافهاً. أمثال هؤلاء الناس يأتون عرَضاً ويختفون مثلما أتوا. ظواهر عارضة».

رغم أنّني لم أكن متأكّداً من المعنى الدقيق لكلمة «عرَضاً»، قلت مدافعاً عن رأيي:

«أعتقد أنّك تجانب الصواب. فهتلر شخص مختلف، شأنه شأن ستالين. هما غير الأشخاص السابقين الذين كانوا يصلبون الناس، ويقطعون رؤوسهم بغرض التسلية فقط. هما يفكران في شيء جديد. . . شيء لم يسبق أن رآه أحد».

«لا جديد تحت الشمس يا صديقي!».

هذا القول من المأثورات لدى بورثيوس طبعاً. هو يرفض رفضاً قاطعاً إمكانية حدوث أيّ جديد. ما إن تحدّثه عن واقعة راهنة حتى يجيبك بأنّ الأمر نفسه وقع في عهد الملك فلان. وحتّى لو تكلّمت عن الطائرات سيجيبك بأنّها كانت موجودة في جزيرة كريت أو في مكان آخر من اليونان القديمة. حاولت أن أخبره بما شعرت به خلال محاضرة الرجل الضئيل، والرؤى التي راودتني حول الزمن الرديء الآتي، لكنه لم يأبه بكلامي، واستمرّ يذرع الغرفة مردّداً أنّ لا جديد تحت الشمس. وفي الأخير تناول كتاباً من أحد الرفوف، ومضى يقرأ لي مقطعاً يتعلّق بطاغية إغريقي عاش قبل ميلاد المسيح بقرون، وهو يشبه هتلر كأنه توأمه.

واصلنا الحديث قليلاً. فقد كنت أشعر منذ الصباح برغبة ملحّة في الحديث في هذه المواضيع. من المضحك أنّني لست بليداً، كما أنّني لست مثقّفاً كذلك. في الأوقات العادية لا يتعدّى تفكيري أفق رجل من عامّة الناس في مثل سنّي، يكسب سبعة جنيهات في الأسبوع، ويعيل طفلَين. ومع ذلك أنا أملك ما يكفي من الحسّ السليم لكي أدرك أنّ الحياة القديمة التي تعوّدنا عليها يجري استئصالها من الجذور. أرى الحرب قادمة، وما يليها. أرى الطوابير أمام متاجر المواد الغذائية، والشرطة السرّية ومكبّرات الصوت تملي على الناس ما ينبغي أن يفكروا فيه. ولست الوحيد من يرى ذلك، بل هناك الملايين. أناس عاديون أخالطهم يومياً، ألتقي بهم في الحانات. منهم سائقو الحافلات والباعة المتجولون وغيرهم. كلّهم يلاحظون أنّ العالم سائر إلى الأسوأ، وأنّ علامات الانهيار بادية في كلّ شيء، وأنّهم يشعرون بأنّ الأرض تنخسف من تحت أقدامهم،

بينما هذا العالِم الموسوعي الذي قضى معظم حياته بين الكتب، وتشبّع بالتاريخ إلى حدّ أنّ كلّ مسامه تنضح به، لا يرى أنّ العالم آخذ في الغرق، ولا يعير هتلر أيّ أهميّة، ولا تلوح له الحرب في الأفق. فبما أنّه لم يشارك في الحرب السابقة، لا تحظى الحرب الموشكة لديه بأي اهتمام. فهي بالنسبة إليه لا تمثّل شيئاً أمام حصار طروادة، ولا يرى سبباً للانزعاج من الشعارات ومكبّرات الصوت ومن القمصان السود أو الخضر. وهو يكرّر دائماً أنّ هذه الأمور لا تستوقف سوى العقول الصغيرة. وإذا كان هتلر وستالين سيمضيان، فإن «الحقائق الخالدة» ستبقى. وهو يقصد بها كلّ ما سيظلّ على حاله مثلما كان في الماضي تماماً. هكذا سيستمرّ مثقّفو أكسفورد إلى الأزل يذرعون مكاتبهم المليئة بالكتب القديمة مردّدين أقوالهم المأثورة، يملؤون غلايينهم من علب تبغ مزيّنة بشارات النبالة. ومن ثمّة لا فائدة من التحدّث إليهم.

وشيئاً فشيئاً عاد بنا الحديث كالعادة إلى ما وقع قبل ميلاد المسيح، ثمّ إلى الشعر. وفي الأخير، سحب كتاباً من أحد الرفوف، وراح يقرأ من شعر كيتس «قصيدة إلى عندليب» (أو بالأحرى «قصيدة إلى قبّرة»، لقد نسيت).

رغم أنّني لم أكن أميل إلى الشعر، أحبّ -وهو أمر غريب- الإنصات إلى بورثيوس يقرأه جهراً. من المؤكّد أنّه يحسن الإلقاء. فهو متعوّد على المحاضرات. يقف مستنداً على شيء بنوع من اللامبالاة، وغليونه في فمه، يرسل بين الفنية والأخرى نفثات صغيرة من الدخان تخرج مع صوته الرزين الذي يصعد وينزل حسب إيقاع البيت، وحسب الانفعالات التي يثيرها في نفسه. أمّا أنا فلم أعرف قطّ ماهيّة الشعر، ولا ما يدلّ عليه. أظنّه يؤثّر على أعصاب بعض

الناس شأنه في ذلك شأن الموسيقى. وحين كان بورثيوس يقرأ لي بعض القصائد، لم أكن أصغي حقّاً، أقصد أنّني أمرّ على الكلمات مرور الكرام، وإن كانت أصواته تشعرني بالسكينة أحياناً. لكن الأمر لم يكن كذلك خلال تلك الأمسية. كان الأمر كما لو أنّ الغرفة معرّضة لتيار هواء بارد. كنت أقول في نفسي إنّ كلّ هذا لا يعدو أن يكون هراء. الشعر! ما معنى الشعر؟ ما هو إلّا صوت، ذبذبات هواء. ما الجدوى منه في مواجهة الرشاشات؟

ورحت أنظر إليه وهو مستند على الرفوف وأنا أقول في نفسي: ما أغرب خرّيجي مدارس النخبة هؤلاء! يظلّون تلاميذ طوال حياتهم، لا يكفّون عن ترديد ما حفظوه من متون وأشعار لاتينية وإغريقية. وعادت بي الذاكرة فجأة إلى أوّل مرّة زرت فيها بيت بورثيوس. قرأ عليّ القصيدة نفسها، بالطريقة نفسها، وتهدّج صوته لمّا بلغ المقطع الذي يتحدّث عن النوافذ السحرية أو شيء من هذا القبيل. وتبادرت إلى ذهني فكرة غريبة: هذا الرجل ميّت. هو مجرّد شبح، وكلّ من هم من فصيلته إلى زوال.

لم تشأ هذه الفكرة أن تفارقني: لا شكّ في أنّ معظم من نراهم يذرعون الشوارع من الأموات. يُعتقد أنّ الإنسان يموت حين يتوقّف قلبه عن الخفقان. لكن الأمر ليس كذلك، إذ أنّ أعضاء من جسدك تستمرّ في الحياة، مثل الشعر الذي يواصل النمو لسنوات. الإنسان لا يموت حقّاً إلّا إذا توقّف عقله، وفقد القدرة على استيعاب الأفكار الجديدة. وهذا هو حال الصديق بورثيوس. إنّه عالم موسوعي منقطع النظير، وذوّاقة فريد، لكنّه عاجز عن التغيُّر، لا يكفّ عن ترديد الأشياء نفسها ولوك الأفكار نفسها، يوماً بعد يوم، وسنة بعد أخرى. وهو لا يشكّل استثناء في هذا، إذ هناك كثير من

أمثاله ممّن ماتت عقولهم، وتعطّلت من الداخل. يسلكون دائماً الطريق الضيّق نفسه إلى أن يفقدوا قوّتهم ورونقهم، ويتحوّلوا إلى أشباح.

وقلت في نفسي لا بدّ أنّ دماغ بورثيوس قد تعطّل منذ الحرب الروسية اليابانية. ولعلّه من المريع أن يكون معظم الناس الطيبين، الذين لا يرغبون في تهشيم وجوه الآخرين، على هذه الحال. أناس طيبون لكن عقولهم متوقّفة، غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم ضدّ ما هو آتٍ، لأنّهم عاجزون عن إبصاره رغم كونه شاخصاً أمامهم. يقولون في أنفسهم إنّ إنجلترا لن تتغيّر أبداً، وأنّها تختزل العالم أجمع، ولا ينتبهون إلى أنّها صارت من بقايا الماضي. بقعة صغيرة تنتظر أن تصلها القنابل، ويجتاحها رجال من فصيلة جديدة موجودة هناك في أوروبا. رجال ذوو بأس ميكانيكي شديد، يفكّرون بالشعارات، ويتكلّمون بالرصاص. متأهّبون للانقضاض علينا. رجال يجهلون تماماً الفنون النبيلة، لن يلبثوا أن يلحقوا بنا. أمّا الرجال المستقيمون فأصابهم الشلل. رجال أموات مقابل وحوش حيّة.

ودّعت بورثيوس بعد نصف ساعة دون أن أنجح في إقناعه بخطورة هتلر. وبينما كنت أمشي عائداً إلى البيت عبر الشوارع الباردة، توقّف الترامواي، ورحت ألوك الأفكار نفسها. كان البيت مظلماً، وهيلدا نائمة. وضعت طقم أسناني في كأس ماء في الحمّام، وارتديت منامتي، ودفعت هيلدا إلى الجانب الآخر من السرير. لم تستيقظ، وأدارت لي ظهرها. ما أغرب هذه الأفكار السوداوية التي تراودك أحياناً في وقت متأخّر من الليل. كان مصير أوروبا في تلك اللحظة يبدو لي أهمّ من الإيجار وأقساط مدرسة الأطفال وعمل اليوم الموالي. حين يمضي المرء كلّ وقته يكدح

ليكسب قوته، ينبغي أن يكون مجنوناً ليشغل باله بمثل هذه الأفكار. لكنّني كنت عاجزاً عن طردها من ذهني. ظلّت تشغل بالي القمصان الملونة نفسها وطقطقة الرشاشات نفسها. وآخر شيء أذكره هو أنّني تساءلت قبل أن يغلبني النوم عن جدوى أن يفكّر رجل مثلي في أمور كهذه.

2

كانت أزهار الربيع قد تفتّقت، لذلك أظنّنا كنّا في شهر مارس. كنت قد عبرت ويسترهام بالسيارة، واتّجهت إلى بودلي حيث كان عليّ أن أقوّم محلّ تاجر حديد، ثمّ أتحدّث إلى زبون تلقّيت اسمه من وكيلنا المحلي، أوشك على توقيع عقد تأمين على الحياة، لكنّه تراجع في آخر لحظة بعد أن داخله الشكّ بخصوص قدرته على تسديد القسط. وأنا أنجح دائماً في تسوية مثل هذه الحالات، إذ تساعدني بدانتي على ذلك. فهي تروّق مزاج الزبائن، وتشعرهم بالمتعة وهم يوقّعون عقد التأمين. وبطبيعة الحال هناك طرق كثيرة للإقناع تبعاً لطبيعة الشخص الذي أتعامل معه. بالنسبة إلى بعضهم أركّز على التعويض، وبالنسبة إلى آخرين أزرع الخوف في نفوسهم بطريقة ذكيّة، بالإشارة إلى الوضع المؤسي الذي سيدعون فيه زوجاتهم إن هم لم يضمنوا لهنّ تأميناً.

كانت السيارة الصغيرة تلتهم الطريق وهي تتسلّق التلال الوعرة وتهبط. كم كان يوماً جميلاً! إنّه من أيام مارس الرائعة التي يتراجع فيها الشتاء فجأة. فبعد أيام من الجوّ الصحو القارس: سماء زرقاء متجمّدة وريح يكشط الوجه مثل موسى حلاقة مفلول، يهدأ الريح فجأة وتنشر الشمس أشعّتها. لا بدّ أنّكم عرفتم أيّاماً كهذه. أوراق

الأشجار هادئة لا تتحرّك، وقليل من الضباب في البعيد حيث تظهر شياه متناثرة على التلال مثل بقع ناصعة البياض. أمّا في الوديان، فتتعالى أعمدة الدخان، وتمتزج بالضباب. كنت بمفردي في الطريق، وكان الجوّ من الدفء بحيث تحدوك الرغبة في التخفّف من لباسك.

حين وصلت إلى مكان في جانب الطريق، لعلّ ترابه كلسي، يكسوه عشب مثقل بالأزهار، خفّفت من السرعة، وتوقّفت أبعد منه بحوالي عشرين متراً. قلت في نفسي إنّ هذا الطقس يستحقّ منّي وقفة أتنفّس فيها هواء الربيع، وربّما أقطف بعض الزهور إن لم يكن ثمّة أحد غيري. بل راودتني فكرة غامضة بأن أقطف باقة أهديها لهيلدا.

أزلت المفتاح من السيارة وترجّلت. لا أحبّ أن أترك المحرّك مشغّلاً حين أتوقّف، إذ أخاف دائماً من أن ينخلع منه رفرف أو رفرفين أو شيء من هذا القبيل، لأنّ طرازه قديم يعود إلى سنة 1927. يذكّرك حين ترفع عنه الغطاء بالإمبراطورية النمساوية المجرية. فأنت ترى خيوطاً تربط أجزاءه في كلّ مكان بحيث تتساءل كيف يستمرّ في الاشتغال. لن تصدّق أبداً أنّ آلة يمكن أن تتحرّك في كلّ الاتجاهات في الآن نفسه، مثل الأرض تتهادى خلال دورانها حول الشمس باثنتين وعشرين طريقة. وهو أمر لا أذكر أين قرأته. وإذا نظرت إلى هذه السيارة من الخلف وهي متوقّفة ومحركها مشغّل، بدت لك مثل راقصة من راقصات جزر هاواي.

كان ثمّة حاجز في جانب الطريق. اقتربت منه وتطلّعت من فوقه لأرى ما يوجد خلفه. لم يكن هناك أثر لبشر. دفعت قبّعتي إلى الخلف قليلاً لأحسّ بالهواء المنعش على جبيني. كان العشب في أسفل السياج مليئاً بالأزهار، وكان ثمّة أثر نار أشعلها أحدهم، قد يكون متشرّداً، ما زالت في رمادها جمرات مشتعلة يتصاعد منها

الدخان. وأبعد منها قليلاً بركة يكسوها عدس الماء تجاور حقلاً مزروعاً بالقمح الشتوي. وهو يمتدّ مرتفعاً في منحدر حادّ إلى أن يصل إلى أجمة مؤلّفة من أشجار زان بدأت تتفتّق أوراقها. كان كلّ شيء ساكناً، لا ريح تحرّك رماد النار، ولا صوت يكسّر الصمت المخيّم باستثناء تغريد قبّرة متواريّة في مكان ما.

بقيت هناك لحظة مستنداً على الحاجز. كنت وحيداً، ومضيت أنظر إلى الحقل، والحقل ينظر إليّ، فأحسست... لا أدري ما إذا كنتم ستفهمونني...

أحسست بشيء غير مألوف في أيّامنا، قد يجعلني الإفصاح عنه أبدو لكم غبيّاً. شعرت بنفسي سعيداً، مستعدّاً -مع أنّه شيء يبدو مستحيلاً- لأن أعيش إلى الأبد. قد يقول قائل إنّ مردّ ذلك إلى أنّ اليوم هو أوّل أيّام الربيع، ولا شيء عدا ذلك. أو إذا شئتم إنّه من أثر هذا الفصل على الغدد الجنسية، لكن الأمر كان أكثر من ذلك. لعلّ ما أقنعني، وهو أمر غريب، بأنّ الحياة تستحقّ أن تعاش، فضلاً عن الأزهار والبراعم على أشجار السياج، هي تلك النار في جانب الحاجز. أتعرفون ما معنى نار الخشب في يوم هادئ؟ الأعواد الدقيقة التي استحالت إلى رماد، وظلّت مع ذلك تحافظ على هيئتها، واللون الأحمر الزاهي تحت الرماد الذي يصرّ على البقاء. والغريب هو أنّ هذه الجمرات الحمراء تعطيك الشعور بالحياة أكثر من أيّ شيء آخر في العالم، بحيث تبدو أشدّ إصراراً على أن تظلّ حيّة. أهو بريقها؟ اهتزازها؟ لا تسعف الكلمات في وصف ذلك. لكن هذا الرماد يقول لك إنّك حيّ. هو بالتأكيد تفصيل صغير، إلّا أنّه يعينك على إدراك باقي مكونات الصورة.

أحنيت لكي ألتقط زهرة فلم أستطع بسبب ضخامة بطني.

قرفصت، وقطفت من الزهر مقدار باقة، وحمدت الله على أنّ المكان خالٍ لا يراني فيه أحد. كانت الأوراق متغضّنة مثل أذن أرنب. وقفت ووضعت باقتي على الحاجز، ثمّ نزعت طقم أسناني بدافع غريزي مبهم، ورحت أتفحّصه.

لو كنت أمام مرآة، لنظرت إلى صورتي من رأسي إلى قدميّ رغم معرفتي بمظهري سلفاً. رجل بدين في الخامسة والأربعين، يرتدي بدلة رمادية وقبّعة مستديرة. له زوجة وطفلان وبيت في الضاحية، وهي أمور بادية عليّ لا تخفى على من يراني. ولا داعي لتذكيري بالوجه الأحمر والعينين الزرقاوين الباهتتين. فأنا أعرف ذلك. لكن ما أثارني وأنا أنظر للمرّة الأخيرة إلى الطقم قبل أن أعيده إلى مكانه هو أنّه عديم الأهمية. حتّى الأسنان الزائفة لا أهمية لها. أعرف تماماً أنّني بدين وسمسار تأمينات، وأنّه لا توجد امرأة تقبل معاشرتي من دون أجر. كلّ هذا أعرفه. لكن صدّقوني، كلّ ذلك لا يعنيني البتّة. فأنا لا أرغب في النساء، ولا حتّى في العودة إلى شبابي: كلّ ما يهمّني هو أن أبقى حيّاً. وكنت حيّاً في تلك اللحظة، أنظر إلى الأزهار والجمرات المتوهّجة تحت السياج. إنّه شعور عميق بالسكينة، وهو إلى ذلك أشبه بشعلة.

وأبعد من السياج قليلاً، تظهر البركة المكسوّة بعدس الماء وكأنّها سجاد بحيث قد يمشي فوقها من لا يعرف أنّ الأمر يتعلّق بعدس الماء، معتقداً أنّه يسير فوق أرض صلبة. وتساءلت عن سبب غباوة البشر الذين يقضون وقتهم في التفاهات عوض قضائه في التنزّه وتأمّل ما يحيط بهم كهذه البركة وما تحويه من مخلوقات، من سمندل وخنافس وعلق وغيرها من الكائنات المجهرية التي لا يعلم عددها إلّا الله، وكذا في تدبّر لغز الحياة تحت الماء، وهي ألغاز لو

قضى الإنسان حياته بكاملها -بل عشر حيوات مثلها- في تأمّلها، لمّا أحاط بها. وما أعظم ما سيشعر به من دهشة طوال تلك المدّة، وما أغرب الشعلة التي ستتّقد بداخله! هذا هو أهمّ ما في الحياة، ومع ذلك نُعرض عنه.

أمّا أنا فلست مثلهم، على الأقلّ هذا هو ما كنت أعتقده في تلك اللحظة. أرجو ألّا تسيئوا فهمي. فأنا بخلاف معظم السكّان المحليين لست من المتعصّبين لـ«الريف»، ولست من الداعين إلى أن يخلي الناس المدن وضواحيها. هم أحرار في أن يسكنوا حيثما شاءوا. كما أنّني لا أهيب بهم إلى أن يتجوّلوا في الحقول ويقطفوا الأزهار وما إلى ذلك. أنا واعٍ تمام الوعي بأنّ الإنسان ينبغي أن يعمل، وأنّه لا يمكن أن ينعم بقطف الأزهار من وقت إلى آخر إلّا لأنّ هناك رجال يخنقهم الغبار في جوف الأرض، ونساء يقضين نهارهنّ في الضرب على الآلات الكاتبة. إن لم يكن الإنسان شبعان دفآن، كيف له أن يستمتع بالأزهار؟

على أنّ هذا ليس هو الأهمّ. الأهمّ هو هذا الشعور الذي ينتابني أحياناً -ليس دائماً-، شعور طيّب أنا واثق من أنّ معظم الناس يعرفونه: أوقفوا إطلاق الرصاص! كفّوا عن مطاردة هذا أو ذاك! اهدؤوا، وتنفّسوا بعمق حتّى تمتلأ رئاتكم سلاماً. لكنّنا لا نفعل ذلك، بل نصرّ على الاستمرار في غباواتنا.

وها هي الحرب تلوح في الأفق، سنة 1941 حسبما يقولون. لم يفضل على نشوبها سوى ثلاث دورات حول الشمس، ثمّ تشرع القنابل تتهاطل عليك من السماء، والرصاص يتدفّق من فوهات الرشاشات. قلقي لا يعود لأسباب شخصية. فأنا لم أعد في سنّ التجنيد. سنعيش على إيقاع الغارات الجوية بالطبع، وهي لن تصيب

الجميع. وحتّى إن كان الناس واعين بهذا الخطر، فهم لا يفكّرون فيه حقّاً إلّا حين يقع. وكما قلت مراراً، فأنا لست خائفاً من الحرب، بل ما أخشاه هو ما بعد الحرب. حتّى ما بعد الحرب لن يؤذيني شخصياً، إذ من سيهتمّ بأمر شخص مثلي؟ فأنا أبدن من أن يشتبهوا في انتمائي السياسي. ولن يرغب أحد في تصفيتي أو تعذيبي. أنا نموذج المواطن العادي الطيّع الذي يمتثل لأوامر الشرطة. أمّا هيلدا والأطفال، فهم لا يشعرون بشيء على الأرجح. ومع ذلك فإنّ الحرب تفزعني مثلما يفزعني ما يرتبط بها من أسلاك شائكة وشعارات ورؤوس ضخمة على الملصقات ولافتات وغرف ذات جدران ملبّسة بالفلين وجلّاد يطلق رصاصة على قفاك. لا أخفيكم أنّ هذا التوجّس ينتاب أيضاً أناساً أقل ذكاء منّي. لماذا؟ لأنّ نشوب الحرب معناه توديع ما قلت لكم عن ذلك الشعور بالسكينة الذي تحسّون به في أعماقكم. لكنّني حين أقول السلام، لا أقصد نقيض الحرب، بل شعوراً تحسّون به في أعمق أعماق كيانكم. وهو ما لن ننعم به أبداً إذا تقلّد المحرّضون على الحرب زمام الأمور.

رفعت باقة الزهور إلى أنفي وأنا أفكّر في بينفيلد العليا. واستغربت كيف أنّ الذاكرة بدأت منذ شهرين تعود بي إلى بينفيلد بعد أن نسيتها لعشرين سنة تقريباً. وفي تلك اللحظة سمعت صوت سيّارة قادمة بسرعة فائقة على الطريق، فأعادني ضجيجها إلى الواقع على الفور. تنبّهت فجأة إلى أنّني نسيت ما أتيت من أجله. وعوض أن أجري تقويماً لمحلّ تاجر خردوات الحديد في بودلي، ها أنذا مستغرق في الاستمتاع بعطر الزهور. وتخيّلت صورتي كما يراها ركّاب السيارة: شخص يضع على رأسه قبّعة مدوّرة ويحمل باقة زهر

في يده! منظر غريب حقاً. فالبُدُن لا يقطفون الأزهار، على الأقل أمام الملأ. لذلك سارعت إلى رمي الباقة من أعلى الحاجز قبل وصول السيارة التي كانت تقلّ شباباً في حوالي العشرين من أعمارهم. كم كانوا سيهزؤون بي لو رأوني! مضوا جميعاً يحدجونني بتلك النظرة التي يتطلّع إليك بها ركّاب السيارات بينما يقتربون منك. وقلت في نفسي لا بدّ أنّهم خمّنوا ما كنت أقوم به، ولا داعي لإيهامهم بأنّني أفعل شيئاً آخر. ما الذي يدعو رجلاً بديناً إلى الترجّل من سيارته في طريق ريفي صغير؟ السبب واضح! وبينما كانت السيارة تمرّ من أمامي، تظاهرت بتزرير فتحة سروالي.

أدرت محرّك السيارة بالذراع الميكانيكي (لأنّ مشغّل المحرّك معطّل)، وجلست أمام المقود. الغريب هو أنني بينما كنت أزرّر فتحة سروالي وأفكّر في ضحكات أولئك المغفّلين وهم يرونني أحمل باقة الزهر، خطرت ببالي فكرة رائعة.

سأعود إلى بينفيلد!

وبينما انطلقت بالسيارة، تساءلت في قرارة نفسي: لم لا؟ ما المانع من ذلك؟ تبّاً! لِمَ لمْ أفكّر في هذا من قبل؟ إجازة هادئة في بينفيلد، هذا ما يلزمني بالضبط.

لا تظنّوا أنّني كنت أنوي العودة للعيش هناك، وأخطّط للتخلّي عن هيلدا والأطفال لأبدأ حياة جديدة باسم آخر. هذا أمر لا وجود له إلّا في الروايات. لكن، ما المانع من قضاء أسبوع هادئ هناك بمفردي؟

وسرعان ما توضّحت لي الخطة بأدقّ تفاصيلها. المال الذي قد يمنعني من السفر متوفّر، إذ ما زلت أملك اثني عشر جنيهاً، وهو مبلغ كافٍ لكي يعيش شخص أسبوعاً مريحاً. أمّا عن الإجازة، فأنا

أستفيد من أسبوعَين في السنة في شهر أغسطس أو سبتمبر. لكن إن أنا نمّقت كذبة محكمة، من قبيل أنّ قريباً يعاني من مرض عضال يحتضر، سأتمكّن لا محالة من إقناعهم بتوزيع إجازتي إلى أسبوعَين منفصلَين، وبذلك أستطيع السفر بمفردي خلال شهر مايو، حين يزهر الزعرور، دون أن تعلم هيلدا شيئاً. ما أروع أن يقضي المرء أسبوعاً كاملاً في بينفيلد بعيداً عن هيلدا والأطفال والسمندل الطائر وحيّ إليسمير وجلبة المرور والأقساط. أسبوع أنعم فيه بالهدوء والسكينة!

قد تسألون: لماذا ساورتني هذه الرغبة في العودة إلى بينفيلد؟ ولماذا بينفيلد تحديداً؟ وماذا سأفعل خلال إقامتي هناك؟

الواقع أنّني لن أفعل شيئاً، بل هذه هي الغاية من السفر. ما أتوخّاه هو الهدوء والسكينة. السكينة التي نعمنا بها في بينفيلد في الماضي، وقد حدّثتكم عن الحياة التي عشناها هناك قبل الحرب. وأنا لا أزعم أنّها كانت حياة مثالية، بل يمكن أن أجزم بأنّها كانت حياة حزينة وكئيبة وخاملة. خاملة مثل حياة الخضار، مثل اللفت إن شئتم، وإن كان اللفت لا يعيش في رعب دائم من ربّ العمل، ولا يؤرقه في عزّ الليل التفكير في الأزمة القادمة والحرب الوشيكة. كانت السكينة بداخلنا. كنت أعلم أنّ الحياة في بينفيلد نفسها ستكون تغيّرت، لكن المكان سيظلّ كما هو: أشجار الزان المحيطة بالقصر، الطريق الريفي الذي يقود إلى سدّ بورفورد، ومشرب الدواب في ساحة السوق. كنت أتوق إلى العودة إلى هناك لأسبوع لا لشيء إلّا لكي أتشبّع بتلك الأشياء مثلما يفعل زهّاد الشرق الذين يعتزلون الناس في الصحراء. وبالنظر إلى المنحى الذي ستأخذه الأمور، سيميل كثير من الناس، في نظري، إلى الخلوة في الصحراء خلال السنوات القادمة. سيكون الأمر أشبه بما حدث في روما القديمة التي

يحدّثني عنها بورثيوس، حيث كان النسّاك من الكثرة بحيث يلزم وضع لائحة انتظار عند مدخل كلّ كهف.

على أن ما يدفعني أنا إلى العودة ليس الاعتداد بالنفس وعدم الاكتراث بالآخرين، بل استعادة قليل من رباطة جأشي قبل حلول الأوقات العصيبة، تلك الأوقات التي لا يحسّ بوشوكها من تبلّد شعوره. وإذا لم يكن أحد يعرف كيف ستكون على وجه الدقّة، فالجميع واثق من قدومها لا محالة. من يدري؟ قد تكون حرباً، وقد تكون أزمة، لكن الأكيد هو أنّها لن تُبقي ولن تذر. أينما ذهب المرء، سيجد نفسه متّجهاً نحو الهاوية، إلى القبر أو إلى بالوعة قذرة. وهو أمر لا يستطيع الإنسان أن يواجهه إن لم يكن منسجماً مع ذاته. وهذا هو ما فقدناه خلال العشرين سنة الأخيرة التي تلت الحرب، مثلما تفقد النبتة نسغها. لماذا كلّ هذا التدافع من أجل حفنة قروش؟ وما الحاجة إلى ضجيج الحافلات الذي لا ينتهي، والقنابل وجلبة المذياع ورنين الهاتف؟

ضغطت على دواسة السرعة. مجرّد التفكير في بينفيلد بثّ الارتياح في نفسي. لعلّكم تمثّلتم الشعور الذي انتابني، كما لو أنّني استنشقت شيئاً من الهواء المنعش! مثل السلاحف البحرية التي تحرّك أطرافها عند سطح الماء، ثمّ تُخرج أنوفها وتستنشق الهواء ملء رئتيها ثمّ تغوص من جديد عائدة إلى الأعماق بين الطحالب والأخطبوطات. فنحن جميعاً نشعر بالاختناق كما لو أنّنا مدفونون في قعر حاوية قمامة، إلّا أنّني اهتديت إلى الوسيلة التي تساعدني على الصعود إلى السطح: العودة إلى بينفيلد! واصلت الضغط على دواسة السرعة إلى أن بلغت السيارة القديمة سرعتها القصوى، حوالي ستين كيلومتراً في الساعة، فتعالى -من اهترائها- الصليل كما

لو أنّها محمّلة بالأواني حتّى أنّني -وقد حجب الضجيج صوتي- هممت بالغناء.

على أنّ العقبة الكأداء التي تعترض خطّتي هي هيلدا. عليّ أن أُنعم التفكير لكي أتغلّب عليها. لذلك خفّضت السرعة إلى ثلاثين كيلومتراً حتّى أركّز كل ذهني على هذه المشكلة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ هيلدا ستكتشف الحقيقة عاجلاً أم آجلاً. لن أجد صعوبة في إقناعها بأنّني لن أستفيد إلّا من أسبوع واحد في أغسطس. أستطيع أن أزعم لها بأنّ الشركة لم تمنحني غير أسبوع هذه السنة. لن تمعن في السؤال، بل قد تبتهج لذلك لأنّه سيوفر عليها بعض مصاريف الإجازة. أمّا الأطفال، فإنّهم اعتادوا على قضاء شهر في الشاطئ. وتبقى الصعوبة هي تبرير غياب أسبوع شهر مايو. لا أستطيع المغادرة هكذا من دون تقديم مسوّغ مقبول. سيكون من الأولى أن أخبرها مبكّراً بأنّني مدعو إلى القيام بمهمة في نوتنغهام أو ديربي أو بريستول أو أيّ مدينة بعيدة. إن أنا أخبرتها قبل شهرين من الموعد لربّما بدا الأمر مقبولاً.

لكن لا تستهينوا بهيلدا! ستنتهي طبعاً إلى اكتشاف الحقيقة. ستتظاهر في البداية بتصديق كلامي، ثمّ بطريقتها الماكرة العنيدة، ستكتشف أنّني لم أزر أيّاً من تلك المدن. تدهشني براعتها في القيام بذلك، وكذلك مثابرتها. تحافظ على هدوئها وتتريّث إلى أن تظهر لها الهفوات في كلامك، ثمّ فجأة، حين تفضحك بعض الملاحظات التافهة في الظاهر، تهجم عليك، وتعيد بناء الملف من البداية: «أين قضيت ليلة السبت؟ كاذب! قضيته مع امرأة! انظر إلى الشعر الذي عثرت عليه بينما كنت أنفض الغبار عن سترتك! انظر! هل هذا لون شعري؟»، وتنطلق الفرجة. الله وحده يعلم كم تكرَّر هذا المشهد من

مرّة! وهي إن كانت تصيب تارة وتخطئ أخرى، فالنتائج هي دائماً نفسها. أسابيع متواصلة من الاتهامات والزعيق. لا تترك وجبة دون أن تُحدث دَوشة، والأطفال لا يفقهون شيئاً ممّا يقع. ويبقى الحلّ الأخير هو أن أصارحها بالمكان الذي قضيت فيه الأسبوع، والسبب الذي دفعني إلى ذلك. ولو أنّني أظلّ أفسّر لها وأبرّر إلى أن تقوم الساعة، لن تصدّقني.

لكن كلّ هذا لا يهمّ، فلماذا سأشغل به بالي؟ ما زال لديّ متسع من الوقت. أنتم تعرفون كيف أنّ النظرة إلى هذه الأشياء تختلف قبل وقوعها وبعده. ضغطت على دواسة السرعة، فتبادرت إلى ذهني فكرة أفضل من الأولى. لن أذهب إلى بينفيلد في شهر مايو، سأذهب في النصف الثاني من شهر يونيو، خلال موسم الصيد، وسأذهب لأصطاد. وتملّكتني هذه الفكرة حتّى كدت أحيد عن الطريق.

سأذهب لاصطياد أسماك بركة «القصر» الضخمة!

وأسأل نفسي مرّة أخرى: لماذا لا أذهب؟ ألا تستغربون من أنّنا نقضي حياتنا نقول لأنفسنا إنّ الأشياء التي نحبّها هي تحديداً تلك التي لا نستطيع فعلها؟ ما المانع من الإمساك بهذه الأسماك؟ ومع ذلك، ما إن تنشأ هذه الفكرة في ذهنك، حتّى تبدو لك هلامية، يتعذّر تحقيقها. هذا هو الانطباع الذي شعرت به في تلك اللحظة. انطباع أشبه بذاك الذي ينتابك خلال حلم محموم ترى فيه نفسك تعاشر نجمة هوليوودية، أو تفوز بلقب بطل عالمي في الوزن الثقيل، مع أنّ السفر إلى بينفيلد واصطياد الشبوط لم يكن شيئاً مستحيلاً ولا متعذّر التحقيق. وحتّى لو تغيّر مالك «القصر»، سيكون بالإمكان استئجار البركة ليوم واحد. لن أستكثر دفع خمس جنيهات من أجل

يوم صيد هناك، هذا مع أنّ الراجح هو أن «القصر» ما زال فارغاً، وأنّ لا أحد يعرف بوجود الأسماك في البركة.

كم أنا مشتاق إلى ذلك المكان المعتّم بين الأشجار الذي ينتظرني منذ سنين! وإلى الأسماك الضخمة السوداء التي تنزلق على صفحة الماء! يا إلهي، إن كان حجمها بتلك الضخامة منذ ثلاثين سنة، فكيف سيكون الآن يا ترى؟!

3

إنّه يوم الجمعة، السابع عشر من شهر يونيو، والثاني من افتتاح موسم الصيد.

لم أواجه صعوبة كبيرة في ترتيب الأمور مع الشركة. أمّا بالنسبة إلى هيلدا، فحبكت حكاية محكمة من المتعذّر كشفها. زعمت لها أنّني ذاهب إلى برمنغهام، بل كشفت لها، في آخر لحظة، عن اسم الفندق الذي سأنزل فيه: روبوتوم، وهو فندق يستقبل الأُسر والمسافرين العاملين في التجارة، أعرفه لأنّني نزلت فيه قبل سنوات. لكنّني لم أكن أريدها أن تراسلني في برمنغهام، وهو أمر ستقدم عليه لا محالة إن مكثتُ أسبوعاً كاملاً. هكذا، وبعد تفكير مليّ، أسررت لسوندرز بسفري، دون أن أخبره بكلّ التفاصيل. ذلك أنّ سوندرز سيسافر إلى غليسو من أجل شركة تبيع موادّ تلميع الأرضيات، وأخبرني أنّه سيمرّ على برمنغهام يوم 18 يونيو، فحصلت منه على وعد بأن يتوقّف هناك لكي يبعث إلى هيلدا رسالة منّي بالبريد، تحمل عنوان الفندق، أُخبرها فيها أنّني قد أُدعى إلى السفر إلى مدن أخرى، ومن ثمّة لا داعي لمراسلتي. فهمَ سوندرز أو ظنّ أنّه فهمَ، وغمزني وهو يقول إنّ ذلك رائع، لا سيما بالنسبة إلى رجل في سنّي. وهكذا سوّيت الأمر مع هيلدا، واطمأننت إلى أنها لن تمعن

في السؤال. وحتّى لو راودها الشكّ فيما بعد، لن يكون من السهل عليها اكتشاف كذبة محكمة كهذه.

كان صباحاً رائعاً من صباحات يونيو حين عبرت ويسترهام. نسيم عليل، وقمم أشجار الدردار تهتزّ تحت أشعّة الشمس. وفي السماء غيوم صغيرة متناثرة -أشبه بقطيع أغنام- يتحرّك ظلّها عبر الحقول. وبينما كنت أغادر ويسترهام، إذا بصبيّ سخرة لدى شركة مثلجات، فتى ذو وجنتين مستديرتين كتفاحتين، يمرّ بسرعة فائقة وهو يطلق صفيراً يصمّ الآذان. وتذكّرت فجأة أنّني أنا أيضاً كنت صبيّ سخرة (وإن لم يكن صبيان السخرة آنذاك يتنقّلون على دراجات نارية)، وكدت أستوقفه لأشتري منه مثلّجات. كان المزارعون قد حصدوا حقول البرسيم، وتركوه يجفّ في صفوف طويلة لامعة، فاختلطت رائحته في الجوّ بأبخرة البنزين.

كنت أسوق على مهل في ذلك الصباح الهادئ الحالم بحيث لا أتجاوز ثلاثين كيلومتراً في الساعة. كان البطّ ينزلق فوق الماء برشاقة كما لو أنّه من فرحه لم يعد يأبه بالبحث عن الطعام. وحين بلغت نيتلفيلد، وهي بلدة صغيرة بعد ويسترهام، رأيت رجلاً ضئيلاً بوزرة بيضاء وشعر أشيب وشنب رمادي طويل، ينطلق مسرعاً من وسط الحقول، وينتصب وسط الطريق، ويشرع في الإيماء بيديه لكي يثير انتباهي. كانت سيارتي معروفة لدى كلّ من يسكنون قرب الطريق طبعاً. ضغطت على الفرامل فوراً، وتوقّفت في الجانب. لم يكن غير السيد ويفر الذي يدير متجر القرية. لا يريد إبرام عَقد تأمين على الحياة، ولا تأمين متجره. كلّ ما في الأمر هو أنّه يبحث عن فكّة. هل يمكن أن أستبدل له ورقة جنيه بـ«قطع معدنية»؟ فهُم لا يملكون الفكّة أبداً في نيتلفيلد، بما في ذلك الحانة.

واصلت طريقي. كان طول الزرع يبلغ الخصر، يبدو متماوجاً على التلال بمجرّد ما يلامسه النسيم، كبساط أخضر كثيف ناعم، كامرأة تشتهي الارتماء في أحضانها. وحين وصلت إلى مفترق الطرق، أبصرت الإشارة: بودلي يميناً وأكسفورد شمالاً.

كنت لا أزال في منطقتي المألوفة، «مقاطعتي» كما يقولون في الشركة. كان حريّاً بي، في هذه الرحلة أن أتّجه نحو الغرب مبتعداً من لندن عبر طريق يوكسبريدج، لكنّني سلكت، بدافع غريزي، طريقي المعتاد. كنت أريد أن أبتعد قدر الإمكان قبل أن أقصد أكسفوردشير. ربّما كان ذلك بسبب شعوري بالذنب من هذه المغامرة. فرغم نجاحي في إيهام هيلدا، وترتيب الأمر مع الشركة، وتوفّري على اثني عشر جنيهاً، وحقيبتي في صندوق السيارة، راودتني عند الاقتراب من مفترق الطرق فكرة مغرية. وهي تظل فكرة مغرية على كلّ حال رغم أنّني لم أستسلم لها: أن أُعرِض عن كلّ ذلك. كان ينتابني شعور غامض بأنّني طالما أنا سائر في طريقي المعهود لا أحيد عنه، فالحقّ في جانبي، وأنّ الأوان لم يفت على التراجع عن الخطة. كان ما زال بإمكاني أن أتصرّف كرجل مسؤول. بوسعي أن أذهب إلى بودلي، وأزور مدير مصرف باركلي ليطلعني على الجديد، أو أعود أدراجي إلى البيت، وأعترف لهيلدا بكلّ ما كنت أنوي فعله.

خفّفت من سرعة السيارة عند اقترابي من مفترق الطرق. أذهب أم لا أذهب؟ وألحّت عليّ للحظة خاطفة الرغبةُ في العودة، والتخلّي عمّا خطّطت له. ثمّ قلت في نفسي: كلا! ضغطت على بوق السيارة، وانعطفت يساراً باتّجاه أكسفورد.

لقد فعلتها. دخلت إلى المنطقة الممنوعة. صحيح أنّه ما زال أمامي أقلّ من عشرة كيلومترات لكي أعرّج شمالاً، وأذهب إلى

ويسترهام. لكنّني في تلك اللحظة كنت متّجهاً إلى الغرب. لا أخفي عليكم أنّني شعرت كما لو أنّني هارب. والأمر الغريب هو أنّني ما كدت أنطلق في طريق أكسفورد حتّى رسخ في ظنّي أنّهم يعرفون كلّ نواياي. أقصد كلّ من لا يستحسنون مثل هذه الرحلة، ومن كانوا سيمنعونني لو استطاعوا، أيّ كلّ معارفي فيما خُيّل إليّ.

الأدهى من ذلك أنّني أحسست كما لو أنّهم يتعقّبونني. كلّهم! كلّ من لا يستطيعون أن يفهموا رجلاً في أواسط العمر، يضع طقم أسنان، يتسلّل خلسة من أجل قضاء أسبوع في مرتع طفولته. وحتّى لو فهم أولئك الأوغاد، سيقيمون الأرض ولا يقعدونها من أجل منعي من ذلك. تراءوا لي جيشاً عرمرماً يتعقّبني. أبصرتهم بعيني الداخلية. تتقدّمهم هيلدا طبعاً، والأطفال في إثرها. فيهم أيضاً السيدة ويلر بوجهها المتجهّم المتوعّد بالانتقام، والآنسة مينس في المؤخّرة، بنظارتها المتدليّة على أنفها، تبدو على وجهها علامات الإحباط مثل دجاجة وصلت متأخّرة بعد استيلاء الدجاجات الأخرى على قشرة لحم خنزير مملّح. فيهم كذلك السير هربرت كروم وكبار مسؤولي السمندل الطائر بسياراتهم الفارهة، وكلّ موظفي المكاتب وكلّ أوباش حيّ إليسمير والأحياء المشابهة. منهم من يدفع أمامه عربات رضّع ومجزّات عشب، ومنهم من يسوق سيارات أوستين سيفن. كلّ المولعين بإنقاذ من هم في خطر، والفضوليين، وكذا من لا معرفة بينك وبينهم، ومع ذلك يهتمّون بمصيرك، كوزير الداخلية وسكوتلاند يارد وعصبة محاربة الكحول واللورد بيفيربروك وهتلر وستالين وموسوليني والبابا. كلّهم يطاردونني. خِلت نفسي أكاد أسمع صياحهم: «ثمّة شخص يعتقد أنّه سيفلت! ثمّة رجل يرفض أن ينضبط وينتظم مع الآخرين! يريد العودة إلى بينفيلد، الحقوا به!».

شيء غريب. كان هذا الشعور من الحدّة بحيث جعلني ألتفت إلى الوراء لأنظر من خلال نافذة السيارة الخلفية لكي أتأكد من أنّ لا أحد يتعقّبني. لعلّه صوت ضمير من أذنب. لم يكن يوجد خلفي سوى طريق أبيض مُترب، وصفّ من شجر الدردار الطويل الممتدّ بعيداً.

ضغطت على دوّاسة السرعة، وما هي إلّا لحظات حتّى تجاوزت منعطف ويسترهام، وبذلك أحرقت مراكبي، وحقّقت الفكرة التي بدأتْ تتشكّل على نحو غامض في ذهني يوم حصلت على طقم أسناني الجديد.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الرابع

1

قدمت إلى بينفيلد عبر شامفورد. ذلك أنّ ثمّة أربع طرق تؤدّي إلى بينفيلد، أقربها هي طريق والتون، لكنّني آثرت المرور على طريق شامفورد. فهي الطريق التي كنّا نسلكها على الدراجات الهوائية عند عودتنا من جولات الصيد في نهر التمز. ما إن تتجاوز قمّة التلّ المشرف على الشاطئ، حتى تتباعد الأشجار لتتراءى لك بينفيلد في قعر الوادي.

إنّها لتجربة فريدة أن تكتشف من جديد مسقط رأسك بعد غياب دام عشرين سنة. تتذكّر أبسط التفاصيل، لكن على نحو ملتبس، إذ يتغيّر سلَّم المسافات، والمعالم تبدو كما لو أنّها تبدّلت. تقول في نفسك هذا المنحدر كان أشدّ وعورة، والطريق في هذا المكان كانت تنعطف شمالاً لا يميناً. بالمقابل تجد أنّ بعض ما رسخ في ذاكرتك على قدر كبير من الدقة، لكنّه مرتبط بحادثة محدّدة. تتذكّر مثلاً ركناً من أحد الحقول يرتبط بيوم شتوي ماطر، اخضرّ عشبه اخضراراً ضارباً إلى الزرقة، بقرة تحدّق فيك وقد رُبِطت إلى وتد متسوّس تكسوه الأشنات. وها أنت تعود بعد عشرين سنة، فتتفاجأ بأنّ البقرة لم تعد موجودة في المكان نفسه، تنظر إليك النظرة نفسها.

وبينما كنت أصعد الطريق المحاذية لشاطئ شامفورد، تنبّهت إلى أنّ الصورة الموجودة في ذهني صورة خياليّة تماماً. ذلك أنّ أشياء كثيرة تغيّرت. فالطريق التي كانت تكسوها الحصباء (وأذكر كيف كنا نشعر بنتوءاتها حين نقطعها على الدراجات)، صارت الآن ملساء بعد أن كُسيت بطبقة من الإسفلت، وتبدو أوسع. ثمّ إنّ عدد الأشجار تناقص على نحو ملحوظ. في الماضي كانت تنتصب أشجار تنّوب ضخمة خلف السياجات، حتّى أنّ قممها تتلاقى أحياناً، فتغطي الطريق. لقد اختفى التنّوب تماماً. وحين اقتربت من قمّة المرتفع، وجدت نفسي أمام شيء جديد كلّ الجدّة. على يمين الطريق مجموعة منازل من طراز قديم، ذات أسقف مائلة وعرائش وردية وأمور أخرى لا يعلمها إلّا الله. هذه المنازل التي تملكها الطبقة الراقية، والتي تنتشر في الطبيعة كيفما اتّفق، تشكّل أحياء تطوّقها الأسوار، تملك شبكة طرق خاصة بها، وعلى مدخل أحد الطرق أُشهِرَت لوحة كتب عليها:

تربية الكلاب،
بيع جراء الترير الأصيلة،
مأوى الكلاب.

أنا واثق من أنّ هذا لم يكن موجوداً.

وأجهدت ذاكرتي لكي أتذكّر. أجل تذكّرت! مكان هذه المنازل كانت في الماضي أشجار سنديان رفيعة، كثيفة ومتشابكة، تكتسي الأرض تحتها خلال الربيع بشقائق النعمان. والأكيد هو أنّه لم تكن توجد دور بعيدة كلّ هذا البُعد عن القرية.

كنت على وشك الوصول إلى قمّة التلّ. ما هي إلّا دقيقة

وأشرف على بينفيلد! لماذا أزعم بأنّني غير متأثّر؟ غمرني شعور عجيب بثّ الاضطراب في كلّ كياني. لم يتبقَّ غير خمس ثوانٍ لكي أراها! أجل، ها قد وصلنا! دست على الفرامل و. . . يا إلهي!

أعلم أنّكم تعرفون ما كان ينتظرني. ولعلّكم ستنعتونني بالغباء لأنّني لم أتوقّعه، وقد كنت غبيّاً حقّاً. لكن ذلك لم يخطر لي على بال إطلاقاً.

كان أوّل سؤال واجهني: أين هي بينفيلد؟ لم تُهدم بالتأكيد، لكنّها ابتُلِعت بكل بساطة. ما أبصرتْهُ عيناي مدينة صناعية متوسّطة الحجم. يا للدهشة، كيف لي أن أتذكّر؟ وهذه المرّة لا أعتقد أنّ ذاكرتي خدعتني. أهكذا كانت تبدو بينفيلد من أعلى شاطئ شامفورد؟ أظنّ أنّ طول الشارع الرئيس كان حوالي خمسمئة متر، وأنّ القرية، باستثناء بعض الدور المنزوية، كانت عبارة عن صليب. وكانت أبرز معالمها ناقوس الكنيسة ومدخنة مصنع الجعة، وهما معاً لم أتمكّن من تحديدهما من الوهلة الأولى. كلّ ما كنت أراه هو مدّ من المنازل الجديدة ينتشر في جانبَي الوادي ويصل إلى نصف علو التلّ. على اليمين ترى هكتارات من الدور المتشابهة، ذات سقوف حمراء ساطعة. لا شكّ أنها تجزئة منازل رخيصة.

لكن أين هي بينفيلد؟ أين هي القرية التي عرفتها؟ لا أدري. كلّ ما أعرفه هو أنّها قد تكون مطمورة في مكان ما داخل هذا البحر من القرميد. فمن بين المداخن الخمس أو الست التي أبصرت، لا أستطيع تمييز مدخنة مصنع الجعة بينها. ففي طرف المدينة ينتصب معملان ضخمان للزجاج والأسمنت، وقلت في نفسي لعلّ هذا هو ما يفسّر توسُّع البلدة. فالمكان الذي كان يأوي سابقاً ألفي نسمة تقريباً، هو يأوي الآن خمسة وعشرين ألفاً على الأقلّ. والشيء

الوحيد الذي لم يتغيّر فيما يبدو، هو «قصر» بينفيلد العليا: يبدو من بعيد مجرّد نقطة على جانب التلّ المقابل، يحيط بها شجر التنّوب. لم تصله البنايات الجديدة بعد. وبينما كنت أنظر إلى الأفق، أبصرت سرب طائرات مقاتلة تصل فوق التل، وتحلّق بسرعة فوق المدينة.

شغّلت محرّك السيارة، وشرعت أنزل ببطء منحدر التلّ الذي التهمَت المنازل نصفه. بيوت رخيصة متراصّة بشكل متدرّج كأدراج سلَّم. على أنّني توقّفت مرّة أخرى قبل أن أبلغها. أثار انتباهي على شمال الطريق شيء آخر جديد لا عهد لي به: مقبرة. توقّفت أمام بابها وألقيت نظرة عليها.

كانت بالغة الشساعة، أظنّ أنّ مساحتها تقارب عشرة هكتارات. وشأن كلّ المقابر الجديدة، تبعث البهرجة البادية عليها الضيق في النفس: مماشٍ مكسوّة بحصى ناصع البياض، وعشب قصير وتماثيل ملائكة مصنوعة على طراز واحد، تبدو كما لو أنّها نُزِعت من كعكة زفاف. ووجدتني أقول لنفسي هذا المكان لم تكن فيه مقبرة في الماضي. لم تكن ثمّة مقبرة خارج القرية. المقبرة الوحيدة في بينفيلد كانت موجودة بجانب الكنيسة. وتذكّرت على نحو غامض الفلاح الذي كان يملك هذه الأرض. شخص يدعى بلاكيت، مربّي ماشية، كان يبيع الحليب ومشتقاته. وفجأة جعلتني هذه المقبرة الجديدة أدرك مقدار التغيير الذي لحق المنطقة. لم يكن الأمر الذي راعني هو توسّع المدينة بحيث احتاجت إلى عشرة هكتارات لدفن موتاها، بل اختيار هذا المكان الواقع في الضاحية ليكون مقبرة. ألم تلاحظوا أنّ هذا الأمر صار قاعدة في أيّامنا؟ كما لو أنّ الناس يصيحون: أبعدوا عنّا المقابر، لا نريد أن نراها! كما لو

أن تذكّر الموت يؤذيهم. وهو أمر واضح حتّى في شواهد القبور التي لم يعودوا يكتبون عليها أنّ الهالك مات، بل «فاضت روحه» أو «التحق بالرفيق الأعلى». لم يكن الأمر كذلك في الماضي. كانت المقبرة تقع في وسط المدينة، تمرّ عليها يومياً فترى المكان الذي يرقد جدك والذي سترقد أنت أيضاً في يوم من الأيام. لم تكن رؤية الأموات تُزعج أحداً. بل كنّا نشم رائحتهم عندما يكون الجو قائظاً، لأنّ مدافن بعض العائلات لم تكن محكمة الإغلاق.

كنت أسوق السيارة بمهل. يا للغرابة! لن تستطيعوا أن تتخيّلوا إلى أيّ حد كان الأمر غريباً! بينما كنت أنزل المنحدر، رأيت أشباح سياجات وأشجار وبقر. كنت كمن ينظر إلى عالمَين في الوقت نفسه، مثل فقاعة رفيعة تعكس ما كان في الماضي، وبداخلها يتلألأ ما هو موجود فعلاً. هذا هو الحقل الذي هاجم فيه الثورُ جانجر روجرز! وهناك كنّا نعثر على الفطر! لكن كل شيء اختفى، ولم يعد للحقل ولا للثور ولا للفطر من أثر. لا شيء غير المنازل، منازل صغيرة في كلّ مكان، ذات لون أحمر صارخ، وسُتُر قذرة، وحدائق خلفية صغيرة لا تُنبت شيئاً سوى عشب قاسٍ وعلّيق بالكاد يظهر بين الأعشاب الضارة. يأهلها رجال يأتون ويروحون، ونساء ينفضن السجاد وأطفال يلعبون على الرصيف. كلّهم أجانب جاؤوا ليتكدّسوا هنا أثناء غيابي، ومع ذلك فأنا الغريب في نظرهم. هم من لا يعرفون شيئاً عن بينفيلد القديمة، ولم يسمعوا قطّ عن شوتر وويذيرال وغريميت أو عن العمّ إيزيكل. والأكيد هو أنهم يهزؤون من كلّ أولئك.

إنّه لأمر غريب كيف يتكيّف الإنسان! قبل خمس دقائق وقفتُ أعلى التلّ وقد انقطعت أنفاسي شوقاً إلى رؤية بينفيلد، وها أنذا

اعتدت على فكرة أنّها عرفت نفس مصير مدن البيرو المنسية. استجمعت قواي وحاولت مواجهة الواقع. ماذا كان عليّ أن أتوقّع؟ فالمدن إنّما أنشئت لكي تتطوّر، والناس ينبغي أن يجدوا مكاناً يأوون إليه. ثمّ إنّ القرية القديمة لم تهدم. على كلّ حال، هي لا تزال موجودة رغم أنّ الدور حلّت محلّ الحقول التي كانت محيطة بها في الماضي. ما هي إلّا بضع دقائق وأرى الكنيسة ومدخنة مصنع الجعة وواجهة متجر والدي ومشرب الخيل في ساحة السوق. وحين وصلت إلى أسفل التلّ، وجدت الطريق متفرّعاً، فاتّجهت يساراً، وسرعان ما تُهت.

لم أعد أتذكّر شيئاً، ولم أعد قادراً على الجزم بأنّ القرية القديمة تبدأ من هناك. الشيء الوحيد الذي كنت واثقاً منه هو أنّ ذلك الشارع لم يكن موجوداً في السابق. قدت السيارة فيه على مدى بضع مئات من الأمتار. شارع بئيس، منازله محاذية للرصيف مباشرة، يطالعك بين الفينة والأخرى متجر بقالة أو حانة حقيرة. وفي الأخير توقّفت بجانب امرأة عارية الرأس، ترتدي وزرة قذرة، كانت تسير على الرصيف. وأخرجت رأسي من النافذة وسألتها:

«عفواً... من أين أذهب إلى ساحة السوق؟».

ردّت بنبرة مبهمة:

«لا أعرف».

فهي قدمت حديثاً من لانكشاير مثل كثير من الناس الذين هاجروا إلى جنوب إنجلترا مؤخّراً بسبب الأزمة. ثمّ رأيت شخصاً قادماً، يرتدي وزرة عمل زرقاء، ويحمل في يده حقيبة مُعدّات. استفسرته عن الطريق، فأجابني بنبرة شعبية بعد لحظة تفكير:

«ساحة السوق! ساحة السوق! انتظر، هل تقصد السوق القديم؟».

هذا ما قصدت.

«حسناً، حسناً. . . انعطف إذاً يميناً و. . .».

بدا لي الطريق طويلاً، لكنّه في الحقيقة لم يكن يتجاوز كيلومتراً ونصفاً. كلّ شيء كان جديداً: منازل ودور سينما وكنائس وملاعب كرة. وشعرت من جديد كما لو أنّ عدوّاً اجتاح المكان خلال غيابي. كلّ هؤلاء الناس الذين قدموا من لانكشاير ومن ضواحي لندن استقرّوا في هذه الفوضى القذرة دون أن يكلّفوا أنفسهم حتّى معرفة أبرز معالم المدينة. وتبدّى لي فجأة السبب الذي جعلهم يطلقون على ساحة السوق اسماً آخر هو «السوق القديم». كانت ثمّة ساحة أخرى، ساحة كبيرة لا شكل لها، في وسط المدينة الجديدة، فيها أضواء مرور وتمثال برونزي ضخم لأسد يهاجم نسراً. نصب تذكاري لموتى الحرب فيما أظنّ. حيثما نظرت لا ترى غير تلك الجِدّة الفجّة التافهة. هل تعرفون كيف تبدو هذه المدن التي نبتت خلال السنين الأخيرة مثل هايس وسلاو وداغنهام وغيرها؟ يصيبك قرميدها الأحمر الذي اجتاح كلّ مكان بالاشمئزاز، والشيء نفسه بالنسبة إلى واجهات المتاجر المليئة بالشوكولاتة الرخيصة وقطع غيار أجهزة المذياع. لكنّني ما كدت أنعطف إلى شارع تبدو منازله أقدم، حتّى وجدت نفسي في شارع بينفيلد القديمة الرئيس. يا إلهي، إنّه هو!

لم تخنّي الذاكرة هذه المرّة. أستطيع أن أتذكّر كلّ بوصة فيه. لم تعد تفصلني عن ساحة السوق سوى مئتي متر. سأذهب إليها بعد

تناول وجبة الغداء، بعد أن أنزل في فندق جورج. كلّ بوصة من هذا الشارع توحي لي بذكرى، واستطعت أن أتعرّف إلى كلّ المتاجر رغم تغيُّر أسمائها، وكذلك السلع المعروضة فيها. هذا متجر لوفغروف! وهذا متجر تود! وذاك متجر ليلي-وايت الكبير المعتّم، ذو الأعمدة والنوافذ الصغيرة حيث كانت تشتغل إيلسي. ثمّ ها هو متجر غريميت! الظاهر أنّه ما زال متجر بقالة. ثمّ بلغت المكان الذي كان فيه مشرب الخيل. كانت أمامي سيارة تحجب عنّي الرؤية ما لبَث أن انعطفَت إلى الجانب، فبدت لي الساحة: لقد اختفى المشرب. مكانه وقف رجل يمثل «جمعية السيارات» ينظّم حركة المرور، ألقى نظرة إلى سيارتي، ولمّا لاحظ أنّها لا تحمل شارة الجمعية، أعرض عن تحيّتي.

انعطفت لأتّجه إلى فندق جورج. أنستني صدمة اختفاء المشرب التأكّد ممّا إذا كانت مدخنة مصنع الجعة ما زالت منتصبة في مكانها. أمّا الفندق فما زال يحتفظ باسمه. لكن عدا ذلك، كلّ شيء فيه تغيَّر. زُيّنت واجهته حتّى صار يبدو أشبه بتلك الفنادق الموجودة على ضفّة النهر. وتغيَّر شعاره أيضاً. واستغربت كيف أنّني لم أتذكّر هذا الفندق ولو مرّة واحدة طوال عشرين سنة. واسترجعت فجأة الشعار القديم الذي كنت أراه معلّقاً هناك من حين إلى آخر، بكلّ تفاصيله. كان عبارة عن صورة بسيطة تمثل القدّيس جورج على صهوة حصان هزيل وهو يصرع تنّيناً ضخماً، وفي الزاوية يظهر توقيع صغير: «و. م. ساندفور، رسام وصانع أثاث فاخر». أمّا الشعار الجديد، فعبارة عن لوحة من الواضح أنّ من رسمها فنان حقيقي، يظهر فيها القدّيس جورج شاباً مخنّثاً. وقد تضاعفت ثلاث مرّات مساحة الساحة المرصوفة بالحجارة، حيث كان المزارعون يركنون عرباتهم،

والسكارى يقيئون مساء السبت، وبُلِّطت أرضيتها، وأحيطت بمرائب. ركنتُ سيارتي بأحدها، وترجّلت.

ما لاحظته هو أنّ اشتغال العقل البشري يتمّ عبر قفزات. لا يوجد انفعال يدوم طويلاً. ففي غضون ربع ساعة، تلقّيت عدداً من الصدمات. لمّا وقفت في أعلى التلّ المشرف على شاطئ شامفورد، وتنبّهت إلى أنّ بينفيلد اختفت، شعرت كما لو أنّني تلقيت لكمة قويّة. والشيء نفسه شعرت به عندما اكتشفت اختفاء المشرب. قدت سيارتي عبر الشوارع وفي نفسي كثير من التوجّس والسخط. لكنّني حين ترجّلت من السيارة، وارتديت قبّعتي، أدركت فجأة أنّ كلّ ذلك لا أهميّة له. كان الجوّ جميلاً، وساحة الفندق المشمسة بأُصُص أزهارها المتفتّحة... تعلن عن حلول الصيف. وتنبّهت إلى أنّني أموت جوعاً، ومتشوّق للطعام.

توجّهت إلى باب الفندق مختالاً والخادم يحمل الحقيبة في إثري. شعرت بنفسي إنساناً ناجحاً، ولا شكّ أنّني كنت أبدو كذلك. إن لم ترَ سيارتي، قد تحسبني رجل أعمال موسر. كنت فرحاً ببدلتي الصوفية الزرقاء الجديدة، ذات الخطوط الرفيعة البيضاء، التي ناسبتني، لأنها «تخفي البدانة» على حدّ قول الخياط. وأظنّ من يرى مظهري، يعتقد أنّني سمسار بورصة. قولوا ما شئتم، فإنّ يوماً جميلاً من أيام يونيو، تشرق فيه الشمس على أُصُص الأزهار الوردية، في فندق ريفي، أستمتع فيه بلحم مشوي مرفوق بصلصة نعناع، متعة ما بعدها متعة. ليس مبعثها الإقامة في الفندق، فالله يعلم أنّ نفسي عافت الفنادق من كثرة ما نزلت فيها، تسعة وتسعون في المئة منها فنادق مخصّصة للأُسر وممثّلي الشركات التجارية، مثل فندق روبوتوم الذي يفترض أنّني نازل فيه الآن، تفرض على الزبائن دفع خمسة

شلنات للمبيت ليلة واحدة مع الإفطار، في غرف تفوح أفرشتها بالرطوبة، وحنفيات حوض حمّاماتها عاطلة على الدوام. أمّا جورج، فصار من الفخامة بحيث كدت لا أتعرّف إليه. فبعدما كان في الماضي فندقاً صغيراً، يضمّ حانة وغرفة أو غرفتَين في الطابق العلوي، ويقدّم وجبة الغداء للمزارعين يوم السوق الأسبوعي (لحم بقر مشوي، ويوركشاير بودينغ والزلابية وجبن ستيلتون)، صار فندقاً فخماً. المكان الوحيد الذي ظلّ مظهره على حاله هي الحانة.

صعدت ممرّاً مفروشاً بسجاد ناعم، عُلّقت على جدرانه لوحات نقشت عليها مشاهد قنص، وأواني نحاسية وأشياء من هذا القبيل. وتذكّرت على نحو غامض كيف كان مظهر هذا الممرّ في الماضي: الأرضية المليئة بالحفر، ورائحة الجبس الممزوجة بالجعة. واجهتني عند مكتب الاستقبال شابّة جميلة لا شكّ أنّها مكلّفة باستقبال الزبائن. سألتني:

«لعلّك ترغب في استئجار غرفة يا سيدي. ما الاسم الذي أسجّله من فضلك؟».

لم أجب على الفور. إنّها لحظة مهمّة بالنسبة إليّ. لا بدّ أنّها ستعرف اسمي. هو اسم غير شائع، لكن كثيراً ممّن يحملونه يرقدون في المقبرة الموجودة خلف الكنيسة. فعائلتي من أعرق عائلات بينفيلد: عائلة بولينغ. ورغم إدراكي أنّه من الصعب أن يكون اسم عائلتي ما زال معروفاً، ظللت آمل أن تعرفني. وقلت بصوت هادئ:

«بولينغ. جورج بولينغ».

«عفواً سيّدي، هل تكتب بالواو: بولينغ، أم من دونها: بلينغ. حسناً سيّدي، هل جئت من لندن؟».

كنت كمن يتحدّث إليها بالصينية. فاسمي لم يثر فيها شيئاً. لم تسمع عنّي قط. لم تسمع قطّ بجورج بولينغ بن صامويل بولينغ، تبّاً! صامويل بولينغ الذي ظلّ يحتسي الجعة كلّ سبت في هذه الحانة لمدّة ثلاثين سنة.

2

مكتبة
t.me/t_pdf

قاعة الطعام تغيّرت هي الأخرى. رغم أنّني لم أتناول فيها وجبة قطّ، ما زلت أذكر كيف كانت، ببرقع مدخنتها البنّي، وجدرانها المكسوّة بورق برونزي -لم أعرف أبداً ما إذا كان لونه أصليّاً، أم صار كذلك بفعل القِدَم والدخان- ولوحاتها الزيتية التي تحمل توقيع الرسام وصانع الأثاث و. م. ساندفورد، وتمثّل مشاهد من معركة التل الكبير. وقد أضفوا على هذه القاعة الآن طابعاً قرسطوياً: موقد كبير من القرميد على الطراز القديم، عوارض ضخمة تتخلّل السقف عرضاً، جدران ملبّسة بخشب السنديان. كلّ ذلك يفوح بالزيف من على بعد خمسين متراً. أمّا العمود، فسنديان حقيقي، جُلب على الأرجح من أحد المراكب الشراعية، مع أنّه لا يحمل شيئاً، بخلاف العوارض التي بدت لي مزيّفة من أوّل ما وقع عليها بصري. جلست إلى إحدى الموائد، وبينما كان النادل، وهو شاب نظيف، قادماً نحوي ليأخذ طلبيّتي، مضيت أنقر بأصابعي على الجدار من خلفي. أجل، لقد صدقت شكوكي! لم يكن الجدار ملبّساً بالخشب، بل استعملوا لتلبيسه مادة غريبة دهنوها بطبقة من الطلاء.

على أنّ طعام الغداء لم يكن سيّئاً. طلبت لحم ضأن مشوي

مرفوق بصلصة النعناع، وزجاجة نبيذ فرنسي أبيض جعلني أتجشأ، لكنّه بثّ في نفسي شيئاً من الابتهاج. لم أكن بمفردي في المطعم، بل توجد أيضاً امرأة شقراء في الثلاثين من العمر، لعلّها أرملة. تساءلت في قرارة نفسي عمّا إذا كانت تنزل في الفندق، وبدأت تراودني خطط بشأنها. واستغربت كيف تتداخل المشاعر الإنسانية. قضيت معظم الوقت أتمثّل الأشباح، وأنظر إلى الماضي يتسلّل إلى الحاضر. يتراءى لي المزارعون يوم السوق الأسبوعي بهيئاتهم المتينة، وأقدامهم وهي تكشط البلاطة بنعالهم الملبّسة بالحديد، يلتهمون كميات لا تصدّق من لحم البقر، وأتساءل كيف يمكن أن تسَعَ معدة إنسان كلّ تلك الكمّية من الطعام. وإذا بالموائد الصغيرة، بأغطيتها اللامعة، وكؤوس النبيذ، والمناديل المطويّة بعناية فائقة، كلّ هذه الأشياء المبهرجة، والشعور بأنّك موجود في مكان مكلف، كلّ ذلك يحجب عالم الماضي. ورحت أفكّر: «معي اثنا عشر جنيهاً، وأرتدي بدلة جديدة، أنا جورج بولينغ الصغير، من كان يصدّق بأنّني سأعود إلى بينفيلد على متن سيارتي؟»، ثمّ سرى دفء الخمر في عروقي وصعد إلى رأسي، فشرعت أحدّق في المرأة الشقراء، وأتخيّلها عارية.

واستمررت على هذه الحال بعد الظهر في صالون الفندق أرتشف الكونياك وأدخّن. طابع القرون الوسطى ظاهر عليه الزيف أيضاً، إلّا أنّه يحتوي على أرائك جلدية حديثة وموائد بأسطح زجاجية. كنت لا أزال أرى الأشباح، لكنّني شعرت بالانتشاء. الواقع أنّني ثملت قليلاً، وما كان يشغل بالي هي المرأة الشقراء. وددت لو أتعرّف إليها، لكنّها انصرفت. كان وقت الشاي قد اقترب، فقرّرت أن أخرج لأتجوّل قليلاً، وآخذ نفساً. توجّهت إلى ساحة

السوق بمهل، ثمّ انعطفت يساراً، وإذا بي أرى المتجر! الشيء الغريب هو أنّني لمّا مررت بجانبه في حافلة محطّة القطار قبل واحد وعشرين سنة، يوم جنازة أمّي، ورأيته مغلقاً يكسوه الغبار، ولوحته محروقة، لم يثر في نفسي أيّ شعور. أمّا الآن، بعد مرور كلّ هذه المدّة الطويلة، وبعد أن صرت عاجزاً حتّى عن تذكّر بعض تفاصيل المنزل من الداخل، فإن مجرّد التفكير في أنّني موجود هناك حطّم قلبي، وبعث في نفسي الضيق والانقباض. مررت بقرب محلّ الحلاقة. ما زال يحتلّه حلاق، لكن اسمه تغيَّر. من خلال الباب تتسرّب رائحة صابون دافئة، رائحة لوز، لكنّها ليست في عذوبة رائحة مستحضرات غسل الشعر الممزوجة بتبغ اللاذقية. متجرنا كان يبعد بحوالي عشرين متراً.

يا للهول! فوق الرصيف تبدو لافتة فنّية –تشبه تلك التي رأيتها في فندق جورج–، كتب عليها:

قاعة شاي واندي،
قهوة صباحية
وحلويات مصنوعة في البيت.

متجرنا تحوّل إلى قاعة شاي! يُخيّل إليّ أنّه حتّى لو كان تحوّل إلى مجزرة أو دكان خردوات أو أيّ شيء آخر باستثناء محلّ لبيع الحبوب، سيصيبني الذهول نفسه. وبدا لي شعور المرء بأنّ له حقّاً أبدياً في بيت من البيوت –مهما كانت الذريعة– لا لشيء إلّا لأنّه ولد فيه، يمثّل شيئاً عبثياً. ولكن هذه هي سُنّة الحياة. إنّ ثمّة تناسباً بين المكان واللافتة المعلّقة عليه: ستائر زرقاء في النوافذ، كعكة أو كعكتان دائريتان من النوع الملبّس بالشوكولاتة مع حبّة جوز مغروسة

في أعلاه. ورغم عدم رغبتي في شرب الشاي، ولجت لأرى كيف هو منظره من الداخل.

الظاهر أنّهم حوّلوا كلاً من المخزن والغرفة التي كانت صالوناً إلى قاعة شاي، بينما بلّطوا الباحة الخلفيّة حيث كنّا نضع صندوق القمامة، وحيث كان أبي يزرع بعض الأعشاب، وزيّنوها بموائد قديمة ونبات الكوبية وما إلى ذلك. توجّهت إلى الغرفة الصغيرة، «صالون» بيتنا، وتراءت لي الأشباح من جديد! البيانو والكتابات على الجدار، والمقعدان الكبيران الأحمران حيث اعتاد والداي أن يجلسا متقابلَين على جانبي المدفأة، يقرآن صحيفتَي **ذا بيبول** و **نيوز أوف ذا وورلد** بعد ظهر أيّام الآحاد. وكان المكان أكثر تزييناً من فندق جورج: موائد قابلة للطيّ، ثريّات من الحديد المنمّق، أطباق من القصدير معلّقة على الجدران. ألاحظت كيف ينجحون في تعتيم صالونات الشاي هذه؟ ربّما لكي تبدو قديمة. وعوض تشغيل نادلة عادية، لجأوا إلى شابة ترتدي فستاناً ملوّناً تقدّمت منّي متجهّمة. طلبتُ شاياً، وانتظرت عشر دقائق لتأتيني به. لعلّكم تعرفون ذلك النوع من الشاي -الشاي الصيني الخفيف- الذي يبدو كالماء قبل أن يسكب عليه الحليب. كنت جالساً تقريباً في المكان نفسه الذي كان يجلس فيه والدي، وخيّل إليّ كما لو أنّني أسمع صوته وهو يقرأ «مقطعاً» -كما كان يقول- من جريدة **ذا بيبول** حول تلك الآلات الطائرة، أو عن الشخص الذي ابتلعه الحوت أو شيئاً من هذا القبيل. وراودني شعور بأنّهم تفطّنوا إلى تحايلي للدخول إلى هنا، وأنّهم سيوسعونني ركلاً قبل أن يطردوني. ومع ذلك ألحّت عليّ رغبة في أن أقول لأحدهم إنّني ولدت ها هنا، أو بالأحرى (وهذا ما كنت أحسّ به حقّاً) إنّ هذا البيت بيتي. لكن لم يكن في الصالة

زبون آخر غيري بينما كانت النادلة واقفة بقرب النافذة، وأنا واثق من أنّني لو لم أكن هناك، لراحت تخلّل أسنانها. تناولتُ قطعة من الكعك الذي أتتني به. يزعمون أنّه مصنوع في البيت، هراء! كعك بيتيٌّ مصنوع من الزبدة النباتية وبدائل البيض. لم أستطع تمالك نفسي، فسألتها:

«هل تعيشين في بينفيلد منذ مدّة طويلة؟».

انخلعت من مكانها، وبدت عليها الدهشة، فلم تجب.

فسألت من جديد:

«أنا نفسي سكنت هذه المدينة في الماضي».

ومن جديد لم تجب واكتفت بأن رمقتني بنظرة فاترة، ثمّ عادت إلى النظر من خلال النافذة. وفهمت الموقف. هي أكبر من أن تثرثر مع الزبائن، هذا فضلاً عن أنّها ربّما اعتقدت أنّني أمهّد لربط علاقة معها. ما الفائدة إذاً من إخبارها بأنني ولدت في هذا المنزل؟ وحتّى لو صدّقتني، فلن تولي ذلك أهميّة. لم تسمع قطّ بصامويل بولينغ، بائع الحبوب. دفعتُ الفاتورة، وانسحبت.

صعدت باتّجاه الكنيسة. كان ثمّة شيء أخشاه وآمله في الآن نفسه، على نحو غامض، وهو أن يتعرّف إليّ أحد من المعارف القدامى. لكنّ قلقي لم يكن في محلّه، إذ لم أرَ ولو وجهاً واحداً من الوجوه التي كانت مألوفة لديّ في هذا الشارع، حتّى خيّل إليّ أن كلّ سكّان البلدة استبدِلوا تماماً. وما إن وصلت إلى الكنيسة حتّى فهمت لماذا احتاجوا إلى مقبرة جديدة. ذلك أنّ هذه المقبرة امتلأت عن آخرها، ولم يعد بها حيّز لإضافة مقابر أخرى. أمّا الأسماء، فكثير منها لا أعرفه، لكنّني لم أجد صعوبة في التعرّف

إلى بعضها. ومضيت أطوف بين القبور. كان حارس المقبرة قد انتهى من فوره من جزّ العشب، فانتشرت في الجوّ رائحة توحي بالصيف. كلّ المعمّرين الذين كنت أعرفهم رحلوا: غريفيت الجزار ووينكل بائع الحبوب وتريو الذي كان يدير فندق جورج، والسيدة ويلر بائعة الحلوى. كلهم يرقدون هناك. أما شوتر وويذيرال فدُفنا متقابلَين، يفصل بينهما الممرّ. لم يقفل ويذيرال المئة. فقد ولد سنة 1843 وتوفي سنة 1928. لكنّه انتصر على شوتر كعادته، إذ توفي شوتر سنة 1926 تاركاً ويذيرال ينشد بمفرده لمدّة سنتين دون أن يعثر على من يرافقه، بينما يرقد العجوز غريميت تحت قطعة عظيمة من الرخام على شكل فطيرة، تحيط بها قضبان حديدية. وفي إحدى زوايا المقبرة يحتشد آل سيمونس، تعلو قبورهم شواهد صغيرة من النوع الرخيص. كلّهم عادوا إلى التراب: العجوز هودجز ذو الأسنان المصفرّة بالتبغ، لوفغروف ولحيته الطويلة البنيّة، السيدة رامبلينغ مع سائق عربتها وخادمها، وعمّة هاري بارنز بعينها الزجاجية، وبروير صاحب مزرعة المطحنة، ذو السحنة المتغضّنة التي يخالها الناظر منحوتة في حبّة جوز. لم يبقَ منهم جميعاً سوى ألواح حجرية يعلم الله ما تحتها.

عثرت على قبر أمّي، وبجانبه مباشرة قبر أبي، وهما في حالة جيّدة. الظاهر أنّ العشب من حولهما يُقصّ بشكلٍ منتظم. ولم يكن قبر العمّ إيزيكل بعيداً عنهما. قبور كثيرة سوّيت بالأرض، واختفت شواهدها الخشبية. كيف سيكون شعوركم وأنتم ترون قبور آبائكم بعد عشرين سنة؟ لا أعرف بما يمكن أن تشعرون، لكنّني أستطيع أن أحدّثكم عما شعرت به أنا: لا شيء. فأبي وأمّي ظلّا حاضرَين معي باستمرار، كما لو أنّهما يعيشان في نوع من الأبدية. أمّي أمام

الإبريق البنّي، وأبي بصلعته المعفّرة بالطحين، ونظارته وشنبه الأشيب، ثابتان على هذه الحال وكأنهما في صورة فوتوغرافية، إلّا أنّهما حيَّين مع ذلك. أمّا هذا الركام من العظام الراقدة تحت التراب، فلا علاقة له بهما. وبينما أنا واقف هناك أفكّر فيما يشعر به الإنسان بعد أن يوارى التراب -فيما إذا كان ذلك يؤثّر فيه، ومتى يصير الأمر سيّان لديه- إذا بظلٍّ كثيف يغمرني ويثير في نفسي الفزع. نظرت خلفي. لم تكن غير طائرة مقاتلة حجبت عنّي أشعة الشمس وهي تعبر السماء.

ثمّ دخلت إلى الكنيسة. ولأوّل مرّة منذ عودتي إلى بينفيلد لا ينتابني الشعور بأنّني أمشي بين الأشباح، أو بالأحرى أحسست به على نحو مختلف. ربّما لأنّ هذا المكان لم يتغيّر فيه شيء باستثناء الناس الذين اختفوا. المجاثي نفسها ورائحة الغبار نفسها والجثث، الحلوة، والثقب نفسه في النافذة الزجاجية عدا الشمس التي تنير الجانب الآخر، لأن الوقت كان مساء، والأشعة لا تصل إلى الصحن. حتّى المقاعد الخشبية الطويلة لم تُستبدل بكراسٍ. ومقعدنا ما زال في مكانه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المقعد الذي كان يجأر فوقه ويذيرال قبالة شوتر، بينما ينشدان قصة انتصار سيحون، ملك العموريين، على عوج، ملك بيسان! الصحن نفسه لم يتغيّر، بأرضيّته المتآكلة، وشواهد القبور الموجودة فيه التي لم يمّح ما كتب عليها تماماً. وقرفصتُ لألقي نظرة على الشاهد الذي يوجد قرب مقعدنا. كنت أحفظ عن ظهر قلب ما كتب عليه. حتّى شكل الكتابة كان منقوشاً في ذاكرتي. الله وحده يعلم كم مرّة قرأت هذه الأشياء خلال الصلاة.

رفعت بصري، فإذا برجل في رداء أسود يقف على بعد خطوة

منّي. إنّه القسّ. هو نفسه العجوز بيتيرتون الذي كان قسّاً حينذاك. لا أذكر متى رأيته هنا لأوّل مرّة على وجه الدقّة، لكن الأرجح منذ سنة 1904. عرفته من النظرة الأولى من شعره الأشيب. أمّا هو فلم يعرفني. لم أكن بالنسبة إليه سوى سائح بدين يرتدي بدلة زرقاء جاء لزيارة المكان. حيّاني، وانطلق في حديثه المألوف. سألني عمّا إذا كنت أهتمّ بالهندسة المعمارية. قال إنّ الكنيسة بناية رائعة، شيّدت في العهد الساكسوني، وما إلى ذلك. ثمّ راح يريني المكان وهو يظلع في مشيته: قبّة مفضية إلى غرفة المقدّسات، تمثال برونزي للسير روديريك بون قتيل معركة نيوبوري. وتبعته بخنوع رجل أعمال كهل يطوّفونه في كنيسة أو معرض تشكيلي. لكن، هل قلت له إنّي أعرف كلّ هذه الأشياء؟ وأنّني جورج بولينغ، ابن صامويل بولينغ؟ هل سيتذكّر أبي إن لم يتذكّرني؟ هل قلت له إنّني لم أواظب على حضور صلواته طوال عشر سنوات، ولم أشارك في دروس التثبيت فحسب، بل انتميت أيضاً إلى حلقة القراءة في بينفيلد، وقرأت **السمسم والسوسن** لكي أنال إعجابه؟ كلا، لم أقل له شيئاً من كلّ ذلك، واكتفيت بأن تبعته مغمغماً بين الفينة والأخرى كما يفعل المرء حين يُقال له إنّ عمر هذا الشيء أو ذاك يناهز خمسمئة سنة، فلا يجد ما يجيب به سوى التسليم بذلك. منذ اللحظة التي تلاقت فيها نظراتنا، قرّرت ألّا أفصح له عن هويّتي، وأن أنسحب بمجرّد ما تواتيني الفرصة بعد أن أودِع بعض القطع النقدية في صندوق الكنيسة.

ولكن لماذا؟ بعد أن عثرت على شخص يمكن أن يعرفني، لماذا لم أفصح له عن هويّتي؟ لأنّ التغيُّر الذي طرأ على مظهره خلال هذه العشرين سنة أفزعني. أعرف ما قد يكون جال في

أذهانكم: أنّه شاخ. كلا! بالعكس، بدا كما لو أنه استعاد شبابه. ووجدتني فجأة أفكّر في مرور الزمن.

أظن أنّ بيتيرتون في الخامسة والستين من العمر، بمعنى أنّه كان في الخامسة والأربعين حين رأيته لآخر مرّة. كان في مثل سنّي اليوم. شعره الآن أبيض تماماً، بينما كان الشيب يوم دُفنت أمّي قد بدأ يخالطه مثل شعر فرشاة حلاقة. ومع ذلك ما لفت انتباهي لأوّل وهلة هو أنّه يبدو أصغر من سنّه. كنت أتخيّله شيخاً، لكنّني اكتشفت أنّه لم يكن بالهرم الذي ظننت. ما زلت أذكر كيف كان الناس الذين تجاوزوا الأربعين يبدون لي كحطام قديم لدرجة يصعب التفريق بينهم. لكن، تبّاً! ها أنا اليوم في الخامسة والأربعين، وهي فكرة ترهقني. وقلت في نفسي وأنا أتسلّلُ بين المقابر: هكذا أبدو أنا أيضاً لشابّ في العشرين، جثّة متهالكة، رجلاً في نهاية العمر. ووجدت الأمر غريباً، فأنا لا أفكّر أبداً في سنّي. ولماذا سأشغل بالي به؟ صحيح أنّني بدين، لكنّني ما زلت قوياً وبصحّة جيّدة. أستطيع أن أفعل كلّ ما يخطر ببالي. إنّ رائحة الوردة بالنسبة إليّ هي اليوم كما كانت قبل عشرين سنة. ولكن، هل رائحتي ظلّت هي نفسها بالنسبة إلى الوردة؟ ورأيت -فيما يشبه الجواب- فتاة في حوالي الثامنة عشرة من عمرها تصعد الشارع المفضي إلى الكنيسة، وكانت مجبرة على أن تمرّ على بعد متر أو مترين منّي، ورأيت النظرة التي رمتني بها، نظرة خاطفة بالكاد تلحظ. لم تكن نظرة مفزوعة أو عدوانيّة، بل نظرة بعيدة ونافرة، مثل نظرة حيوان تلتقي عيناك بعينَيه. لقد وُلِدتْ وكبُرتْ خلال العشرين سنة الأخيرة، خلال غيابي عن بينفيلد. وبذلك فإنّ كلّ ذكرياتي لا تعني لها شيئاً: فهي تنتمي إلى عالم مختلف تماماً عن عالمي.

عدت إلى فندق جورج، وكنت أشعر بالرغبة في شرب شيء ما. عدا أنّ الحانة لن تفتح أبوابها إلّا بعد نصف ساعة. وبينما رحت أقلّب صفحات مجلّة تعود إلى السنة السابقة، متخصّصة في الرياضة والمسرح لإمضاء الوقت، دخلَت المرأة الشقراء التي خلتها أرملة. وانتابتني رغبة محمومة في مغازلتها. رغبة في أن أثبت بأنّني ما زلت شابّاً رغم طقم أسناني. وقلت في نفسي إن كانت في الثلاثين وأنا في الخامسة والأربعين، فالفارق بيننا ليس كبيراً. كنت واقفاً أمام المدفأة غير الموقدة، كما لو أنّني أدفئ ظهري. كان مظهري في البدلة الزرقاء مقبولاً. صحيح أنّ كرشي بارزة، لكن مظهري مميّز. أبدو رجلاً راقياً، قد يحسبني الناظر سمسار بورصة. قلت بتأنُّق وبلهجة غير مبالية:

«يا له من يوم جميل!».

أردتُها ملاحظة بريئة وغير مؤذية، ليست من نوع: «يخيّل إليّ أنّني أعرفك، ألم نلتقِ سابقاً؟».

لم تأتِ بنتيجة. ذلك أنّها لم تردّ، واكتفت بأن أزاحت الجريدة قليلاً لترشقني بنظرة قاسية. كانت عيناها الزرقاوان من النوع الذي يخترقك مثل رصاصة بندقية. وأدركت على الفور أنّني أخطأت التقدير. لم تكن من أولئك الأرامل ذوات الشعر المصبوغ اللواتي يتحرّقن شوقاً للعثور على رجل يرافقهنّ إلى الحفلات الراقصة. كانت امرأة من الطبقة البرجوازية الراقية، لعلّها ابنة أمير بحر، تردّدَت على إحدى المدارس الشهيرة التي يلعب تلامذتها الهوكي. يضاف إلى هذا أنّني كنت واهماً بخصوص صورتي. ببدلة جديدة أو من دونها، لا يمكن أن أبدو بمظهر سمسار بورصة. كان مظهري يوحي بأنّني مجرّد مندوب مبيعات أصاب حظّاً من النجاح. ومرقت

إلى الحانة الخاصة لكي أفرغ كأساً أو كأسَين من الجعة بانتظار العشاء.

لم تعد الجعة كما كانت في الماضي. ما زلت أذكر جعة تلك الأيام، جعة وادي التمز ذات المذاق المميّز بسبب الماء المشبع بالكلس. سألت النادلة:

«أما زال آل بيسميرز هم من يديرون مصنع الجعة؟»

«آل بيسميرز؟ كلا يا سيّدى. لقد غادروا منذ سنوات... قبل أن آتي بكثير».

كانت نادلة لطيفة في حوالي الثلاثين من العمر، ذات وجه ودود وذراعين مفتولتين من كثرة الضغط على مقبض مضخة الجعة. وذكرت لي اسم الشركة المالكة للمعمل.

شكل الحانات اليوم مختلف عمّا كان في الماضي، إذ صارت دائرية ومقسّمة إلى حجرات. كان هناك في الحانة العامة شابان يلعبان لعبة السهام، وفي الحانة الثالثة، المسماة الجرّة والزجاجة، يجلس شخص متوارياً عنّي، يلقي بملاحظات بين الفينة والأخرى، بصوت كئيب. واستندت النادلة على مرفقيها وراحت تتحدّث إليّ. ذكرت لها بعض الأسماء التي كنت أعرفها، لكنّها لم تتعرّف إلى أيّ من أصحابها. فهي لم تستقرّ في بينفيلد إلّا منذ خمس سنوات. وهي لم تسمع حتى بالعجوز ثريوْ، مالك فندق جورج السابق.

وقلت لها:

«أنا أيضاً سكنت بينفيلد قبل مدّة طويلة... كان ذلك قبل الحرب».

«قبل الحرب، عجباً! لا تبدو شخصاً مسنّاً!».

فلاحظ الشخص الموجود في الجرّة والزجاجة:

«لا بدّ أن البلدة تغيّرت».

مكتبة
t.me/t_pdf

فقلت:

«المدينة توسّعت، ربّما بسبب المصانع».

«بالطبع. معظمهم يشتغلون في المصانع. هناك مصنع الفونوغرافات ومصنع الجوارب، لكنّها تصنع القنابل اليوم بالطبع».

بدت لي لفظة «بالطبع» ناشزة في الجملة، لكنّه مضى يحدّثني عن شابّ يشتغل في مصنع الجوارب أخبره أنّهم يصنعون القنابل والجوارب في الآن نفسه. ثمّ حدّثني عن المطار العسكري الكبير الموجود قرب والتون، وهو ما يفسّر ما رأيته من طائرات مقاتلة. ثمّ عاد بنا الحديث كالعادة إلى الحرب. الغريب هو أنّني ما جئت إلى هنا إلّا لكي أنسى الحرب. ولكن كيف لي أن أنساها؟ فهي حاضرة في الهواء الذي نتنفّسه.

قلت لهم إنّها ستنشب لا محالة سنة 1941، وجاراني الشابّ صاحب الملاحظات في أنّها عمل قذر. وقالت النادلة إن مجرّد التفكير فيها يشعرها بالقشعريرة. وأضافت:

«ألا ترون أنّ الحرب لن تسوّي شيئاً في نهاية المطاف؟ يجفوني النوم أحياناً بسبب أصوات هذه الآلات الضخمة التي تطير فوق رؤوسنا، وأقول في نفسي: لنفرض أنّهم يطلقون قنبلة فوقي مباشرة، ففيمَ تفيد تعليمات السلامة والآنسة تودجرز التي لا تكفّ عن ترديد أنّ الأمور ستجري على خير ما يرام إن نحن حافظنا على هدوئنا وأغلقنا النوافذ بورق الجرائد؟ وهم يزعمون أنّهم سيقيمون ملجأ تحت مبنى البلدية. ولكن في رأيي، كيف يمكن وضع القناع الواقي من الغازات لطفل رضيع؟».

وقال الشخص الجالس في حانة الجرّة والزجاجة إنّه قرأ في إحدى الجرائد أنّ أفضل ما يمكن أن يصنعه المرء هو أن يأخذ حمّاماً ساخناً بانتظار أن ينتهي الإنذار. وسمع الرجلان اللذان في الحانة العامة ما قيل، فراحا يتساءلان بصوت مسموع عن عدد الأشخاص الذين يمكن أن يسعهم حوض الحمّام، واقترح كلّ منهما على النادلة أن تشاركه حوض حمّامه، فنعتتهما بالوقاحة، واتّجهت إلى مائدتهما لتضع كأسَين من الجعة. أمّا أنا فرشفت من جعتي، ووجدتها ليست من النوع الجيّد. مذاقها مرّ، بل شديد المرارة أقرب إلى مذاق الكبريت. صاروا يضيفون المواد الكيماوية لكلّ شيء. يقال إنّ الجعة الإنجليزية المنسّمة بالجنجل لم يعد لها وجود. أمّا الجعة الموجودة اليوم فهي مجرّد موادّ كيماوية. وتذكّرت العم إيزيكل وماذا كان سيقول عن جعة كهذه وعن التعليمات العسكرية وسطول الرمل التي من المفترض استعمالها في إطفاء القنابل الحارقة؟ وعادت النادلة، فسألتها:

«بالمناسبة، من هو مالك القصر الآن؟».

«القصر؟ أيّ قصر يا سيّدي؟».

فقال الشخص الموجود في حانة الجرة والزجاجة شارحاً:

«يقصد القصر الموجود في بينفيلد العليا».

فردّت متعجّبة:

«أوه! هو الآن في ملك الدكتور ميرال».

«الدكتور ميرال؟!».

«أجل سيّدي. ولديه أكثر من ستّين مريضاً هناك».

«مرضى؟ هل تحوّل إلى مشفى؟».

«الواقع. . . أنّه ليس مشفى من المشافي العادية. هو بالأحرى أشبه بمصحّة للناس الذين يعانون من اختلالات عقلية. يسمّونه مشفى الأمراض العقلية».

صار ملجأ مجانين إذاً. ولكن، ماذا يمكن أن تتوقّع غير هذا؟

3

غادرت السرير وأنا أشعر بلزوجة في فمي، وعظامي تئز أزّاً.

الواقع أنّني شربت في اليوم السابق أكثر ممّا يلزم. فبعد زجاجة نبيذ في الغداء، وأخرى في العشاء، شربت عدّة كؤوس من الجعة بينهما، هذا عدا كأساً أو كأسين من الكونياك. مضت دقائق وأنا واقف على السجاد، تائه النظرات، غير قادر على أن أخطو خطوة. لعلّكم تعرفون هذا الشعور البغيض الذي ينتابكم أحياناً في الصباح، شعور بالوهن في الساقَين، فتقولون في أنفسكم: «ابقَ هكذا، لماذا تصرّ على الحركة؟ لا عليك! أدخل رأسك في فرن الغاز».

وضعت طقم أسناني وتوجّهت إلى النافذة. يوم آخر جميل من أيام مايو: كانت الشمس قد بدأت تمسّ الأسقف مسّاً خفيفاً، وتنشر أشعتها على واجهات المنازل في الجانب الآخر من الشارع، فتزيد ألوانها إشراقاً. وبدت زهرة إبرة الراعي بلونها الوردي جميلة في النوافذ. ورغم أنّ الساعة لم تكن قد جاوزت الثامنة والنصف صباحاً، والفندق موجود في شارع صغير خلف ساحة السوق، كانت الحركة دؤوبة، والناس يذهبون ويأتون. شباب ببدلات داكنة، يبدو عليهم الاستعجال، لا تخطئ العين أنّهم موظّفو مكاتب، يحملون حقائب صغيرة، ويقصدون الوجهة نفسها، كدأب سكّان ضواحي

لندن وهم يندفعون نحو محطات المترو. ثمّ هناك التلاميذ الذين يقصدون ساحة السوق في جماعات صغيرة. وانتابني الشعور نفسه الذي تملّكني لمّا رأيت غابة السقوف الحمراء التي اجتاحت شامفورد. يا لهؤلاء الدخلاء! عشرون ألف غريب لم يسمعوا بي، ولا يعرفون حتّى اسمي، وهذه المدينة العاجّة بالحركة، وأنا واقف هنا، بجثّتي المنتفخة، وطقم أسناني، أنظر إليهم من النافذة وألوك ذكريات تعود إلى ثلاثين أو أربعين سنة خلت، لا أحد يكترث بها. اللعنة! كم كنت مخطئاً حين اعتقدت أنّني أرى أشباحاً بينما أنا الشبح. أنا الميّت وهم الأحياء.

لكن بعد وجبة الفطور -سمكٌ مدخّن وكُلى مشويّة وخبز محمّص ومربّى برتقال وقهوة- شعرت بمزاجي يتحسّن. لم أرَ المرأة البرجوازية الفاترة. لعلّها لا تفطر في مطعم الفندق. كان الجوّ مشمساً، فلم أتمالك نفسي من التفكير في أنّ مظهري، بالبدلة الصوفية الزرقاء، يبدو مميّزاً. وقلت في نفسي: «تبّاً! ما أنا إلّا شبح. لكن فليكن، حتّى لو كنت شبحاً، سأجوب المدينة، وأزور الأماكن القديمة. لربّما جعلت هؤلاء الأنذال الذين سرقوا منّي مدينتي، يشعرون بسحري الأسود».

انطلقت أمشي، لكنّني ما كدت أتجاوز ساحة السوق حتّى استوقفني مذهولاً منظرٌ غير متوقّع. رتل من أربعين تلميذة تقريباً يسرن وسط الشارع، مصطفّات كالجنود رباعاً رباعاً، ترافقهنّ امرأة متجهّمة تمشي بجانبهنّ كأنّها رقيب في الجيش. تحمل التلميذات الأربع الموجودات في طليعة الصف لافتة مطوّقة بالأحمر والأبيض والأزرق، كتب عليها بحروف كبيرة: **هيّئوا أنفسكم أيّها البريطانيون.**

وقف حلاق عند باب دكانه، رجل ذو شعر مملّس، وراح ينظر إليهنّ نظرة لا تخلو من ذهول، فبادرتُه:

«ماذا تفعل هؤلاء البنات؟».

فردّ بنبرة ملتبسة:

«يتدرّبن على الغارات الجوية كما ترى. وهذه التي ترافقهنّ هي الآنسة تودجرز».

لم أكن بحاجة إلى أن يقول لي هذا. فقد كان واضحاً في عينيها. لعلّكم تعرفون ذلك النوع من النساء العوانس المسنّات المتصلّبات اللواتي تصادفونهنّ دائماً على رأس جمعيات الكشافة، أو مسؤولات عن أديرة البنات المسيحيات أو شيئاً من هذا القبيل. كانت ترتدي معطفاً وتنّورة باللون نفسه، أشبه بلباس عسكري لا ينقصه سوى الحزام والمسدّس. أنا أعرف هذا النوع من النساء حقّ المعرفة. لا بدّ أنّها كانت في قوّات الاحتياط النسائي خلال الحرب، ومنذئذ لم تحظَ بيوم متعة. وقد وجدت في هذا التمرين ضالّتها. وبينما كانت الفتيات تمرّ بجواري، سمعتها تصرخ كالرقيب تماماً: «لا تجرجري قدميك يا مونكا!» ولم ألبث أن رأيت الصفّ الأخير حاملاً لافتة أخرى، محاطة بالأحمر والأبيض والأزرق أيضاً، كتبَ عليها:

نحن مستعدّات، وأنتم؟!

«ما مناسبة هذا الاستعراض؟».

«لست أدري. لعلّه نوع من الدعاية، هل فهمت قصدي؟».

فهمت بالطبع. الغاية من كلّ هذا هو التأثير على عقول الأطفال، وتوجيههم الوجهة التي يريدونها، وكذا إشعارنا جميعاً بأنّ

الحرب وشيكة، والطائرات المقاتلة قادمة لا محالة مثلما سيقدم العام الجديد. إذاً ما على الناس إلّا أن تختبئ في الأقبية، ولا تجادل! ورأيت طائرتَين كبيرتَين سوداوين تحلّقان باتّجاه شرق المدينة. وقلت في نفسي: اللعنة! سيأتي يوم ستصبح شيئاً عادياً مثل زخّة مطر، لا يستغربها أحد. ولن نلبث أن نسمع دويّ القنبلة الأولى. واقترب منّي الحلاق ليقول لي إنّ مساعي الآنسة تودجرز قد نجحت، إذ حصل أطفال المدارس على أقنعتهم الواقية من الغازات السامة.

ورحت أجوب المدينة. تسكّعت ليومين بحثاً عن معالم أعرفها، وعن أماكن قديمة أستطيع تمييزها. وطوال تلك المدّة لم ألتقِ بشخص واحد أعرفه. شعرت بنفسي كالشبح رغم أنّني مرئي، من لحم ودم.

كان الأمر غريباً، بل موغلاً في الغرابة بحيث يتعذّر التعبير عنه. هل قرأتم حكاية هـ. ج. ويلز التي تتحدّث عن رجل يوجد في مكانين في الآن نفسه، بمعنى أنّه يكون في بيته، لكنّه يشعر بنفسه، خلال هلوساته، بأنّه في أعماق البحر. يطوف في غرفته، وعوض أن يرى المائدة والكراسي، يبصر أعشاباً بحرية تتماوج، وسلطعونات كبيرة وحُبُر عملاقة تتجوّل بالقرب منه. هكذا كان حالي. لساعات متواصلة وأنا أمشي في عالم لا وجود له. كان بإمكاني أن أعدّ خطواتي على امتداد الرصيف وأقول لنفسي: «أجل، هنا يبدأ حقل فلان، كان السياج يعبر الطريق ويجتاز ذلك البيت. وهنا، مكان محطة الوقود هذه، كانت توجد دردارة. وهناك حافة الأرض المخصّصة للبناء، وهذا الشارع (أذكر أنّه كان زقاقاً حقيراً تحيط به منازل شبه منفصلة، كان يدعى طريق غومبيرليدج)، كم تمشّينا فيه أنا وكاتي سيمونس. كانت تحيط به أشجار الجوز من الجانبَين». لربّما

أخطأت في تقدير المسافات، لكنّ الوجهة العامّة صحيحة. من لم يولد هنا لن يصدّقني أبداً إن قلت له إنّ هذه الشوارع كانت حقولاً قبل عشرين سنة فقط. كان الأمر كما لو أنّ الريف دفن تحت البنايات إثر انفجار بركاني. فالجزء الأعظم من أراضي بروير ابتلعته منازل مجلس الإسكان. ومزرعة المطحنة اختفت، وبركة البقر التي اصطدت فيها أول سمكة، جفّت، وبُنيت فوقها مساكن بحيث لم أعد قادراً على تحديد موقعها بدقّة. لا شيء غير المنازل، منازل في كلّ مكان، عبارة عن مكعّبات حمراء متشابهة، وأسيجة من الأجنبة وممرّات إسفلتيّة تفضي إلى المداخل. وبعد منازل مجلس الإسكان، تبدو بنايات المدينة متباعدة قليلاً، لكنّ المستثمرين في العقار الرخيص كانوا مشمّرين عن سواعدهم. حيثما نظرت لا ترى غير المنازل تنبت في كلّ مكان على نحو غير منتظم، وطرقات تُشقّ على عجل، وقطع أرضية عليها ألواح البنائين، وبقايا حقول مهجورة يكسوها الشوك وعلب التصبير.

أمّا وسط المدينة، فلم يتغيّر كثيراً، على الأقل فيما يخصّ المنازل. ظلّت الكثير من المحلات التجارية وفيّة لنشاطها السابق، وإن تغيّر مالكوها. فـ«ليلي-وايت» ما زالت تبيع القماش، لكنّها لم تعد تعرف الرواج نفسه فيما يبدو. ومجزرة غريفيت تحوّلت إلى متجر لبيع قطع غيار جهاز المذياع. وواجهة محلّ الأمّ ويلر الزجاجية سُدّت بجدار. وبقالة غريميت ما زالت قائمة، لكن استولت عليها شركة أنترناشيونال. وهذا يعطي فكرة عن قوّة تلك الشركات الكبرى التي تنتصر في نهاية المطاف على تاجر مثل غريميت، مهما كان بخله ومكره. لكن حسب معرفتي به، أراهن على أنّه انسحب في الوقت المناسب، وأنّه رحل وفي جيبه عشرة

آلاف أو خمسة عشر ألف جنيه، لكن ذلك لم يُكتب طبعاً على شاهدة قبره. ولعلّ المحلّ الوحيد الذي لم يتغيّر مالكه هو محلّ شركة سارازينز، التي تسبّبت في إفلاس أبي. توسّعت تجارتهم كثيراً، وفتحوا فرعاً لهم في المدينة الجديدة، إلّا أنّ المتجر لم يعد يقتصر على بيع الحبوب، بل تعدّاها إلى الأثاث والموادّ الصيدلية والخردوات ومواد الحديد ومستلزمات البستنة.

قضيت معظم هذين اليومين تائهاً مثل روح معذّبة من دون أنين، ودون أن أسحب من خلفي سلاسل الأشباح المجلجلة، مع أنّني وددت لو أفعل ذلك في بعض اللحظات. وقد كنت أبالغ في الشرب، أكثر ممّا أحتمل. شرعت أشرب منذ وصولي إلى بينفيلد، واكتشفت أنّ الحانات لا تفتح أبوابها مبكّراً أبداً. وبدأ العطش إلى الخمر يشتدّ بي نصف ساعة قبل الافتتاح.

لعلّكم لاحظتم أنّ مزاجي لم يكن هكذا طوال الوقت، إذ أقول لنفسي أحياناً ما شأني ببينفيلد، فليهدموها إن شاءوا! ثمّ، ألم آتِ إلى هنا هرباً من الأُسرة؟ لا شيء يمنعني من أن أفعل ما كنت أتوق إليه، وأذهب إلى الصيد إن شئت. بل إنّني دخلت بعد ظهر السبت إلى متجر الشارع الرئيس لكي أشتري قصبة صيد من النوع الذي كنت أحلم به في طفولتي -رغم أنّها أغلى من الأنواع الأخرى- وصنارات وخيوطاً وما إلى ذلك. ووجدت شيئاً من العزاء في الجوّ السائد في المتجر. فإذا كان كلّ شيء قد تغيّر، ظلّت لوازم الصيد كما هي، وهو أمر بديهي بما أنّ السمك لم يتغير أيضاً. كما أنّ البائع لم يستغرب أن يأتي كهل بدين مثلي لكي يشتري قصبة صيد. بل على العكس، تحدّثنا قليلاً عن صيد السمك في التمز، وعن سمكة الشوب الضخمة التي اصطادها أحدهم في السنة السابقة بواسطة

طعم من خبز أسمر وعسل ولحم أرنب مفروم ومسلوق. وبينما كنت أفكر في أسماك الشبوط آملاً أن تكون ما زالت موجودة ببينفيلد العليا، وصل بي الأمر إلى حدّ أنني -ودون أن أفصح له عن نيتي، بل لم أفصح عنها حتّى لنفسي- اشتريت أمتن خيط لصيد السلمون في المتجر، وصنارات كبيرة.

وقضيت معظم صبيحة يوم الأحد أتساءل: أأذهب إلى الصيد أم لا أذهب؟ لحظة أقول في نفسي: اللعنة! لم لا أذهب للصيد؟ وفي اللحظة التي بعدها يبدو لي الصيد من الأشياء التي يحلم بها المرء على الدوام دون أن يحقّقها. على أنّني ركبت السيارة بعد الظهر، وانطلقت في طريق سدّ بورفورد. قلت في نفسي: سألقي نظرة على التمز على أن أعود في اليوم الموالي إن ظلّ الجوّ صحواً، وربّما أجلب معي قصبتي الجديدة. سأرتدي سترتي القديمة والسروال الصوفي الذي أحضرته لهذا الغرض. وقد أقضي ثلاثة أيام أو أربعة في الصيد إن راقني ذلك.

تنعطف الطريق أسفل التلّ، وتمتدّ موازيّة للممرّ المحاذي للنهر. ترجّلت وانطلقت أمشي. أوه! كان ينبغي أن أتوقّع هذا! على جانب الطريق ظهرت مجموعة من المنازل الصغيرة الحمراء والبيضاء، وثمّة، فيما يبدو، عدد من السيارات المركونة هناك. وبينما كنت أقترب من النهر، سمعت أصوات فونوغراف. أجل أصوات فونوغراف! انعطفت فإذا بي أرى الطريق المحاذي للنهر محتشدة بالناس، وعلى جانبيها كثير من المقاهي وأكشاك الحلوى وآلات القمار وباعة المثلجات حتّى لتظنّ نفسك في منتجع مارغايت الشاطئي. ما زلت أذكر الطريق القديم المحاذي للنهر. كان بإمكانك أن تمشي لكيلومترات دون أن تصادف أحداً باستثناء حراس

القنوات، وفي أحيان نادرة قد تصادف صاحب مركب لنقل السلع خلف حصانه. لمّا كنّا نذهب للصيد كنّا نشعر بأنّ هذا المكان لنا وحدنا. كثيراً ما كنت أجلس هناك بعد الظهر لساعات فيأتي بلشون ويقف في إحدى البرك الضحلة على بعد خمسين متراً من الضفة، ويمكث هناك لساعتين أو ثلاث دون أن يزعجه أحد. ولكن من أين جاءتني فكرة أنّ الراشدين لا يذهبون للصيد؟ على امتداد ضفّتَي النهر، وعلى مدى بصري، كان ثمة صفّان متواصلان من الصيادين لا يتجاوز الفاصل بين الواحد والآخر خمسة أمتار. وتعجّبت من كونهم اختاروا الاحتشاد في هذا المكان، ثمّ قلت في نفسي لا بدّ أن هناك نادياً للصيد أو شيئاً من هذا القبيل. ثمّ إنّ النهر مزدحم بالمراكب -قوارب وزوارق بمجاديف وأخرى بمحركات- مملوءة عن آخرها بشباب مغفّلين نصف عراة، يحملون معهم فونوغرافات. وكانت أطواف الصيادين تتحرّك في كلّ الاتجاهات بسبب الأمواج الصغيرة التي تحدثها الزوارق ذات المحركات.

تقدّمت أكثر باتجاه النهر، فإذا بي ألاحظ أنّ الماء قذر ومضطرب رغم الجوّ الصحو. ولم يكن أحد من الصيادين يمسك شيئاً، ولو سمكة صغيرة. فمثل هذا الحشد من الناس قمين بإخافة أسماك الأرض قاطبة. وبينما كنت أتأمّل العوامات وهي تتماوج بين كؤوس المثلجات الفارغة، والأكياس الورقية ساورني شكّ فيما إذا كان لا يزال ثمّة سمك في النهر. ألا يزال في التمز سمك؟ أظنّه لا يزال، ومع ذلك أنا مستعدّ لأن أقسم على أنّ ميّاه التمز لم تعد كما كانت. فقدت صفاءها. قد تقولون محض تخيُّلات، لكنّني أؤكّد لكم أنّ الأمر غير صحيح. أنا واثق من أنّ الميّاه تغيّرت لأنّني ما زلت أذكر كيف كانت: خضراء متلألئة شفافة يحيط بها قصب تجوبه

أسراب من سمك الداس. أمّا الآن، فلا يمكن أن تنظر أبعد من عشرة سنتيمترات لأنّ المياه بنية اللون ومتّسخة، تعلوها طبقة من الزيوت بسبب محركات الزوارق، هذا دون ذكر أعقاب السجائر والأكياس الورقية.

لم أستطع تحمُّل صخب أجهزة الغراموفونات، فعدت أدراجي وأنا أقول في نفسي: من الطبيعي أن يوجد كلّ هذا الصخب، لأنّ اليوم يوم أحد. قد لا يكون الأمر هكذا خلال الأسبوع. على أنّي كنت واثقاً من أنّ قدمي لن تطأ هذا المكان ثانية. فليذهبوا إلى الجحيم، هم ونهرهم! سأصطاد في أيّ مكان من الأرض إلّا في التمز.

ووجدت نفسي عالقاً في حشد من السيّاح الأجانب، معظمهم من الشباب، فيهم الذكور والإناث، يحاولون إثارة الانتباه إليهم بتصرّفات بلهاء. تلبس الإناث سراويل بسيقان واسعة، جرياً على الموضة، ويضعن على رؤوسهنّ قبّعات بيضاء كتلك التي يلبسها جنود البحرية الأميركية. إحداهنّ مراهقة في حوالي السابعة عشرة من عمرها، تبدو باحثة عن الشهوة، وغير متمنّعة، أثارت غريزتي. وانتابتني رغبة مفاجئة في أن أتخلّص من هذا الحشد، وأذهب إلى إحدى تلك الآلات التي تَزِنُكَ مقابل قرش. سمعت طقطقة بداخلها. لعلّكم تعرفون هذه الآلات التي لا تعطيك وزنك فحسب، بل تتنبأ أيضاً بمستقبلك. ورأيت قطعة من الورق تخرج من فتحة في الأسفل، كتب عليها:

«لديك مواهب استثنائية، لكن تواضعك المفرط يجعل الناس لا يقدّرونك حقّ قدرك. محيطك لا يقدّر مؤهّلاتك. وأنت تفضّل

أن تتنحّى لكي تترك الآخرين يستأثرون بما أنت أهل له. ثمّ إنّك مرهف الإحساس وعاطفي، وتتمتّع بجاذبية خاصة لدى الجنس الآخر، وأسوأ عيوبك هو كرمك. واصل على هذا الدرب، فإنك ستمضي بعيداً.

الوزن: 93,80 كيلوغراماً».

زاد وزني إذاً كيلوغرامَين خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، ربما بسبب ما تناولت من خمر.

4

عدت إلى فندق جورج وركنت سيارتي في المرآب ثمّ تناولت فنجان شاي في وقت متأخّر. وبما أنّ اليوم كان يوم أحد، لن تفتح الحانة أبوابها قبل ساعة أو ساعتَين، لذلك انطلقت أمشي باتّجاه الكنيسة في برودة المساء.

وبينما كنت أعبر ساحة السوق، لاحظت امرأة تمشي على بعد خطوات أمامي. وما كدت أراها حتّى تملّكني شعور غريب بأنّني سبق أن رأيتها في مكان ما. لا شكّ أنّكم تعرفون هذا الشعور. لم أكن أستطيع رؤية وجهها بالطبع، مثلما لا أستطيع التعرّف إليها من مظهرها الخلفي، ومع ذلك كنت مستعدّاً لكي أقسم على أنّني أعرفها. واصلَت سيرها في الشارع الرئيس ثمّ انعطفت إلى زقاق صغير على اليمين، حيث كان يوجد دكّان العم إيزيكل. سرت في إثرها دون أن أعرف السبب بالضبط، ربّما بدافع الفضول من جهة، والحذر من جهة أخرى. من المؤكّد أنّني ابتهجت بالعثور أخيراً على شخص من سكّان بينفيلد أعرفه، لكنّني في الآن ذاته قلت في نفسي قد تكون من سكّان ويست بليتشلي. وفي هذه الحالة ينبغي أن أتوخّى الحيطة. إن تعرّفت إليّ هنا في بينفيلد، سيصل الخبر إلى هيلدا لا محالة. هكذا تقفّيت أثرها على مسافة آمنة، وأنا أجهد

ذهني لعلّي أتعرّف إلى هويّتها من هيئتها. على أنّ لا شيء فيها كان يلفت الانتباه. امرأة طويلة القامة، أميَل إلى البدانة، بين الأربعين والخمسين من العمر، ترتدي فستاناً أسود قديماً، ولا تضع على رأسها قبّعة، كما لو أنّها خرجت من بيتها لقضاء حاجة بسرعة ثمّ تعود. يظهر من مشيتها أنّ كعب حذائها متآكل. وبالإجمال هي تبدو مهملة الحال. حتّى الآن لم أتوفّق في التعرّف إليها اللهمّ هذا الشعور الغامض بأنّني رأيتها في مكان ما. وما لبثت أن بلغَت محلاً من تلك المحلات الصغيرة التي تظلّ مفتوحة طوال الأسبوع، بما في ذلك أيّام الآحاد. كانت صاحبته واقفة عند الباب منهمكة في ترتيب حامل البطاقات البريدية. فإذا بصاحبتي تتوقّف هناك.

توقّفت بدوري عند واجهة أوّل متجر في طريقي. وهو متجر صغير يبيع لوازم البيت، ويعرض أيضاً عيّنات من الورق الملوّن ومعدّات الحمّامات، وتظاهرت بأنّني أبحث عن شيء. كنت على بعد خمسة عشر متراً تقريباً منهما، وكان بإمكاني أن أسمع ما يدور بينهما من حديث تافه ممّا يدور عادة بين النساء حين لا يكنّ مستعجلات. «أجل، هذا بالضبط، تماماً. هذا ما قلت له. قلت له: «حسناً، وماذا كنت تتوقّع؟» ألا أبدو محقّة؟ لكن هكذا هو، كما لو أنّك تتحدّثين إلى حجر. شيء مخزٍ...» وهلمّ جرّاً. وبدأت أشعر بالإثارة. كان واضحاً أنّ المرأة زوجة أحد التجار الصغار، مثل صاحبة الدكان. وبدأت أتساءل عمّا إذا لم تكن ممّن عرفتهم في بينفيلد سابقاً. وحين التفتت ناحيتي، رأيت وجهها. يا إلهي! إنها إيلسي!

أجل، إيلسي بكلّ تأكيد. أيُعقل أن تكون هذه العجوز البدينة هي إيلسي؟

شعرت بصدمة كبيرة -لا من رؤية إيلسي، بل من رؤية كيف

أصبحت- حتّى أن بصري اضطرب للحظة. وبدت لي الحنفيّات النحاسية وطرادات الماء، والأحواض الخزفية كما لو أنّها تغور بعيداً، بحيث كنت أراها ولا أراها. وانتابني في الآن نفسه ذعر شديد من أن تتعرّف إليّ، لكنّها حدّقت فيّ دون أن تنتبه إليّ. ولم تكد تمضي لحظة حتّى واصلَت سيرها، فجازفتُ بالانطلاق خلفها من جديد. كنت أدرك أنّها لعبة خطرة، إذ من الممكن أن تنتبه إليّ، وتتساءل عمّن أكون، عدا أنّني كنت لا أزال أشعر بحاجة إلى مزيد من النظر إليها، وأنّها تمارس عليّ إغراء مريعاً. صحيح أنّني تأمّلتها بما فيه الكفاية، لكنّ نظرتي إليها الآن من زاوية مختلفة.

أجل، إنّه شيء مريع، ومع ذلك كنت أشعر بضرب من المتعة وأنا أتفحّص هذه الهيئة من منظور علمي إلى حدّ ما. إنّ ما تستطيع أن تفعله أربع وعشرون سنة بامرأة أمر مخيف. أربع وعشرون سنة فقط كانت كافية لكي تمسخ الشابة التي عرفتها، ببشرتها البيضاء الناعمة، وشفتَيها القرمزيّتَين وشعرها الذهبي، إلى هذه المرأة البدينة المقوّسة الظهر، التي تسير ظالعة على كعبَين متآكلَين. وغمرتني السعادة لأنّني خلِقت رجلاً، إذ لا أحد من الرجال يمكن أن ينهار بهذه الكيفية. صحيح أنّني بدين، وأنّني فقدت الرشاقة، لكنّني على الأقل ما زلت أحافظ على مظهري الإنساني. أمّا إيلسي، رغم أنّها لم تكن في بدانتي، فقدت الهيئة الآدمية، بردفَيها الرهيبَين، وقدّها البطين، واستحالت إلى أسطوانة مترهّلة أو كيس طحين.

تبعتها لمسافة طويلة إلى أن خرجت من المدينة القديمة بعد أن سلكت أزقّة قذرة لا أعرفها، ودخلت أخيراً إلى متجر، وبدا من الكيفية التي دخلت بها أنّه متجرها. وقفت لحظة أمام المحل. كتبَ على لافتته: «ج. كوكسن لبيع الحلويات والتبغ»، وهكذا عرفت أنّ

إيلسي هي حرم السيد كوكسن. كان المتجر بائساً، شبيهاً بذاك الذي توقّفَت عنده قبل قليل، لكنّه أصغر منه وأقذر. وهو لا يبيع فيما يظهر سوى التبغ والحلويات الرخيصة. ورحت أفكّر في أيّ شيء يمكن أن أشتريه بحيث أقضي دقيقة أو دقيقتَين داخله. وانتهى بي المطاف أن لاحظت في الواجهة مجموعة من الغلايين، فدخلت. كان عليّ أن أحافظ على رباطة جأشي، لا سيما إن هي تعرّفت إليّ واضطررتُ إلى الكذب.

كانت مشغولة في خلفية المتجر، فنقرت على المنضدة لألفت انتباهها. جاءت، فوجدت نفسي وجهاً لوجه معها. لم يحدث شيء، إذ أنّها لم تتعرّف إليّ، ومضت تنظر إليّ تلك النظرة غير المبالية التي ينظر بها التجّار الصغار عادة إلى زبائنهم.

إنّها أوّل مرّة أنظر إليها مباشرة. ورغم أنّني تهيّأت لهذا الموقف، كانت صدمتي كبيرة لا تقلّ عن الصدمة التي شعرت بها لحظة تعرّفي إليها. أظنّ أنّ المرء يستطيع، عند رؤية وجه شاب، أو حتى طفل، أن يخمّن كيف سيصير مع تقدّمه في العمر. لأنّ الأمر كلّه في شكل العظام. وعلى فرض أنّه وقع بخلدي، لمّا كنت في العشرين من العمر وإيلسي في الثانية والعشرين، أن تساءلت كيف سيكون مظهرها لمّا تبلغ السابعة والأربعين، ما كان لي أن أتخيّل أبداً أنها ستكون على هذه الحال. فقد تدلّى وجهها كلّه، كما لو أنّه سُحب إلى أسفل. هل تعرفون أولئك النساء المتقدّمات في السنّ ذوات الوجوه الشبيهة بوجوه كلاب البولدوغ؟ فكّ علوي ناتئ، وفم تهدّلت زاويتاه، وعينان غائرتان تحتهما جيبان، مثل البولدوغ تماماً. ومع ذلك ظلّت ملامح وجهها كما هي، بحيث أستطيع تمييزه من بين مئات الوجوه. أمّا شعرها، فلم يكن قد ابيضّ تماماً، لكنّه فقد

كثافته، وصار لونه ترابياً. لم تتعرّف إليّ. فأنا بالنسبة إليها مجرّد زبون غريب، رجل بدين غير جدير بالاهتمام. واستغربتُ في قرارة نفسي الفرق الذي يمكن أن تحدثه بضعة سنتيمترات من الشحم. وتساءلت عن السرّ في عدم تعرفّها إليّ، ألأنّني تغيّرت أكثر مما تغيّرت هي، أم لمجرّد أنّها لم تكن تتوقع أن تراني، أو لأنّها ببساطة نسيت وجودي تماماً؟

بادرتني بتلك النبرة الفاترة التي يواجهك بها أصحاب مثل هذا النوع من المتاجر:

مكتبة
t.me/t_pdf

«مساء الخير».

فأجبتها:

«أبحث عن غليون، غليون خشبي».

«غليون، انتظر، سأرى. أعرف أنّ لدينا غلايين في مكان ما... حسناً، ها هي».

تناولَت علبة مليئة بالغلايين من تحت المنضدة. كم تغيّرت نبرة صوتها! أم تراها تهيّؤات بسبب تغيُّر وضعي الاجتماعي؟ كلا. لقد كانت فتاة مميّزة شأن كلّ الفتيات اللواتي كنّ يشتغلن لدى ليلي-وايت في ذلك العهد. كما أنّها كانت تنتمي إلى حلقة القراءة التي كان يشرف عليها القسّ. أنا واثق من أنّ نطقها للأصوات كان رائعاً. غريب كيف تهمل النساء أنفسهنّ بعد الزواج. وبعد تفحّص الغلايين لحظة، قلت إنّني أبحث عن غليون بأنبوب من الكهرمان.

«من الكهرمان... انتظر، أظنّ أنّ لدينا ما تبحث عنه».

والتفتت إلى الخلف ونادت:

«جورج!».

غريب! هو أيضاً يُدعى جورج.

وسُمع نخير في خلفية المتجر.

«أين وضعت علبة الغلايين الأخرى يا جورج؟».

وظهر جورج. رجل قصير وبدين، يرتدي قميصاً، برأس أصلع، وشنب طويل أحمر. يبدو حين يحرك فكّيه كحيوان مجترّ. لا بدّ أنني أزعجته بينما كان يتناول شايه. وراحا يفتّشان معاً عن العلبة الأخرى، وقد لزمتهما خمس دقائق ليعثرا عليها خلف علب الحلوى. ما أغرب الفوضى التي تعمّ هذه المتاجر الصغيرة، رغم أنّ كلّ ما فيها من سلع لا يتجاوز إجمالاً أربعين جنيهاً!

مضيت أنظر إلى إيلسي وهي تتخبّط وسط تلك الفوضى وتغمغم من السخط. هل سبق أن لاحظتم حركات امرأة عجوز مقوّسة الظهر وهي تجرجر خطاها بحثاً عن شيء؟ لا فائدة في أن أصف لكم ما شعرت به. أحسست بفتور قاتل، من المستحيل أن تتمثّلوه إن أنتم لم تجرّبوه. كلّ ما يمكن أن أقول لكم، إن سبق أن تعلّقتم بفتاة قبل خمس وعشرين سنة، فهبّوا لتروا كيف صارت. عندئذ لربّما أدركتم ما أحسست به.

لكن ما أذهلني في الواقع في تلك اللحظة هو رؤية المنحى المربك الذي أخذته الأحداث. أين هي الساعات التي قضيناها معاً أنا وإيلسي؟ أمسيات يوليو تحت أشجار الكستناء؟ من كان يصدّق أنّه سيأتي يوم لن يعود بيني وبينها شيء تماماً؟ كنت هناك بجانبها، جسدانا متقاربان، على أنّنا كنّا غريبين عن بعضنا البعض كما لو أنّنا لم نلتقِ أبداً. فهي لم تتعرّف إليّ حتّى. لو أخبرتها بهويّتي، لما تذكّرتني على الأرجح. وحتّى على فرض أنّها تذكّرتني، فماذا سيكون شعورها يا ترى؟ لا شيء. لعلّها لن تلومني على أنّني تخلّيت عنها. كان الأمر كما لو أن شيئاً لم يقع.

ثمّ، من كان يتوقّع أن تنتهي إيلسي إلى هذه المآل؟ أيّام كنت أعاشرها، كانت من نوع الفتيات اللواتي يُقال عن مآلهنّ إنّه لن يكون خيراً. أعرف أنّها عاشرت قبلي رجلاً واحداً على الأقل، وأنا مستعدّ للرهان على أنّها عاشرت رجالاً غيري خلال الفترة الممتدّة بيني وبين زوجها جورج. ولن أستغرب أن يناهز عددهم اثني عشر رجلاً. وممّا لا شكّ فيه أنّني أسأت معاملتها، بحيث يساورني الندم على ذلك أحياناً. وكنت أقول في نفسي إنّ المطاف سينتهي بها في الشارع، أو إلى الانتحار بوضع رأسها في فرن غاز. وفي بعض الأحيان أشعر بأنّني تصرّفت معها تصرّف الأنذال، لكنّني أقول في أحايين أخرى (وهو أمر على قدر من الصحّة)، مهما يكن، لو لم أفعل بها ذلك، لفعله بها شخص آخر. على أنّكم تعرفون كيف تجري الأمور، وما يرافقها من تفاهة وملل. كم عدد النساء اللواتي ينتهي بهنّ المطاف في الشارع؟ سوادهنّ الأعظم يغرق في تفاهات الحياة اليومية. فإيلسي لم تؤل إلى مآل سيّئ، لكنّها لم تؤل إلى مآل حسن كذلك. فمآلها لا يختلف عن مآل سائر الناس... امرأة بدينة عجوز، تتدبّر أمور معاشها في هذا الدكان الصغير العطن، بمعية زوجها جورج، هذا الرجل ذو الشنب الأحمر. ممّا لا شكّ فيه أنّهما أنجبا سرباً من الأطفال. فالسيدة كوكسن عاشت حياة محترمة، ولن تخلّف وراءها إلّا الندم. وستموت إن حالفها الحظّ دون أن تعرف الإفلاس.

عثرا على علبة الغلايين، وبطبيعة الحال لم يكن بينها ولو واحد بأنبوب الكهرمان.

«الظاهر أنّنا لا نتوفّر على غليون بالكهرمان يا سيدي...».

وقال جورج:

«لدينا غلايين بالإبونيت».

«أريده بالكهرمان».

وقالت إيلسي:

«انظر إلى هذا، إنّه جميل».

ثمّ مدّته لي وهي تضيف:

«غليون رائع».

ناولتني إياه، وشعرت بأصابعي تلامس أصابعها، لكنّها لم تبدِ أيّ ردّ فعل. يبدو أنّ الجسد لا يتذكّر، وأظنّكم تقولون في أنفسكم: لقد اشترى الغليون كذكرى للأيام الخوالي، لكي يضع نصف كرونة في جيب إيلسي. لقد أخطأتم. لم أكن أرغب في غليون، لأنّني لا أدخنه. كلّ ما في الأمر هو أنّني اتّخذته ذريعة لكي أدخل إلى الدكان. وهكذا قلّبت الغليون بين أصابعي، ثمّ وضعته على المنضدة، وقلت:

«لا بأس، لن أشتريه. ناوليني سجائر».

بعد كلّ العناء الذي سبّبت لهما، كان عليّ أن أشتري شيئاً. ناولني جورج الثاني، أو ربّما الثالث أو الرابع... علبة سجائر دون أن يتوقّف عن المضغ. وقد كان السخط واضحاً عليه، لأنّني أفسدت عليه لحظة تناول الشاي من أجل مبلغ تافه. وقلت في نفسي كنت سأكون غبياً لو أنفقت نصف كرونة من أجل غليون. غادرت الدكان وانصرفت في حال سبيلي. وكانت تلك هي آخر مرّة أرى فيها إيلسي.

عدت إلى الفندق وتناولت العشاء ثمّ خرجت وقد راودتني فكرة غامضة بالذهاب إلى السينما إن وجدت القاعات ما زالت مفتوحة، لكن انتهى بي المطاف في إحدى الحانات الصاخبة في المدينة

الجديدة. هناك وقعت على شخصَين من ستافوردشير، يشتغلان مندوبَي مبيعات. تحدّثنا مطوّلاً عن التجارة، ولعبنا لعبة السهام وشربنا الجعة. وحين أغلقت الحانة أبوابها، كانا ثملَين بحيث اضطررت إلى أن أستقلّ سيارة أجرة لكي أعيدهما إلى الفندق رغم أنّني كنت أنا نفسي تحت تأثير الكحول. وفي اليوم الموالي استيقظت بصداع أشدّ ممّا شعرت به في الأيام السابقة.

5

لكن كان عليّ أن أزور بركة بينفيلد العليا.

لم أكن أشعر بنفسي حقّاً على ما يرام ذلك الصباح. منذ وصولي إلى بينفيلد، قضيت معظم وقتي في الحانات، من وقت افتتاحها إلى أن تغلق. والسبب في ذلك -وقد تبادر إلى ذهني حالاً- هو عدم وجود شيء آخر يمكن أن يشغلني في هذه المدينة. وبذلك كانت حصيلة رحلتي هي إنفاق ثلاثة أيام في الشرب.

وعلى غرار اليوم السابق، جرجرت خطاي إلى النافذة، ونظرت إلى الرجال بقبّعاتهم المستديرة، والتلاميذ بطرابيشهم المدرسية يتدافعون في الشارع. وقلت في نفسي: ها هم أعدائي. جيش الغزاة الذين اجتاحوا مدينتي، ولوّثوا أطلالها بأعقاب السجائر والأكياس الورقية. وسألت نفسي عن الداعي الذي يدعوني إلى أن أشغل بالي بهذه الأمور. أنا واثق من أنّكم تعتقدون أنّ سبب صدمتي عند رؤية بينفيلد تتحوّل إلى مدينة صناعية متوسّطة هو ببساطة امتعاضي من تزايد السكان وزحف العمران على الريف. لكنّ الحقيقة غير ذلك تماماً. لست أمانع في أن تتوسّع المدن، لكن شريطة أن تتوسّع وتمتد حقّاً، لا أن تنتشر كما ينتشر المرق على غطاء المائدة. فأنا أدرك أنّ الناس بحاجة إلى أن يعيشوا في مكان ما، وأنّ المصانع إن هي لم تشيَّد في

هذا المكان، فستشيَّد في مكان غيره. أمّا بهرجة الألوان والبساطة المزيَّفة، وألواح السنديان والأواني القصديرية والمقالي النحاسية، كلّ ذلك يصيبني بالغثيان. بإمكانك أن تقول أيّ شيء عن الناس في الماضي، إلّا أنّهم كانوا يحبّون البهرجة. ما كانت أمّي لتطيق رؤية تلك الأشياء القديمة التي زيّنت صالون ويندي. لم تكن تحبّ الموائد القابلة للطيّ، وتقول إن الأقدام تعلق بها. أمّا القصدير، فلم تكن تطيق رؤيته في بيتها، وتقول إنّ الأواني القصديرية «قذرة، تعلق بها الأوساخ». ومع ذلك ينبغي أن نعترف بأنّ شيئاً كان موجوداً في ذلك الوقت، فقدناه اليوم. . . شيء لا يمكن أن تعثر عليه في المقاهي البرّاقة التي يتردّد فيها صوت المذياع. هذا الشيء هو ما جئت أبحث عنه هنا ولم أجده. ومع ذلك، وهو أمر فسِّروه كيفما يحلو لكم، ما زلت أؤمن به نسبياً حتّى في هذه الأثناء وأنا لم أضع بعد طقم أسناني، وبطني تضجّ طلباً للأسبرين ولفنجان شاي.

كلّ هذا أعاد ببينفيلد العليا إلى ذهني. فبعدما وقفت على ما فعلوه بالبلدة، راودني شعور. . . شعور بالخوف. . . وأنا أتساءل عمّا إذا كانت البركة ما زالت في مكانها. قد تكون ما زالت. . . وقد تكون. . . كيف أعرف؟ فالمدينة تختنق تحت القرميد، ومنزلنا يغرق تحت خردوات ويندي، والتمز ملوّث بزيوت المحركات والأكياس الورقية. لكن البركة قد تكون ما زالت موجودة، بأسماكها الضخمة السوداء التي تنزلق تحت صفحة الماء. بل ربّما تكون ما زالت مخفيّة بين الأشجار، دون أن يشعر أحد بوجودها حتّى اليوم. هذا ممكن جدّاً، فهي تقع في دغل كثيف، مليء بالعلّيق والأشجار المتشابكة والأغصان الساقطة المتعفّنة. باختصار في مكان لا يجازف أحد بدخوله، ومع هذا وقعت أمور غريبة.

لم أنطلق إلّا في وقت متأخّر من النهار، عند العصر. لمّا أخرجت السيارة لأتّجه إلى بينفيلد العليا، كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف تقريباً. وعند منتصف التلّ، أخذت المنازل تتباعد، وسرعان ما تركتِ المكان لأشجار الزان. وحين بلغت مفترق الطرق، انعطفت يميناً بنيّة الالتفاف، ثمّ العودة بعد ذلك إلى طريق «القصر». لكنّني سرعان ما توقّفت لأتأمّل الأجمة التي كنت أوجد فيها. أشجار الزان لم تتغيّر، ما زالت كما كانت. يا إلهي، كيف يمكن أن تكون ظلّت على حالها؟ ركنت السيارة على جانب الطريق، أسفل جرف صخري، وواصلت مشياً. لا شيء تغيّر! نفس الهدوء، ونفس حفيف الأوراق التي تكسو الأرض، والتي تبدو كما لو أنّها اخترقت السنين دون أن تتعفّن. لا شيء يتحرّك باستثناء بعض الطيور على قمم الأشجار، طيور صغيرة غير مرئية. من الصعب أن يصدّق المرء أن مدينة بهرجها ومرجها توجد على بعد خمسة كيلومترات. وانطلقت داخل الأجمة باتجاه «القصر». لم أعد أذكر المسالك القديمة على نحو واضح. يا إلهي! إنّه الكهف الكلسيّ نفسه الذي كان أفراد عصابة اليد السوداء يقذفون فيه الأحجار بالمقاليع، وحيث أخبرنا سيد لوفغروف بالكيفية التي يولد بها الأطفال، في ذلك اليوم الذي اصطدت فيه سمكتي الأولى قبل أربعين سنة تقريباً!

وانفرجت الأشجار من جديد، فبدت على الجانب الآخر من الطريق البنايةُ الضخمة. سياج الأخشاب المتعفّنة اختفى بالطبع، وانتصب مكانه سور مرتفع من القرميد تعلوه أسلاك شائكة، كتلك الأسوار التي تحيط بمستشفيات المجانين. وبينما كنت أفكّر في الكيفية التي سأدخل بها، راودتني فكرة أن أزعم لهم بأنّ زوجتي مجنونة، وأنّني أبحث عن مكان أودعها فيه. وقد كنت أبدو في

بدلتي الجديدة على قدر من الغنى يسمح لي بإيداع زوجتي في مصحّة خاصة. ولم أتساءل حول ما إذا كانت البركة ما زالت موجودة في الأرض التابعة لـ«القصر» إلّا لمّا وقفت أمام البوّابة الحديديّة.

كانت حديقة القصر تمتدّ في الماضي على مساحة عشرين هكتاراً بينما لا تتجاوز مساحة حدائق المصحات العقلية خمسة هكتارات، ومن ثمّة قد يكونوا تخلّوا عن المساحة الباقية، لا سيما أنّ فيها بركة يحتمل أن يغرق فيها المجانين. الكوخ الذي كان يسكنه العجوز هودجز ما زال موجوداً، وإن كان جدار القرميد الأصفر والباب الحديدي قد جرى تجديدهما. وما أبصرته من خلال الشباك الحديدي لم يسمح لي بالتعرّف إلى المكان. مماشٍ مكسوّة بالحصى، أُصُص أزهار، عشب، وهيئات تتجوّل هنا وهناك كأرواح معذّبة، لعلّهم المجانين. واصلت السير إلى اليمين. فالبركة التي كنت أصطاد فيها توجد على بعد مئتي متر خلف المنزل. بعد مئة متر تقريباً، وجدت نفسي أمام سور المشفى، وبذلك أدركت أنّ البركة توجد خارج حديقته. وتهيّأ لي أنّ المساحة التي كانت تحتلها الأشجار تقلّصت بحيث كنت أستطيع سماع أصوات الأطفال. ثمّ، يا إلهي! ها أنا أمام البركة!

مكثت لحظة أتساءل عمّا وقع لها، ثمّ فهمت: قطعوا الأشجار من حولها فبدت عارية ومختلفة، بحيث تخال نفسك أمام البركة المدوّرة الموجودة في حدائق كينسينغتون في لندن. يلعب أطفال في محيطها وهم يخوضون في الماء، ويركبون زوارقهم الصغيرة. وفي الجانب الأيسر، حيث كان المرفأ الذي تتعفّن فيه المراكب بين القصب، تنتصب الآن خيمة وكشك لبيع الحلوى، ولافتة كبيرة كتب عليها: **نادي بينفيلد العليا لليخوت.**

التفتُّ إلى اليمين، لم يكن ثمّة غير المنازل والمنازل ثمّ المنازل، تماماً مثلما هو الأمر في كلّ الضواحي. كلّ الأشجار التي كانت ممتدّة خلف البركة، والتي كانت متشابكة كغابة استوائية، قطعت، ولم يبقَ منها سوى شجرات قليلة حول المباني. حتّى هذه المنازل أراد لها أصحابها أن تكون ذات مظهر فنّي -طراز تودور زائف- تماماً مثل «الإقامة» التي لفتت انتباهي أوّل ما وصلت، أعلى تلّ شامفورد. كم كنت مغفّلاً حين اعتقدت أنّ هذه الغابة لا يمكن أن تتغيّر! لم يعد أمامي إلّا أن أسلّم بالأمر الواقع. قطعة واحدة فقط، بمساحة هكتارين أو ثلاثة، سلِمَتْ من القطع، وهي المساحة التي عبرتها في طريقي إلى هنا. فبينفيلد العليا التي لم تكن في الماضي سوى اسم، صارت الآن تجمّعاً سكنياً من الحجم المتوسط، وتحوّلت إلى ضاحية بعيدة لبينفيلد.

دنوت من البركة. كان الأطفال يتراشّون ويصدِرون جلبة تصمّ الآذان. أمّا الماء فبدا ميّتاً، لا أثر فيه للأسماك. كان ثمّة شخص واقف هناك ينظر إلى الأطفال. كهل برأس انحسر عنه الشعر، وتناثر فيما بقي منه الشيب، ببشرة برونزية، غريب المظهر: يرتدي نظارات شمسية وسروالاً قصيراً وقميصاً ذا طوق مفتوح وصندلاً. لكن ما أثار انتباهي أكثر هي نظرته. كانت عيناه البالغتا الزرقة تومضان خلف نظارتيه. إنّه من أولئك المسنّين الذين يأبون أن يشيخوا، وهم إمّا مهووسون بالطعام الصحي، وإمّا مرتبطون بالكشّافة. وفي كلتا الحالتين تجدهم مولعين بالطبيعة والهواء الطلق. راح ينظر إليّ كما لو أنّه يهمّ بمخاطبتي. وقلت:

«لقد توسّعت بينفيلد العليا كثيراً».

غمز بعينه وقال:

«توسّعت! لن نسمح أبداً بأن تتوسّع يا سيّدي. نحن أناس ذوو كبرياء. أظنّك فهمت قصدي. نحن أناس استثنائيون، نعيش في جماعة صغيرة خاصة بنا، ولا نقبل الدخلاء!».

ومضى يقهقه. فقلت:

«لكن لا مجال للمقارنة بما كان عليه الحال قبل الحرب. أقصد أنّني كنت أسكن هنا في طفولتي».

«أوه... فهمت... قبل الحرب... أيّ قبل أن نستقرّ نحن حسبما فهمت. لكن إقامات بينفيلد العليا شيء مختلف تماماً. فهو ليس حيّاً كبقيّة الأحياء. نحن خلقنا هنا عالماً صغيراً خاصّاً بنا، صمّمه المهندس الشاب إدوارد واتكين. أظنّك سمعت به. نحن نعيش هنا بالقرب من الطبيعة. لا مجال للمقارنة بالمدينة...».

وأومأ بيده إلى بينفيلد، وأضاف:

«... ومصانعها السوداء الشيطانية».

وراودته ضحكة مخنوقة سمحة، فتغضّن وجهه وبدا كوجه أرنب. ودون أن ينتظر أسئلتي، مضى يذكر كلّ ما يمكن معرفته عن إقامات بينفيلد العليا والمهندس إدوارد واتكين المولع بطراز تودور المعماري، والذي يبذل ما في وسعه للبحث عن عوارض خشبية من العصر الإليزابيثي في بيوت الضيعات القديمة، يشتريها بثمن بخس. بل يمثّل هذا الشاب الرائع روح حفلات التعرّي التي ننظّمها! وكرّر مراراً أنّ سكان بينفيلد العليا أناس استثنائيون حقّاً، لا مجال للمقارنة بينهم وبين سكان بينفيلد السفلى. فهم مصمّمون على إغناء الريف عوض تلويثه (حسب تعبيره). هذا فضلاً عن أنّ بينفيلد العليا خالية من الحانات.

«هم يتحدّثون عن الأحياء ذات الحدائق، أمّا نحن فنسمي بينفيلد العليا حيّ الأشجار. . . حيّ الطبيعة!».

وندّت عنه ضحكة وهو يومئ بيده إلى ما تبقّى من أشجار، ثمّ استرسل يقول:

«روح الغابات البدائية تخيّم على الأرجاء، وأطفال الحيّ يكبرون في بيئة من الجمال الطبيعي. نحن بالطبع هنا أناس متنوّرون. قد لا تصدّق إذا قلت لك إنّ ثلاثة أرباع سكّان حيّنا نباتيون، حتّى أنّ جزّاري المنطقة ساخطون علينا. كما يسكن بيننا أناس بارزون كالسيدة هيلينا ثورلو الكاتبة الروائية، لعلّك سمعت بها، والبروفيسور وود، الباحث في السيكولوجيا. يا له من شخصية شاعرية! مولع بالتجوّل بين الأشجار، حتّى أنّه كثيراً ما يختفي في أوقات الطعام، ويترك أسرته تبحث عنه. فلمّا يعود يقول إنّه كان مع الجنيات. هل تؤمن بالجنيات؟ لا أخفيك، أنا متشكّك قليلاً، لكن صوره أكثر إقناعاً».

وبدأت أتساءل عمّا إذا لم أكن بحضرة أحد الفارّين من المشفى. كلا، إنّه عاقل بما فيه الكفاية، ولكن بطريقته. أعرف هذا النموذج الذي يجري وراء الموضة: الحياة النباتية، البساطة، الشعر، تقديس الطبيعة، التدحرج في الندى قبل الإفطار. فقد سبق لي أن التقيت بعضهم منذ سنوات في إيلينغ. ثمّ أصرّ على أن يرافقني لزيارة المكان. لم يبقَ من الغابة شيء بحيث احتلّت المنازل كلّ المساحة تقريباً، وأيّ منازل! هل تعرفون تلك المنازل المشيَّدة على طراز تيودور الزائف، ذات السقوف المبهرجة، والدعامات الزائدة التي لا ترفع شيئاً، والحدائق ذات الأرضية الصخرية، وصهاريج صغيرة من الإسمنت يستحمّ فيها الطيور، وأقزام جبسية حمراء يبيعها

تجّار الورود؟ بإمكانكم أن تتخيّلوا عصابة هؤلاء النباتيين وصيّادي الأشباح وأعداء الحياة البسيطة الذين يكسبون ألف جنيه في السنة ويعيشون هنا. حتّى الأرصفة تعكس جنونهم، لذلك قرّرت أن أنهي الجولة. فبعض تلك المنازل جعلتني أتمنّى لو كنت أحمل معي قنبلة يدوية. وحاولت أن أثبّط حماسه بأن سألته إن كانوا لا ينزعجون من السكن بالقرب من مشفى الأمراض العقلية، لكنّني لم أنجح. وفي الأخير توقّفت وقلت له:

«كانت توجد هنا بركة أخرى فضلاً عن البركة الكبيرة. أظنّها ليست بعيدة من هنا».

«بركة أخرى؟ لا أظنّ أن بركة أخرى كانت في هذا المكان».

فقلت:

«لعلّهم جفّفوها. كانت بركة عميقة. لا شكّ أنّها تركت حفرة كبيرة».

ولأوّل مرّة لاحظت الانزعاج بادياً على وجهه، ومضى يحكّ أنفه.

«ينبغي أن تدرك أنّ الحياة هنا بدائية إلى حدّ ما. حياة بسيطة، هل فهمت قصدي؟ نحن نفضّل الحياة هكذا. لكن للبُعد عن المدينة مساوئ بالطبع. فبعض التدابير المتعلّقة بالنظافة وحفظ الصحة لا تزال غير مُرضية. فمن يجمعون النفايات لا يمرّون إلّا مرّة في الشهر فيما أظنّ».

«تقصد أنّهم حوّلوا البركة إلى مستودع نفايات؟».

«الواقع أنّ ثمّة شيئاً يمكن أن نقول إنه...».

لم يجرؤ على النطق بعبارة «مستودع النفايات».

ثمّ أردف:

«ينبغي أن نتخلّص من علب التصبير وما إلى ذلك، ونحن نفعل ذلك هناك، خلف تلك الأشجار».

انطلقنا إلى هناك. لقد تركوا بعض الأشجار لتخفي المكان. وأخيراً، ها هي بركتي! إنّها هي. جفّفوها فظهر مكانها حفرة عميقة أشبه ببئر كبير، بعمق عشرة أمتار تقريباً، كان نصفها ممتلئ بعلب التصبير. ولم أستطع تحويل بصري عن تلك العلب.

وقلت:

«شيء مؤسف أن تجفَّف. كانت تعيش في هذه البركة أسماك كبيرة».

«أسماك؟ لم أسمع بهذا أبداً. لم يكن بالإمكان طبعاً أن يُترك هذا الماء الراكد بالقرب من المساكن. فهو يأوي البعوض، فهمت قصدي؟ كلّ هذا كان قبل استقراري هنا».

فسألته:

«لا بدّ أنّ مدّة طويلة مضت على بناء هذه الدور؟».

«عشر سنوات أو إحدى عشرة فيما أعتقد».

فقلت:

«أنا عرفت هذا المكان قبل الحرب. لم يكن فيه شيء عدا الأشجار. لم تكن فيه منازل باستثناء البيت الكبير. لكن هناك أجمة لم تتغيّر، عبرتها مشياً وأنا آتٍ إلى هنا».

«أوه، أجل، أجل... هذه أقدس مقدساتنا. فقد قرّرنا ألّا نبني شيئاً في ذلك المكان. شبابنا يعتبره مكاناً مقدّساً. أنت تعرف أنّ الطبيعة بالنسبة إلينا...».

وحدجني بنظرة خبيثة قبل أن يبوح لي بسرّه:

«لقد أطلقنا اسماً على هذا المكان: وادي الجنّيات».

وادي الجنّيات؟ تخلّصت من هذا الشخص، وعدت إلى السيارة، وقفلت راجعاً إلى بينفيلد. سمّوه وادي الجنّيات! وملؤوا بركتي بعلب التصبير. قطع الله دابرهم! قولوا عنّي ما شئتم -صبياني، غبيّ... إلخ- ولكن ألا يصيبكم الغثيان حين ترون ما يفعلون بإنجلترا؟ حيث كانت تنتصب أشجار الزان يبنون صهاريجهم الصغيرة المخصّصة للعصافير، وأقزامهم الجبسية، وجنّياتهم، ويملؤون الأرض بعلب التصبير.

قد تقولون عنّي: شخص عاطفي وغير اجتماعي، وتعترضون عليّ بقولكم: ألا ينبغي تقديم البشر على الشجر؟ أقول إنّ الأمر يتوقّف على نوعية الشجر وعلى من يكون هؤلاء البشر. ولا يسعك أن تفعل شيئاً إلّا أن تدعو عليهم بالطاعون.

قلت في نفسي وأنا أنزل التلّ المحاذي للشاطئ: انتهت الرغبة في العودة إلى الماضي. ما فائدة العودة إلى الأماكن التي عشت فيها طفولتك؟ فهي لم تعد موجودة. تصعد إلى السطح لتستنشق الهواء من جديد! ولكن الهواء لم يعد موجوداً. فمستودع النفايات الذي نعيش فيه وصل حتّى طبقات الجوّ العليا. على أنّ كلّ هذا لا ينبغي أن ينغّص عليّ. وقلت في نفسي: مهما يكن، ما زالت أمامي ثلاثة أيام، سأنعم فيها بشيء من الهدوء، وأكفّ عن تنكيد نفسي بسبب ما فعلوه ببينفيلد. أمّا عن فكرة الذهاب إلى الصيد، فأعرضت عنها تماماً بالطبع. ماذا سأفعل بالصيد في هذا السنّ؟ فهيلدا على حقّ.

أعدت السيارة إلى مكانها في مرآب الفندق، وذهبت إلى الصالون. كانت الساعة تشير إلى السادسة، وقد شغّل أحدهم

المذياع للاطّلاع على آخر الأخبار. وما كدت أتجاوز العتبة حتّى سمعت الكلمات الأخيرة من نداء استغاثة، فشعرت برجّة عنيفة، لأنّ تلك الكلمات هي:

«. . . لأنّ زوجته، السيدة هيلدا بولينغ مريضة جدّاً».

ثمّ استرسل الصوت الجهوري يقول:

«نداء آخر يتعلق ببيرسفال شوت، شوهد لآخر مرّة. . .»، لكنّني لم أشأ أن أسمع المزيد، وتابعت طريقي. حين تذكّرت هذا لاحقاً، شعرت بنوع من الزهو لأنّه لم يرف لي جفن حين سمعت المذياع يعلن الخبر، ولم تضطرب خطواتي بحيث ينكشف أمري، ويُعرف أنّني أنا هو جورج بولينغ زوج المرأة المريضة. كانت زوجة صاحب الفندق في الصالون، وهي تعرف اسمي، أو على الأقل قرأته في سجلّ الفندق. وعداها لم يكن أحد في الصالة باستثناء رجلَين لا يعرفان عنّي شيئاً. حافظت على رباطة جأشي، وحرصت على ألّا يظهر عليّ شيء. توجّهت ببساطة إلى الحانة الخاصة التي فتحت أبوابها لتوّها، وطلبت كأس جعة كالمعتاد.

كان عليّ أن أفكّر في الأمر. وحين شربت نصف الكأس، بدأ الوضع يبدو لي على نحو أوضح. فهيلدا ليست أشدّ مرضاً منّي. حين ودّعتها كانت تتمتّع بصحّة جيّدة، ولم نكن في وقت من السنة يصاب فيه الناس بالأنفلونزا أو شيئاً من هذا القبيل. فهي إذاً إنّما تدّعي المرض. ولكن لماذا؟

إنّها حيلة من حيلها طبعاً. وبدأت أفهم الوضع بوضوح. اكتشفَت بوسائلها الخاصة -وهو أمر يمكن التعويل عليها فيه- بأنّني لم أذهب إلى برمنغهام، فاختلقت هذه الحكاية لتجبرني على العودة إلى البيت فوراً. فبما أنّها عاجزة عن تصوّر شيء آخر، فمن البديهي

في نظرها أنّني في حضن إحدى النساء. وبطبيعة الحال قالت في نفسها إنّني سأعود على وجه السرعة إلى البيت بمجرّد علمي بالخبر.

وقلت في نفسي وأنا أنهي الكأس الموضوع أمامي: أنت مخطئة يا عجوزي! ليس من السهل أن أسقط في الفخّ. وتذكّرت حيلها السابقة، والجهد الجهيد الذي تنفقه من أجل الإيقاع بي. بل إنّها حين تراودها الشكوك، لا تتوانى في البحث عن دليل القطارات وخريطة شبكة الطرق لكي تتثبّت من حقيقة ما أقول لها عن تنقلاتي. ومرّة تعقبتني في قطار كولشيستير وباغتتني في الفندق الذي نزلت فيه. لكن من سوء حظّها هذه المرّة، رغم حيلتها المحكمة، لم أصدّق أنّها مريضة. بل كنت واثقاً -وهو أمر لا أستطيع تفسيره- من أنّها تنعم بصحة جيّدة.

وشرعت في شرب كأس آخر، وبدأت تبدو لي الحياة بمظهر أكثر انشراحاً. سأتعرّض بطبيعة الحال للتوبيخ عند عودتي، لكنّه سيكون توبيخاً مستحقّاً هذه المرّة. عليها أن تنتظرني ثلاثة أيّام أخرى. والغريب هو أنّ جاذبية الاستمتاع بثلاثة أيّام أخرى تضاعفت بعدما اكتشفت أنّ الأشياء التي جئت من أجلها إلى بينفيلد اندثرت. وأمتع ما في الأمر هو أن أبقى بعيداً عن البيت، أنعم بالهدوء التام، بعيداً عن الأسرة. وشعرت فجأة بالرغبة في البحث عن امرأة. سيكون هذا أحسن تأديب لهيلدا، وسيلقّنها تبعات سوء النية. فما دامت تشكّ فيّ طوال الوقت، على الأقلّ سيكون هناك ما يبرّر شكوكها!

وما إن بدأت الكأس الثانية تلعب برأسي، حتى لاحت لي الفكرة مسليّة. ورحت أتساءل عن الكيفية التي أبلغت بها نداءها. لم أكن أعرف شيئاً عن الإجراء المعمول به. أيشترطون الإدلاء بشهادة

من الطبيب؟ أم أنّ الأمر يقتصر على إرسال نصّ النداء مرفوقاً بالاسم؟ كنت واثقاً من أنّ للأمّ ويلر دخلاً في الأمر. بدت لي لمستها واضحة في الخطّة.

يا لها من وقاحة! النساء مستعدّات للقيام بأيّ شيء بحيث لا يملك المرء إلّا أن يعجب بهنّ أحياناً.

6

بعد الفطور خرجت لكي أتسكّع قليلاً في ساحة السوق. كان صباحاً جميلاً، هادئاً ومعتدلاً، يغمره ضوء أصفر باهت كالنبيذ الأبيض. وامتزج عطر الصيف الطري برائحة سيجاري. سمعت هديراً قادماً من فوق أسطح البيوت، رفعت رأسي فرأيتُ فجأة سرباً من الطائرات الحربية الكبيرة السوداء تعبر السماء وهي تئزّ. كانت من القرب بحيث يُخيّل لمن يراها أنّه يستطيع لمسها.

بعد ذلك بقليل، دوى صوت آخر. ولو كنتَ هناك في تلك اللحظة، لرأيتَ مثالاً نموذجياً لما يسمّى بالانعكاس الشرطي، لأن ما سمعته هو بلا أدنى شكّ صفير قنبلة. كانت قد مرّت عشرون عاماً لم أسمع فيها مثل ذلك الصوت، ولم أكن بحاجة إلى من يعرّفني به. ومن دون تفكير، قمت بما ينبغي القيام به في مثل تلك الحالة: ارتميت أرضاً، وانبطحت.

على كلّ حال، أنا مسرور من أنّكم لم تشاهدوني على تلك الحال، إذ لم يكن منظري مشرّفاً. بقيت مستلقياً على بطني مثل جرذ يحاول أن يتسلّل من تحت الباب. لم يتصرّف أحد بمثل سرعتي. كنت من السرعة بحيث أنّني، خلال المدّة الوجيزة التي استغرقتها القنبلة لتصل إلى الأرض، وجدت الوقت لأقول في نفسي إنّ كلّ

هذا لا يمكن أن يكون إلّا خطأ، وأنّني تركت الناس يتفرّجون على حركاتي البهلوانية عبثاً.

لكن بعد هنيهة، سُمع دوي آخر...

بوووم! برادبرام!

كان صوتاً من الشدّة كما لو أنّه يعلن عن قيام الساعة، وتلاه صوت آخر يشبه سقوط طن من الفحم على صفيحة من القصدير. إنّه صوت القرميد المتساقط. وحشرتُ جسدي في الرصيف، وقلت في نفسي: «ها قد بدأتْ. عزيزنا هتلر لم ينتظر أن نباغته. بعث طائراته المقنبلة دون سابق إنذار».

لكن انظروا مقدار غرابة هذا الأمر. فحتّى عند تردّد صدى هذا الانفجار الذي يصمّ الآذان بحيث تجمّدت من رأسي إلى قدمي، وجدت الوقت لأفكّر في عظمة هذه القذائف ذات العيار الكبير. كيف كان دويّها؟ من الصعب وصفه، لأنّ ما تسمعه يمتزج بالرعب الذي يتملّكك. لكنّ الأغرب هو هذا الشعور العنيف بأنّك تواجه الواقع، وكأنّ أحداً أيقظك مذعوراً بأن صبّ عليك دلو ماء بارد. يخرجك هذا المعدن المنفجر من حلمك بغتة لتجد نفسك أمام الواقع الرهيب.

تعالى الصراخ والعويل وامتزج بصرير فرامل السيارات المتوقّفة فجأة. ورحت أنتظر القنبلة الثانية، لكنّها لم تسقط. رفعت رأسي قليلاً، فرأيت الناس يهرولون في كلّ الاتجاهات وهم يتصايحون، وسيارة تنزلق لتتوقّف في عرض الطريق. وسمعت امرأة تجأر: «الألمان! الألمان!»، ورأيت على نحو غير واضح إلى يميني وجه رجل مستدير أبيض مثل كيس مكمّش من الورق، راح يتمتم: «ما هذا؟ ماذا جرى؟ ماذا يفعلون؟».

فقلت له:

«لقد بدأت الحرب. إنها قنبلة، انبطح!».

لم تسقط القنبلة الثانية بعد، وانتظرت عشرين ثانية تقريباً، ثمّ رفعت رأسي من جديد. كان الناس ما زالوا يتراكضون هنا وهناك، بينما تجمّد آخرون في أماكنهم. ورأيت سحابة عظيمة من الغبار في مكان ما خلف المنازل تتعالى في السماء، يتخلّلها عمود دخان أسود. عندئذ بالضبط رأيت شيئاً عجيباً. في الطرف الآخر من ساحة السوق. رأيت قطيعاً من الخنانيس يندفع في ذلك المنحدر الصغير، فبدا كسيل جارف من الخطوم. وما هي إلّا لحظة خاطفة حتى فهمت: إنّهم ببساطة أطفال المدارس وقد ارتدوا أقنعة الغاز، وهم متوجّهون فيما ظننت إلى الأقبية التي طُلب منهم اللجوء إليها خلال الغارات الجويّة. بل استطعت أن أميّز خنزيراً كبيراً لعلّه الآنسة تودجرز. لكن أؤكد لكم أنّني اعتقدت للحظة أنّهم قطيع خنازير حقّاً.

انتصبت واقفاً، وعبرت ساحة السوق. كان الناس قد بدأوا يستعيدون هدوءهم، وانطلقت جماعة صغيرة منهم باتّجاه المكان الذي سقطت فيه القنبلة.

أوه، أنتم على حقّ بالطبع. ليست طائرة ألمانية والحرب لم تنشب بعد. إنّها مجرّد حادثة. بينما كانت الطائرات تقوم بمناورة وهي محمّلة بالقنابل، ضغط أحدهم خطأ على ذراع التحكم. مجرّد خطأ. وأظنّ أن الشخص سيعاقَب على ذلك. اتّصل عامل البريد بلندن، وسأل عمّا إذا كانت الحرب قد اندلعت، فأجابوه بالنفي. وفهِم الجميع أنّه مجرّد حادث. لكن خلال لحظة قصيرة، بين دقيقة وخمس دقائق، اعتقد آلاف من الناس أنّ الحرب بدأت. وقد سررت

بأنّها لم تدم وقتاً أطول. لو استمرّت ربع ساعة أخرى لكنّا أعدمنا جاسوسنا الأوّل من دون محاكمة.

تبعتُ الحشد. كانت القنبلة قد سقطت على شارع جانبي يتفرّع عن الشارع الرئيس، حيث كان يوجد دكان العمّ إيزيكل، ومتجرنا بالكاد يبعد عنه خمسين متراً. وما كدت أنعطف على زاوية الشارع حتّى سمعت شهيقاً وتأوّهات وهمسات تشي بالخوف والاضطراب. وقد كنت محظوظاً بالوصول إلى الساحة قبل مجيء سيارة الإسعاف ورجال الإطفاء. ورغم احتشاد عشرات الناس في المكان، تمكّنت من رؤية كلّ شيء.

من النظرة الأولى يتهيّأ لك أنّ السماء أمطرت قرميداً وخضراوات. كانت أوراق الكرنب الملفوف متناثرة في كلّ مكان. ذلك أنّ القنبلة حطّمت دكاناً لبيع الخضار، ونزعت سقف البيت الموجود إلى يمينه، مضرمة النار في عوارضه. كما تحطّم زجاج البيوت المجاورة التي تضرّرت بدرجات متفاوتة. لكن كلّ الأنظار كانت مصوّبة على البيت الموجود إلى اليسار، المحاذي مباشرة لبيت الخضار، بحيث زال تماماً الجدار الفاصل، كما لو أنّه قطع بسكّين. والعجيب هو أنّ غرف الطابق العلوي سلمت تماماً، بحيث يتوهّمها الناظر بيت دمى. خزنات ملابس وكراسي غرفة النوم، وورق جدران ملوّن، وسرير لم يرتَّب بعد، توجد تحته مبولة، كلّ ذلك بدا كما لو أنّ الغرف لا تزال مسكونة، باستثناء الجدار الذي اختفى. لكن غرف الطابق السفلي هي التي تضرّرت أكثر من الانفجار، بحيث تحوّلت إلى ركام من القرميد والجصّ وأرجل الكراسي وحطام خزانة أواني المطبخ، ومزق غطاء المائدة، وقطع أطباق مكسورة، ووعاء سقط على الأرض وتدحرج تاركاً خلفه سيلاً من المربّى، وبجانبه بقعة من

الدم. ووسط حطام الأواني توجد ساق لا تزال بسروالها، وفي طرفها حذاء أسود بكعب مطاطي. هذا هو سبب شهيق الناس المحتشدين أمام المنزل، وتأوّهاتهم.

أنعمت النظر في كلّ هذا محاولاً تسجيل كلّ التفاصيل في ذاكرتي. وحين وصل رجال الإطفاء كان الدم قد بدأ يمتزج بالمربّى، فقفلت راجعاً إلى الفندق وأنا مصمّم على حزم حقيبتي.

قلت في نفسي: هذا هو ما سيخلّصني من بينفيلد، ويعجّل بعودتي إلى البيت. على أنّني لم أستطع في الواقع أن أنطلق على الفور دون أن ألتفت إلى الوراء. هذا ما جُبل عليه البشر. حين تقع حوادث من هذا النوع، يقضي الناس ساعات طوالاً في الحديث عنها. لا بدّ أنّ سكان المدينة القديمة في بينفيلد تعطّلوا عن العمل ذلك اليوم. انشغلوا بالحديث عن القنبلة وعن دويّها الذي يصمّ الآذان، وما شعروا به لحظة انفجارها. قالت نادلة حانة فندق جورج إنّ بدنها اقشعرّ من الخوف، وأنّها لن تنعم بالنوم الهادئ في سريرها بعد ذلك اليوم. وماذا تنتظر؟ كيف للمرء أن ينام مع وجود هذه القنابل؟ وهناك امرأة أخرى عضّت لسانها من الخوف عند سماع الانفجار، بحيث قطعت نصفه. وإذا كان الناس في هذا الجزء من المدينة اعتقدوا أنّ بينفيلد تعرّضت لغارة ألمانية، فإنّ سكان الطرف الآخر ظنّوا المصنع الموجود في الأسفل انفجر. وقد علمت من إحدى الجرائد فيما بعد أنّ وزير القوات الجويّة أوفد شخصاً لتقدير الخسائر، رفع تقريراً قال فيه إنّ آثار القنبلة كانت «مخيّبة»، لأنّها لم تخلّف سوى ثلاثة قتلى: الخضّار (وكان يدعى بيروت) وزوجين مسنّين كانا يسكنان البيت المجاور. تمّ التعرّف إلى الزوجة لأنّ جثتها لم تتشوّه كثيراً بينما تعرّفوا إلى الزوج من خلال حذائه. أمّا

الخضّار، فلم يُعثَر على شيء من جثّته، ولو زرّ من أزرار سرواله يقيموا عليه صلاة الجنازة.

بعد الظهر، دفعتُ للفندق ما عليّ، وانسحبت. لم يبقَ في جيبي سوى ثلاثة جنيهات. إنّهم يفعلون كلّ ما في وسعهم من أجل أن ينهبوك في هذا النوع من الفنادق دون أن تشعر، لا سيما إذا كنت مثلي، لا تدقّق في الحسابات. وقد تركت في الغرفة القصبة الجديدة وكلّ معدّات الصيد. فليأخذوا كلّ ذلك، لم أعد بحاجة إليه. يكفيني الدرس الذي لقنته من تبديد جنيه كامل. إنّه درس مفيد: الأشخاص السمان الذين بلغوا الخامسة والأربعين لا ينبغي أن يفكّروا في الصيد. هذا شيء لا يفعله الناس بعد الأربعين، ويجب أن يبقى مجرّد حلم أو نزوة.

شيء غريب كيف تتسلّل الأشياء بالتدريج إلى دماغك. بماذا شعرت على وجه الدقة لمّا انفجرت القنبلة؟ لحظة الانفجار، كدت أموت خوفاً. ثمّ حين رأيت المنزل المحطّم، وساق العجوز، شعرت بذلك الإحساس نفسه الذي ينتابك لمّا تشاهد حادثة سير. شعور على قدر من الاشمئزاز بحيث قزّزني من تلك العطلة المزعومة. لكنّه لم يترك أثراً في نفسي إجمالاً.

وبينما كنت أجتاز آخر ضواحي بينفيلد، وأتّجه شرقاً، عاودني كلّ ذلك. لعلّكم جرّبتم الشعور الذي ينتاب المرء لمّا يكون جالساً إلى مقود سيّارته وحيداً. هناك شيء ما في الأسيجة الرتيبة الهاربة أو في نبضات المحرّك المتواترة التي تمارس نوعاً من التوجيه على أفكارك. وهو أحساس يساورنا أيضاً في القطار. إحساس بأنّنا نرى الأمور على نحو أصحّ من المألوف. أمور كان يلفّها الغموض بدت لي فجأة واضحة. أوّلها أنّني جئت إلى بينفيلد وفي ذهني فكرة

واحدة. ما الذي ينتظرنا؟ هل ضاع كلّ شيء؟ هل يمكن أن نعود إلى الحياة التي عشناها في الماضي، أم ينبغي توديع كلّ ما فات إلى الأبد؟ وأنا الآن أملك الجواب. الحياة التي عشناها في الماضي ولّت، ومحاولة استعادتها مضيعة للوقت. لا يوجد طريق يمكن أن يرجعك إلى بينفيلد مثلما لا يمكن أن يعود يونس إلى بطن الحوت. لقد تيقّنت من كلّ ذلك، ولا أنتظر منكم أن تتبنّوا أفكاري. لقد أتيت عملاً مضحكاً حين قرّرت العودة على أعقابي إلى بينفيلد. فهي قد ظلّت قائمة طوال كلّ هذه السنوات في مكان ما من رأسي مثل ملاذ آمن أستطيع أن آوي إليه كلّما رغبت في ذلك. لكن لما رجعت إليها أخيراً، اكتشفت أنّها لم تعد موجودة. لقد ألقيت بقنبلة على ذكرياتي، والقوات الجوية الملكية تكفّلت بإتمام هذه المهمة بقصفها بقنطارين من الديناميت.

يقولون إنّ الحرب ستندلع سنة 1941، وعندئذ سيكون ثمّة أكوام من الأواني المكسّرة، والمنازل الصغيرة المبقورة مثل علب التلفيف، وأحشاء مساعد المحاسب المتناثرة على آلة البيانو التي ما زال يؤدّي أقساطها. لكن، إجمالاً، أما زالت لكلّ هذا أهمّية تذكر؟ سأخبركم بما استفدته من إقامتي في بينفيلد. كلّ هذا سيحدث: كلّ الأفكار التي تكبتونها في قرارة أنفسكم، كلّ ما ترتعبون منه، كلّ تلك الأشياء التي تقولون إنّها مجرّد كوابيس، أو أنّها لن تحدث أبداً في إنجلترا. القنابل، والطوابير على الطعام، والعصي والأسلاك الشائكة، والقمصان الملونة والشعارات والوجوه الضخمة البادية على الملصقات والرشاشات التي تطلق النار من نوافذ غرف النوم. كلّ هذا سيحدث، وأنا واثق من ذلك، على الأقل في تلك اللحظة. ولا وجود لمَخرَج. ناضلوا لمنع حدوثه كما يحلوا لكم، أو أشيحوا

عنه بوجوهكم، وتظاهروا بأنّكم لم تروا شيئاً، أو احملوا مفكّاً إنجليزياً، واذهبوا مع الآخرين لحضور حصص تهشيم الوجوه، لكنكم لن تجدوا منفذاً يقودكم إلى برّ الأمان. إنّ وقوع هذه الأشياء حتمي ولا مفرّ منه.

ضغطت على دواسة السرعة حتّى كاد المحرك يلفظ أنفاسه، فمضت السيارة العجوز تلتهم التلال، وانطلقت الأبقار وأشجار الدردار وحقول القمح تتدافع بسرعة أكبر خلفي. وانتابني تقريباً الشعور نفسه الذي أحسست به في ذلك اليوم من أيام يناير بينما كنت أعبر شارع ستراند وقد ارتديت طقم أسناني الجديد لأوّل مرّة. وكأنّني وُهبت القدرة على النبوءة فجأة. وتهيّأ لي أنّني قادر على رؤية إنجلترا وأهلها، وما سيحدث لهم، بنظرة واحدة. لكن حتّى في هذه اللحظة، حاصرتني الشكوك. إنّ العالم شاسع، وهو أمر ينتبه إليه المرء حين يكون جالساً إلى مقود سيارته بمفرده. تذكّروا الأراضي الشاسعة التي تقطعونها وأنتم تعبرون جزءاً صغيراً من إحدى المقاطعات الإنجليزية. تشعرون كأنّها في شساعة سيبيريا. حقول وأجمات وضيعات وكنائس وقرى وبطّ يتهادى في المروج. كلّ ذلك يبدو لكم بمنأى عن التغيير، وأنّه منذور ليظلّ كما هو.

في تلك الأثناء بلغتُ أولى الضواحي اللندنية، وسلكت طريق يوكسبريدج إلى أن بلغت سوثال. كيلومترات وكيلومترات من الدور البشعة، يسكنها أناس يعيشون حياة بسيطة كئيبة. وأبعد منها تظهر لندن بشوارعها التي لا تنتهي وميادينها وأزقّتها وعماراتها وحاناتها ومتاجرها... ثمانية ملايين من الناس يعيش كلّ منهم حياته الصغيرة، ولا يسمح بتغييرها. القنابل التي يمكن أن تحوّل كلّ هذا إلى عدم لم تصل بعد. وماذا عن هذا الهرج والمرج؟ وفرادة هذه

الحيوات الخاصة؟ جون سميث المشغول بالرهان على نتائج كرة القدم، وبيل ويليامز الذي يروي النكات في صالون الحلاقة بانتظار دوره، والسيدة جونز التي تعود إلى البيت حاملة جعة العشاء. ثمانية ملايين كائن! ثمانية ملايين سيتمكّنون، سواء سقطت القنابل أم لم تسقط، من الحفاظ على أسلوب حياتهم، أليس كذلك؟

وهم وسراب. الأوقات العصيبة قادمة، والرجال المدجّجون بالأسلحة آتون أيضاً. وأنا لا أعرف ما سنراه حينئذ، ولا أسعى لمعرفته. كلّ ما أعرف هو إن كان لديكم شيء عزيز تتعلّقون به، فالأولى أن تودّعوه من الآن، لأنّ كلّ ما اعتدتم عليه يتصدّع وينهار وينتهي في الوحل تحت وابل الرشاشات المتواصل.

مكتبة
t.me/t_pdf

7

على أنّ مزاجي تغيّر فجأة حين اقتربت من ويست بليتشلي. وراودتني فكرة لم تخطر ببالي البتّة من قبل: ماذا لو أنّ هيلدا مريضة حقّاً؟

قد يكون سبب ذلك تغيُّر المحيط. في بينفيلد بدا لي ادّعاء هيلدا المرض بديهياً، وأنّها إنّما تتظاهر بذلك لكي تعيدني إلى البيت على وجه السرعة. لا أدري لماذا وجدت هذه الفكرة مفروغاً منها. لكن بمقدار ما كنت أتوغّل في ويست بليتشلي، وأرى قرميد عقارات هيسبريتز الأحمر وهو يطبق عليّ مثل أسوار سجن -وهذه هي الحقيقة في الواقع- كانت أفكاري تعود إلى نسقها المعتاد. استبدّ بي ذلك الشعور الذي ينتابني صباح يوم الاثنين، حيث يبدو كلّ شيء كئيباً. اكتشفت أنّ هذه الرحلة التي دامت خمسة أيّام لم تكن غير مغامرة قذرة. هروب خلسة إلى بينفيلد بحثاً عن الماضي، ثمّ عودة ببال مشغول لا يكفّ عن اجترار نبوءات بلهاء حول المستقبل. . . المستقبل؟ ما شأن أناس مثلي ومثلكم بالمستقبل؟ المستقبل بالنسبة إلينا هو التشبّث بالعمل. أمّا هيلدا، فستواصل جزعها على ثمن الزبدة حتّى والقنابل تسّاقط على رأسها.

وأدركت فجأة مقدار غبائي حين حسبت أنّ هيلدا قادرة على

فعل شيء كهذا. كان واضحاً أنّ نداءها على المذياع لم يكن مقلباً! من أين سيأتيها كلّ هذا الخيال؟ ووجدت نفسي أمام الحقيقة القاسية: هي مريضة حقّاً! تبّاً! لعلّها لا تزال تكابد آلاماً مبرحة في هذه الأثناء، بل لربّما تكون فارقت الحياة. وانتابني لهذه الفكرة جزع شديد جمّد الدم في عروقي. سقت السيارة في شارع إليسمير بسرعة تتجاوز ستين كيلومتراً في الساعة. وما كدت أركن السيارة أمام المنزل حتّى قفزت منها دون أن أدخلها إلى المرآب كعادتي.

لعلّكم حدّثتم أنفسكم بأنّني مغرم بهيلدا! لست متأكّداً ممّا تقصدونه بـ«مغرم». هل أنتم مغرمون بوجوهكم؟ ستجيبون بالنفي على الأرجح، لكنّكم لا يمكن أن تتصوّروا أنفسكم من دونها. فهي جزء منكم. هذا بالضبط ما أشعر به نحو هيلدا. حين تجري الحياة على نحو عادي، لا أطيق منظرها، لكن التفكير في أنّها ماتت أو حتّى مرضت، يصيبني بالهلع.

أدخلت المفتاح في القفل على نحو محموم، وفتحت الباب ففغمتني رائحة المعاطف الشتوية القديمة المألوفة. كان الصمت مطبقاً، فصحت: هيلدا! هيلدا! وشعرت بنفسي أتصبّب عرقاً بارداً. لعلّهم نقلوها إلى المستشفى، أو لعلّني سأعثر على جثتها في الطابق العلوي من المنزل.

وبينما كنت أتأهّب لصعود السلَّم، ظهر الطفلان بمنامتيهما في الأعلى، وقد خرجا من غرفتيهما. كانت الساعة تشير إلى الساعة الثامنة أو التاسعة فيما أظنّ. الأكيد هو أن الوقت كان في بداية الليل. تشبّثت لورنا بالدرابزين وقالت:

«بابا عاد! بابا عاد! لماذا أتيت اليوم؟ قالت ماما إنّك لن تعود قبل الجمعة».

«أين أمّكما؟».
«خرجت. خرجت مع السيدة ويلر. لماذا عدت اليوم يا بابا؟».
«أمّكما إذاً ليست مريضة؟».
«كلا. من قال إنّها مريضة؟ بابا، هل ذهبت إلى برمنغهام؟».
«نعم. عودي إلى غرفتك الآن قبل أن تصيبك نزلة برد».
«أين هي الهدايا يا بابا؟».
«أيّ هدايا؟».
«الهدايا التي جلبت لنا من برمنغهام».
«سترونها غداً».
«ألا نستطيع رؤيتها هذه الليلة؟».
«كلا. يكفي، عودا للنوم قبل أن تثيرا غضبي».

هكذا تأكّد أنّ مرضها مجرّد فرية. لقد أوقعت بي. والحقيقة أنّني لم أكن أدري أأغضبني ذلك أم أراحني. عدت إلى باب المنزل الذي ظلّ مفتوحاً، وهناك لمحت هيلدا بلحمها ودمها قادمة في ممشى الحديقة. ومضيت أحدّق فيها وهي آتية في ضوء المساء. شيء غريب! قبل لحظات كنت في منتهى الجزع، أنضح عرقاً مخافة أن تكون ماتت. لكنّها لم تمت. كانت كما عهدتها، بكتفيها النحيلتين ووجهها المهموم، وكما عهدت أيضاً خيوط حياتي معها: فواتير الغاز، وأقساط مدرسة الأطفال، ورائحة المعاطف القديمة، والمكاتب التي تنبغي العودة إليها يوم الاثنين.. أيّ «الحقائق الأبدية» كما يسمّيها بورثيوس. رمقتني بنظرة خاطفة كعادتها حين يكون شيء ما يدور في ذهنها، كتلك النظرة التي نلقيها على حيوان صغير هزيل. ولم يكن بادياً عليها أنّها تفاجأت من عودتي.

بادرتني قائلة:

«ها قد عدت؟».

لم أجب بشيء. فوجودي في البيت معناه أنّني عدت. أمّا هي فلم تكلّف نفسها تحيّتي وتقبيلي. ثمّ استأنفت تقول:

«لم أهيّئ شيئاً للعشاء».

هذا تصرّف من التصرفات التي تعكس جوهر شخصية هيلدا. فهي تعرف دائماً كيف تنكّد عليك بمجرّد ما تعود إلى البيت.

«لم أكن أنتظر عودتك هذا المساء. ستكتفي بالخبز والجبن. ولكن انتظر، أظنّ أن الجبن نفد».

تبعتها إلى الداخل حيث تفوح رائحة المعاطف القديمة، وتوجّهنا إلى الصالون. أغلقت الباب، وأوقدت النور. كنت أنوي أن أكون أوّل من يتكلّم، وكنت أعلم أنّ الأمور ستمضي على أحسن ما يرام إن أنا أبديت شيئاً من الحزم منذ البداية. بادرتها قائلاً:

«حسناً، ما هذا التصرّف الأخرق الذي أتيتِ؟».

كانت قد وضعت حقيبتها على جهاز المذياع، وبدت مندهشة فعلاً.

«تصرّف؟ أيّ تصرّف؟ لست أفهم قصدك!».

«النداء. نداء الاستغاثة!».

«أيّ نداء؟ عمّاذا تتحدّث يا جورج؟».

«تريدين أن تقولي الآن إنّك لم تبعثي بنداء إلى الإذاعة لأعلم أنّك مريضة جدّاً؟».

«بالطبع لا! كيف يمكن أن أقوم بتصرّف كهذا؟ أنا لم أمرض، فلماذا سأفعل شيئاً كهذا؟».

وبينما كنت أهمّ بأن أشرح لها، فهمت ما حدث. لقد أخطأتُ تماماً. لم أسمع إلّا الكلمة الأخيرة من النداء، وبطبيعة الحال كان

الأمر يتعلّق بامرأة أخرى تحمل الاسم نفسه: هيلدا بولينغ. لا بدّ أنّ دليل الهاتف يحوي العشرات من هيلدا بولينغ. ما حدث إذاً كان خطأً من تلك الأخطاء البليدة التي تتكرّر دائماً. فهيلدا لم تبرهن على أنّها تمتلك ولو جزءاً يسيراً من ذلك الخيال المجنّح الذي نسبته إليها. ولا شكّ أنّ الشيء المهم من كلّ هذا هو تلك الدقائق الخمس التي ظننتها فيها ماتت، وتنبّهت إلى أنّني متشبّث بها رغم كلّ شيء. لكنّها لحظة صارت من الماضي، ولم تعد لها أيّ أهميّة. وبينما كنت أفسّر لها ما حدث، راحت تتفحّصني، وقرأت في عينيها بأنّني سأواجه متاعب. وما لبثَت أن شرعت تستجوبني بذلك الصوت الذي أصنّفه في «الدرجة الثالثة»، ليس صوت الغضب أو الإدانة كما قد يخيّل إليكم، بل صوت هادئ رزين، لا يخلو من تحفّظ.

«سمعتَ إذاً النداء وأنت في فندقك في برمنغهام؟».

«أجل، سمعته مساء أمس على الإذاعة الوطنية».

«ومتى تركت برمنغهام؟».

«هذا الصباح طبعاً».

(كنتُ قد هيّأت خطّة محكمة إن أنا اضطررت إلى الكذب: انطلقت على الساعة العاشرة، وتناولت وجبة الغداء في كوفانتري، وشربت الشاي في بيدفورد. ورسّختها بعناية في ذهني).

«إذاً علمت مساء أمس أنّني مريضة جدّاً، ولم تغادر إلّا هذا الصباح؟».

«ألم أقل لك إنّني لم أصدّق أنّك مريضة حقّاً؟ ظننت أنّه مقلب من مقالبك».

فردّت بصوت كلّه مرارة أدركت منه أنّها لن تقف عند هذا الحدّ:

«إذا كان ما تقول صحيحاً، فلماذا عدت الآن إذاً؟».

ثمّ أضافت بنبرة هادئة:

مكتبة
t.me/t_pdf

«غادرت إذاً هذا الصباح».

«نعم في حوالي العاشرة، وتناولت الغداء في كوفانتري».

فصرخت في وجهي:

«فكيف تفسِّر هذا إذاً؟».

وأخرجت من حقيبتها اليدوية قطعة ورق راحت تلوح بها في وجهي، كما لو أنّها أخرجت برهاناً دامغاً.

انقطعت أنفاسي. كان عليّ أن أتوقّع هذا! ها هي تمسك بي متلبّساً من جديد. لم أكن أعرف شيئاً عن تلك الورقة سوى أنّها تثبت خيانتي، وفقدت رباطة جأشي تماماً. قبل لحظات كنت أوبّخها وألعب دور زوج عاد من برمنغهام بلا داعٍ، وبحركة واحدة قلبت الموقف لصالحها. لا داعي لأن أصف حالي في هذه اللحظات. الجُرم مكتوب بحروف بارزة على جبين الجاني، مع أنني لم أقترف جناية! إلّا أنّها مسألة عادة. أنا متعوّد على أن أكون المخطئ. ولم أستطع إبعاد الشبهة عنّي لمّا أجبت:

«ماذا تقصدين؟ ما هذه الورقة؟ اقرئيها وسترين».

تناولتها. إنّها رسالة تحمل عنوان مكتب محاماة موجود في الشارع نفسه الذي يوجد فيه الفندق الذي يفترض أنّني نزلت فيه.

«سيدتي، جواباً على رسالتك المؤرّخة بـ18 من الشهر الجاري، نظنّ أن ثمّة خطأً. فهذا الفندق أغلق أبوابه منذ سنتين، وتحوّل إلى بناية تحوي مكاتب. لم يأتنا أحد تنطبق عليه أوصاف زوجك التي بعثت لنا بها. من المحتمل...».

توقّفت عن القراءة، وتجلّت لي الحقيقة واضحة في لمح

البصر. اعتقدت نفسي الأذكى، وها أنذا أؤدّي الثمن، ولم يعد أمامي إلّا بصيص أمل واحد: لعلّ الشاب ساندرس نسي أن يبعث الرسالة التي تحمل عنوان الفندق عبر البريد. وفي هذه الحالة يمكن أن أتجاسر على مواجهتها. على أنّ هيلدا لم تترك لي منفذاً.

«إذاً لقد رأيت بأمّ عينيك ما تقول الرسالة يا جورج! لقد راسلت فندقك روبوتوم يوم غادرت لأسألهم عمّا إذا كنت وصلت بخير. وها قد رأيت ماذا كان جوابهم! لا وجود لفندق بهذا الاسم. وفي اليوم نفسه والوقت ذاته تلقيت رسالة تقول إنّك نزلتَ فيه. لا بدّ أنّك انتدبت أحداً ليبعثها عبر البريد. هذه هي الأشغال التي سافرت من أجلها إلى برمنغهام!».

«لكن أنصتي إليّ يا هيلدا! أنت مخطئة. الحقيقة غير ما تظنّين تماماً. من الصعب أن تفهمي».

«كلا يا جورج. لقد فهمت كلّ شيء».

«لكن تريّثي قليلاً يا هيلدا...».

ذهبت محاولاتي سدى بالطبع. وجدت نفسي محاصراً، ولم أعد قادراً حتّى على النظر في عينيها. استدرت واتّجهت نحو الباب.

«كلا يا جورج، لن تخرج من هذه الورطة هكذا. ستبقى هنا، وتنصت لما سأقول. اجلس!».

«ولكن، تبّاً! ينبغي أن أشعل الأضواء، لقد فات أوان إشعالها. لا أظنّك ترغبين في أداء غرامة؟».

سمحت لي بتجاوز عتبة الباب. خرجت وأوقدت الأنوار، ولمّا عدت كانت لا تزال واقفة في مكانها بوجهها المتجهّم والرسالتان أمامها على المائدة، رسالتي ورسالة مكتب المحاماة. كنت قد استعدت شيئاً من رباطة جأشي، وحاولت أن أشرح لها من جديد:

«اسمعيني يا هيلدا، إنّك أخطأت الطريق. أمهليني لأشرح لك».

«تستطيع أن تشرح ما شاء لك أن تشرح، لكن، هل سأصدقك؟!».

«إنّك تقفزين مباشرة إلى النتائج! على كلّ حال، ما الذي دعاك إلى الكتابة إلى ذلك الفندق؟».

«السيدة ويلر هي التي فكّرت في الأمر، وقد كانت فكرة ممتازة. الدليل هو ما ترى!».

«حسناً، السيدة ويلر إذاً هي صاحبة الفكرة! هذا معناه أنّك تخوضين في أمورنا الشخصيّة مع تلك المرأة!».

«لم أكن بحاجة إلى أن أحدّثها. علمت بسفرك، فنبّهتني إلى نواياك. هذا ما حدّثها به حدسها. هي لا يمكن أن تنخدع بتصرفاتك يا جورج لأنّها كانت متزوّجة من رجل مثلك تماماً».

تفرّستها، كان وجهها شاحباً كشأنها كلّ مرة تخالني على علاقة بامرأة أخرى. ليت هذا كان صحيحاً!

ماذا ينتظرني الآن يا إلهي! لعلّكم تعرفون بقيّة الحكاية. أسابيع كاملة من الاتهامات الشنيعة والتكشير والتلميحات الخبيثة والتأخّر في تقديم وجبات الطعام، والطفلان اللذان يريدان معرفة ما وقع. لكن ما كان يحبطني أكثر هي هذه العقلية البئيسة، وهذه الطريقة البغيضة التي تحول بين هيلدا وإدراك الأسباب الحقيقية التي دفعتني للهرب إلى بينفيلد. حتى لو قضيت أسبوعاً أشرح لها سبب سفري، لن تفهم شيئاً. ومن يستطيع أن يفهم ذلك في حيّ إليسمير بأكمله؟ بل، سحقاً! أأستطيع أنا نفسي أن أفهمه؟ لقد بدأت تلتبس عليّ الأمور. لماذا ذهبت إلى بينفيلد؟ وهل ذهبتُ إليها حقّاً؟ لقد بدت

مغامرتي في هذا الجوّ مجرّد عبث لا معنى له. لا شيء حقيقي في إليسمير سوى فاتورة الغاز وأقساط دراسة الأبناء والكرنب المسلوق والمكتب صباح الاثنين.

وحاولت مرّة أخرى.

«اسمعي يا هيلدا، أعرف ما يدور في خلدك. إنّك مخطئة تماماً. أقسم لك أنّك مخطئة».

«كلا يا جورج. إن كنت مخطئة كما تزعم، فلماذا كذبت عليّ كلّ هذا الكذب؟».

لا مخرج بالطبع.

ورحت أذرع الغرفة طولاً وعرضاً. كانت رائحة المعاطف القديمة قويّة. لماذا هربت بتلك الطريقة؟ لماذا شغلت بالي بالماضي والمستقبل، بما أنّ لا أهمية لهما؟ مهما كانت دوافعي، فأنا بالكاد أتذكّرها الآن. لأن الحياة السابقة في بينفيلد والحرب وما بعد الحرب وهتلر وستالين والقنابل والرشاشات والطوابير والعصي، كلّ هذه الأشياء تلاشت وسقطت في العدم، ولم يبقَ منها سوى مشاحنات منزلية تفوح برائحة المعاطف.

وحاولت محاولة أخيرة.

«هيلدا! أنصتي إليّ دقيقة، دقيقة فقط. لم تسأليني أين كنت خلال هذا الأسبوع؟».

«لا يهمّني أن أعرف أين كنت بما أنّني أعرف ماذا فعلت. وهذا فيه الكفاية بالنسبة إليّ».

«ولكن...».

محاولة ضائعة بالطبع. أصدرَت قرارها بأنّني مذنب، وستفرغ عليّ الآن كل ما يثقل على قلبها. ستستغرق ساعتين كاملتين، ولن

يتوقّف الأمر عند ذلك الحدّ، لأنّها ستتساءل من أين أتيت بالمال الذي أنفقته خلال الرحلة، وسينتهي بها الأمر إلى اكتشاف أنّني أخفيت عنها سبعة عشر جنيهاً. ولا وجود لما يمنع من أن تدوم الدوشة إلى الثالثة صباحاً. لا فائدة من الاستمرار في تمثيل دور المتّهم البريء. كلّ ما كنت آمله في تلك الأثناء هو أن أخرج بأقلّ الأضرار. ورحت أقلّب في ذهني الاحتمالات الثلاثة التي أمامي:

1- أصارحها بما فعلت حقّاً، وأحاول إقناعها بكلّ الوسائل إلى أن تصدّقني.

2- التظاهر بأنّني فقدت الذاكرة.

3- أدعها تستمرّ في الاعتقاد بوجود امرأة خلف كلّ هذا، وأدفع الفاتورة.

لكن ليذهب كلّ هذا إلى الجحيم! فأنا أعرف مسبقاً أيّ احتمال سأختار في آخر المطاف.

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة

جورج أورويل

شيء من الهواء المنعش

تُعدُّ رواية **شيء من الهواء المنعش**، بما تتضمن من هَزَل ومرح، من أمتع ما ألّفه جورج أورويل. كتبها في مراكش حيث كان يقضي فترة نقاهة إثر إصابته في الحرب الأهلية الإسبانية، ونشرها سنة 1939. تدور أحداثها حول حياة جورج بولينغ، رجل أربعيني يعيشُ أزمة منتصف العمر، خائفاً من اندلاع حرب وشيكة ومن طغيان الأنظمة الاستبدادية.

يطمح هذا الموظف البسيط، المتزوِّج منذ خمس عشرة سنة من امرأة لا يحبها، والأب لطفلَين جاحدَين، إلى استنشاق «شيء من الهواء المنعش». هكذا ينطلق، هارباً من الرتابة، باحثاً عن الزمن الضائع، إلى الأمكنة التي قضى فيها طفولته، فيشاركنا انطباعاته عن الماضي والحاضر، مثيراً مشاعرنا بصدقه، ويدعونا إلى التأمُّل والتفكير، كما هي الحال دائماً عند أورويل.

لا تكمن أهمية هذه الرواية المدهشة بحداثتها في أسلوبها العميق فحسب، بل في قيمتها التنبؤية أيضاً، إذ حملت بين طيّاتها بذورَ **1984**، العمل الذي يُعتبر، من دون منازع، رائعة أورويل الخالدة. فقد كشفَ الكاتب في مراسلاته لبعض أصدقائه، خلال تأليفه لـ **شيء من الهواء المنعش**، أن فكرة رواية أخرى خطرت له، رواية ستلفت إليها الأنظار... ليته عرف كم كان محقّاً!

telegram @t_pdf

صورة الغلاف: Shutterstock ©

ISBN 978-9953-68-925-8
9 789953 689258

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com